

أحمد شوقي

بقلم

الدكتور زكي مبارك

إعداد وتقديم

كريمة زكي مبارك

دار الجيل

بيروت - لبنان

ان نفسى لتطيب كلما ذكرت
انى كنت اول ناقد
انصف شوقى فى حياته

زكى مبارك

المقدمة

بقلم : كريمة زكى مبارك

شغلت من سنوات وسنوات بجمع المقالات المبعثرة فى الجرائد والمجلات لأديب الأمة العربية الدكتور زكى مبارك، ولفت نظرى انشغال الأديب الناقد زكى مبارك بالشاعر أحمد شوقى ، حتى ان زكى مبارك نفسه يقول :

« للشاعر شوقى حظ عظيم من عناية المؤلف، وان نفسى لتطيب كلما ذكرت أنى كنت أول ناقد أنصف شوقى فى حياته » ، فهل التقى زكى مبارك بأحمد شوقى ؟

فى سنة ١٩١٤ حضر زكى مبارك الاحتفال بوضع الحجر الأساسى للجامعة المصرية وفى تلك الحفلة ألقيت قصيدة من شعر شوقى ، ولكن زكى مبارك لم يجد من يرشده الى مكان شوقى ليسلم عليه .

وفى سنة ١٩٣٩ كان زكى مبارك رئيس تحرير جريدة الأفكار :

وفى منزل الشيخ عبد اللطيف الصوفانى التقى زكى مبارك بأحمد شوقى لأول مرة ، فكيف كان اللقاء ؟

يقول زكى مبارك (١) : « حين عاد الشاعر شوقى من منفاه تلفت لرؤيته ، فرأيته أول مرة فى منزل المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بك بالحلمية الجديدة .

رأيته رجلا خاليا من الأبهة والوجاهة فى ملبسه وهندامه ، رجلا قليل الكلام كثير الصمت ، لا يدل مظهره على شىء ، وان طبقت شهرته الآفاق ، وقد قدمونى يومئذ اليه ، فأنشدته قصائد كثيرة من شعره ، وكان يأنس الى من يرددون أشعاره ويعترفون بعظمته الشعرية .. »

وفى سنة ١٩٢٠ نظم أحمد شوقى قصيدة فى الدعوة الى قبول مشروع ملنر، فكيف كان وقع تلك القصيدة على زكى مبارك ؟

يقول زكى مبارك (٢) : « قرأت تلك القصيدة وأنا فى غياهب الاعتقال (٣) ، فثار غضبى عليه ، وصممت على ايذائه حين أجد السبيل الى تنسم هواء الحرية ولما خرجت من الاعتقال فى خريف سنة ١٩٢٠ كان أول ما كتبت مقالة فى نقد شوقى بمناسبة قصيدته فى مشروع ملنر ونشرتها فى جريدة المحروسة (٤) ، فغضب الشاعر وأضاف اسمى الى خصومه الالداء، ولكن المقادير أرادت غير ما أردت وما أراد .. واليكم أسوق الحديث :

كان شوقى بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده الجياد الا فى جريدة الأهرام وكانت جريدة الأهرام تسميه « أمير الشعراء غير منازع

---

(١) هذا القول من حديث اذاعى القاه زكى مبارك فى الاذاعة المصرية فى أول اكتوبر ١٩٣٨ وهو منشور فى كتاب الأسمار والأحاديث للدكتور زكى مبارك صفحة ١٥٦ .

(٢) الأسمار والأحاديث صفحة ١٦٢ .

(٣) اعتقل الانجليز زكى مبارك فى ديسمبر سنة ١٩١٩ وصيروه اسير حرب .

(٤) المقال على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان « مقاصد الشعراء » .

ولا مدافع ، وقد احتالت جريدة السياسة بنشر تلك القصائد الجيـاد فأعلنت انها تقدم خمسين جنيها الى الجمعية الخيرية الاسلامية فى كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقى •• ورأى شوقى امام هـذه الحيلة البارعة ان لا مفر من ان يختص جريدة السياسة باشعاره ، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته ، لأنها وثيقـة نفيسة تشـهد بعظمته الشعرية » •

ثم يقول زكى مبارك « انتقلت قصـائد شوقي من الأهرام الى السياسة •• فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل ، ولم تعد تسميه « أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع » ، حين تجىء مناسبة لذكر اسمه ، وانما صارت تسميه صاحب العزة أحمد بك شوقى •

وقد تنبهت الى هذه الظاهرة مع صديق قديم هو الدكتور سعيد عبده ، وكان يومئذ طالبا بمدرسة الطب فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها فى جريدة الصباح وقد قرأ شوقى ما كتبت وما كتب صديقى سعيد عبده فطرب ورآنا من النوابغ !

وأرسل ابنه حسين الى صاحب الصباح يدعونا جميعا للغـداء بكرمة ابن هانىء فى المطـرية •

ولم يشأ أن يجشمنا مشقة الانتقال فأعطانا موعدا بأحد أندية القاهرة ، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا الى المطرية مكرمين معززين ••

ويضيف زكى مبارك : «وكان ذلك اليوم هو بداية صداقة حقيقية بينى وبين شوقى ثم زادت الألفة فكنا نلتقى كل يوم بمكتبه فى شارع جـلال » •

بعد ذلك توثقت الصلة بين زكى مبارك وأحمد شوقى فى سـنة ١٩٢٥ ، وفى ذلك يقول زكى مبارك (١) : كانت الأقـدار سمحت

---

(١) الرسالة العدد ١٩٢ •

بأن تنعقد بيني وبين شوقي مودة دامت نحو سنتين وفي تلك الأيام عرفت من أحوال شوقي أشياء وأشياء ومن المؤكد أنه من أعاظم الرجال الذين عرفتهم في حياتي فقد كانت أستاذيته في نقد المجتمع مضرب الأمثال وكان روحه من ألطف الأرواح .

ثم يقول زكي مبارك (١) : « صحبنا شوقي وعاصرناه ، وهو بحمد الله يعيش في مدينة واحدة .. صاحب شوقي ان شئت ، فستراه قليل الحديث ، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع ، لهذا الرجل الصموت ، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين ، ولكني وقد عرفت شوقي أحكم بأن هذا مجنون جديد من مجانين ليلى وليلاه هي الشعر ، وهو بالشعر مجنون لا مغرم ولا مفتون ، وهو يهرب من الناس حين يشرع في النظم فلا تراه الا هائما على وجهه من طريق الى طريق وفي حال تنذر بالجنون .

وكان شوقي قلما يتحدث عن شعره ، وقلما ينشده ، وانما يوكل بانشاده من يتوسم فيه حسن الفهم ، وحسن الأداء .

وكان فكري أباظة هو الأثير عند شوقي في القاء شعره البليغ.

وبعد ذلك يتساءل زكي مبارك : ما شوقي وما شعره ؟ ويجيب زكي مبارك بقوله : كان شوقي عاديا في حديثه، وفي مظهره، ولكنه كان في شعره أعجوبة الأعاجيب وما أذكر أن حديث شوقي راعني مرة ، أو دلني على أن للرجل عقلا يمتاز به على سائر عقول البشر ، ولكن هل العبقرية لباس مهندم ولسان معسول ؟

هيهات .. لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن يكون أشعر الناس في زمانه ، لأن العبقرية سر مكنون .

ولا تسأل (٢) عن السر في عظمة شوقي ، لأن الشعر في أكثر

---

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية ص ١٢٩ .

(٢) البدائع الطبعة الثانية الجزء الأول صفحة ٤٠ .

الأحيان من النفحات الالهية التي لاتنال بالجد وعرق الجبين فليس بأعلم معاصريه ، ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود ، وقد أفصح هو عن ذلك أبدع افصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شأنى
أنا أسمو الى نباهة شانه
كان بالسبق والميادين أولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه
انما أظهروا يد الله عندى
وأذاعوا الجميل من احسانه
ما الرحيق الذى تذوقون من كر
مى وان عشت طائفا بدنانه
وهبونى الحمام لذة سجع
أين فضل الحمام فى تحنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

ثم يقول زكي مبارك ان شوقى كان مفطورا على الشعر ، وكانت الحياة فى عينيه شعرية الملامح .

ويرى زكى مبارك (١) «أن من الأدباء والفنانين من تصبح آثارهم كالدنانير التى يتميز بها جيل عن جيل ولا يمكن تزييفها الا بجهد عنيف ، وشواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم ، فشوقى ينم شعره عليه » .

كما يرى زكى مبارك (٢) أن من البيان البسيط ذلك النوع السهل الذى يفهمه سواد الناس كقول شوقى :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) عبقرية الشريف الرضى طبعة بيروت الجزء الأول صفحة ٥٤ .
(٢) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٤٨ .

ويقول زكي مبارك ان شوقي صرح بأن أعظم قصائده هي النونية الآمونية ، وانها أعظم ما خطته يمناه (١) :

درجت على الكنــز القــرون وأتت على الدن الســـنون

أما حافظ ابراهيم فكان يرى ــ كما يقول زكي مبــارك ــ ان أعظم قصيدة نظمها شوقي هي البائية الكارنارفونية :

في الموت ما أعيــا وفي أســـبابه كل امرىء رهن بطي كتــابه

ويقول زكي مبارك انه سأل مرة الشاعر حافظ ابراهيم أتحفظ شيئا من شعر شوقي فأجاب حافظ :

لقد قتلني شوقي حين قال في اللورد كارنارفون :

أفضى الى ختم الزمان ففضــه
وحبا الى التاريخ في محـــرابه

وطوى القرون القهقرى حتى أتى
فرعون بين طعـــامه وشرابه

اذن للشاعر شوقي حظ عظيم من عناية زكي مبارك المؤلف كما رأينا وكمـا سنرى ..

في سنة ١٩٢٥ كتب زكي مبارك فصولا مطولة عن شعر شوقي (٢)، ففي الطبعة الثانية من كتابه « الموازنة بين الشعراء » وازن زكي مبارك بين الشاعر أحمد شوقي وبين الشعراء الحصري والبحتري والبوصيري والبارودي وابن زيدون ؟ .

وفي كتاب زكي مبارك « عبقرية الشريف الرضي » (٣) يتحدث زكي مبارك عن الشريف الرضي وعن الشعراء الوصافين فيقول :

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٢ .
(٢) وهي مقالات نشرت أول مرة في جريدة المقطم سنة ١٩٢٥ .
(٣) طبعة بيروت الجزء الثاني صفحة ١٩٤ .

« ان شوقى شاعر وصاف وله قصيدة مشهورة فى التاريخ وهى التى يقـول فيها :

أيها المنتحى بأسوان دارا	كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع	لا تحاول من آية الدهر غضا

وفى كتاب « مدامع العشاق » (١) قال زكى مبارك ان شـعراء العصر قد أجادوا فى وصف الأرق الطويل ومن ذلك قول شوقى :

ساءلتنى عن النهار جفونى	رحم الله يا جفونى النهارا
قلن نبكيه قلت هاتى دموعا	قلن صبرا فقلت هاتى اصطبارا
يا ليالى كم أجدك طوالا	بعد ليلى ولم أجدك قصارا
ان من يحمل الخطوب كبارا	لا يبالى بحملهن صغارا
لم نفق منك يا زمان فنشكو	مدمن الخمر ليس يشكو الخمارا

ثم ماذا أيضا ؟

ثم ان زكى مبارك الأديب والناقد شغل نفسه بآراء أحمد شوقى فى كتابه أسواق الذهب ففى كتاب « النثر الفنى » (٢) وفى حديث زكى مبارك عن السجع يقـول زكى مبـارك من أجمـل ما قرأت فى الدفاع عن السجع قول ابن أبى الحديد فى الرد على من يرون السجع بابا من التكلف : « المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته للسامعين » فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟

ألا ترى أن الشعر نفسه لابد فيه من تكلف اقامة الوزن ؟ وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك ؟ .

---

(١) مدامع العشاق الطبعة الثانية صفحة ١٦٤ .

(٢) النثر الفنى الطبعة الثالثة الجزء الأول صفحة ١٢٣ .

ثم يقول زكى مبارك : وفى هذا المعنى قال شوقى طيب الله ثراه : (١)

« كل موضع للشعر الرصين محل السجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع فانما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين : من حكمة تخترع أو مثل يضرب أو وصف يساق وربما وشيت فيه الطوال من رسائل الأدب الخالص ورصعت به القصار من فقر البيان المحض ، وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعدوه عيبا فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه يوضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على باب أو حشوا فى رسائل ساسية ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية .

فيا نشء العربية ان لغتكم سرية مثرية ، ولن يضرها عائب ينكر حلاوة الفواصل بالكتاب الكريم ولا سجع الحمام فى الحديث الشريف ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح »

واذا تركنا كتاب زكى مبارك النثر الفنى ، وانتقلنا الى كتابه البدائع نجد لشوقى نصيبا كبيرا من عناية المؤلف فى هذا الكتاب .. ففى البدائع يرى الأديب الناقد زكى مبارك أن الشاعر شوقى سلك نفس المسلك الذى درج عليه شعراء اللغة العربية منذ القديم وهو افتتاح القصائد بالنسيب ، وان باب النسيب هو أضعف الجوانب فى « الشوقيات » ويعلل زكى مبارك ذلك بأن الشاعر شوقى عاش مقسم القلب ، موزع الاحساس ، فكان ينتقل من حب الى حب ، ومن حسن الى حسن فلم يقع لذلك على وقدة الهجر أو أسر الصدود » .

ثم يضيف زكى مبارك : « انه لعزيز أن يدور شعراؤنا حول الحب فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون ، فحيرة الشاعر اليوم هى حيرة

---

(١) أسواق الذهب صفحة ١٠٩ .

أسلافه منذ قرون ، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقد . وهــذا الحسن ـــ ان لم يلطف الله ـــ ماض فى الفتك بلفائف القلوب وقــد جدت للأرواح أزمات جديدة ، ومطامع جديدة ، لم يشق بها الأولون .. فليس من المغالاة فى شيء أن نصارح القراء بأن الغزل فى شــعر شوقى وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما فى نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق أو الظمأ أو الالتياع ..

وهذه المؤاخذة توجه الى الأدب فى جملته لأن قراء العربية فى هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيــونهم وصمت آذانهم وجمدت مشاعرهم عن فهم ما فى هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية ، والأذكياء منهم جبناء يكتبون غير ما يشعرون ، وهذا هو السر فى انحطاط الأدب العربى الحــديث والا فأين فى مصر الشاعر أو الكاتب الذى استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال الى هدى ، أو من هدى الى ضلال ؟ وأخيرا يقول زكى مبارك : « لعل أفظع رزء منى به الشرق هــــو الغفلة عن تربية العواطف وغض الأبصار عن روائع الجمال ، ومصدر ذلك ـــ فيما أظن ـــ أنه يندر فى الشرق أن يكون شيء من الأمر بيد الشاب فنحــن نعيش فى قيود وأغلال وطرق حديدها جماعة من الحمقى البلداء الذين يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوى العقل واضح الفكر مضيء الادراك » .

ويظل زكى مبارك مشغولا بأحمد شوقى ففى كتاب « مجنون سعاد (١)» الذى صدر فى مارس ١٩٧٧ عن دار الهلال يقول زكى مبارك فى رسالته الواحدة والخمسين موجها حديثه الى محبوبته سعاد :

نسيت فى الرسالة الماضية أن أذكر فكرة ملأت خــواطرى حين حضرت الاحتفال بتكريم على باشا ابراهيم ، فما تلك الذكرى الشعرية؟

(١) « مجنون سعاد » مقالات نشرها زكى مبارك فى مجلة الصباح ابتداء من سنة ١٩٣٨ .

في صباح يوم الجمعة ٢٩ فبراير ١٩٢٩ نشرت جريدة الأهـرام قصيدة غراء لأمير الشعراء شوقى فى تكريم الدكتور على ابراهيم .. وكان مبضعه قد استأصل علة من جسم الشاب حسين شوقى ، وكان حسين كما وصفته جريدة «الاهرام» يومئذ زهرة بيت أمير الشـعراء النضرة الزاهية ، ثم يقول زكى مبـارك عن القصيدة :

تلك قصيدة رائعة ختمها شوقى بهذه الأبيات :

يا أخى والذخـر فى الدنيـا أخ
حاضر الخـير على الخير أعـانا

لك عنـد ابنى ، أو عنـدى يـد
لست آلـوها ادركارا وصـيانا

حسـنت منى ومنـه موقعـا
فجعلنا حرزها الشكر الحسـانا

هـل ترى أنت ؟؟ فانى لم أجـد
كجميل الصنع بالشكر اقتـرانا

واذا الدنيـا خلت من خـير
وخلت من شـاكر هـانت هوانا

دفع الله « حسـينا » فى يـد
كيـد الألطاف رفقا واحتضـانا

لوتناولت الـذى قـد لمست
منه ما ردت حـذارا وحنـانا

جـرحه كان قلبى ، يـا ابـا
لا أنبيـه بجـرحى كيف كانا

لطف الله فعـوفينا معـا
وارتهنـا لك بالشـكر لسـانا

ثم ماذا ؟؟

ثم نرى أن للشاعر زكى مبارك قصيدة مهداة للشاعر أحمد شوقى

فى ديوان زكى مبارك الثانى ألحان الخلود قصيدة بعنـوان ..
« دار الوجد والمجد »

والقصيدة طويلة يستهلها زكى مبارك بهذا البيت :

بأهل اسـكندرية بعض ما بى   من الأحزان للثغـر المصـاب

والقصيدة بتاريخ أول أغسطس ١٩٤١ ويقول زكى مبارك فى مقـدمة القصيدة :

« لو عاش شوقى الى أن شهد ما تعانى الاسكندرية من كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ فالى روحه فى دار الخـلود أهدى هـذا القصيد .. »

بل أن الشاعر زكى مبارك عارض الشاعر أحمـد شـوقى فى قصـيدته :

مضنى وليس بـه حـراك   لـكن يخـف اذا رآك

وقصيدة زكى مبارك بعنوان عبادة الجمال

ويستهل الشاعر زكى مبارك قصيدته بقوله :

الشمس تشرق من ضـياك   والبـدر يطلع من سـناك

الى أن يقـول :

ان عزنى دهرى وكادت لى الليالى فى هـواك

زودتهـا صـبر الـكريم وحلمـه حتى أراك

واذا قضى رب الصـبابة أن تصر على جفـاك

وقضيت أيامي أسـيرا لم أمتـــع بالفـــكاك
فالروح مرجعهــا اليــك فهل يظللها رضــــاك ؟

وفى نهاية القصيدة يقول زكى مبـــارك : (١)

« « ان هذه القصيدة من أقدم ما نظـم الشاعر وقد عارض بها قصـــيدة شوقى :

مضنى وليس به حــراك لــكن يخف اذا رآك

ومع أن شوقى لا يجارى فقد كانت هذه القصيدة فى ذلك الوقت طرفة وتحفة لأن الشاعر كان فى بدايته الشعرية وقد عرضها على الشاعر شوقى بعد أعوام طوال فأثنى عليها أطيب الثناء » .

واذا انتقلنا الى كتاب آخر من كتب زكى مبارك نجد أن فى كتاب « الأسمار والأحاديث » أحاديث وأحاديث عن الشاعر أحمــد شوقى .

يقول زكى مبارك (٢) « كان شوقى يخاف أن ينساه أهل مصر فهو الذى قال ان مصر بلد كل شىء فيه ينسى بعد حين فنظم شـــوقى النـــونية المشـــهورة :

يا نائح الطـــلح أشــباه عــوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينـــا

فى هذه القصيدة كما يقول زكى مبارك مجد أحمد شوقى مصر والنيـــل أغظم تمجيـــد اذ يقـــول :

« لم يجــر للدهر اعــذار ولا عــرس
الا بأيامنـــا أو فى ليــــالينا

---

(١) القصيدة بتاريخ ١٩١٣ وهى منشـــورة فى ديوان زكى مبـارك الحان الخلود صفحة ٢٩٩ .

(٢) الأسمار والأحاديث صفحة ١٥٩ .

نحن اليواقيت خاض النـار جوهرنا
ولم يهن بيـد التشتيت غالينـا
ولا حـوى السعد أطغى فى أعنته
منـاجيادا ولا أرخى ميـادينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبـل
قبـل القيـاصر دناها فراعينـا
ولم يضـع حجـرا بان على حجـر
فى الأرض الا على آثار بانينـا
كأن أهـرام مصر حائط نهضت
به يد الدهـر لا بنيان بانينـا »

واذا تركنا كتب زكى مبـارك المطبـوعة لنعيش فى كتـابات زكى مبارك المبعثرة فى الجرائد والمجلات نجد أن زكى مبـارك كتب الكثير والكثير عن الشاعر أحمد شـوقى ، فعلى صفحات مجلة أبولو فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ كتب زكى مبـارك تحت عنـوان :

« شوقى أمام التاريخ » كتب بحثا فريدا تحدث فيه عن الحكمة المقصودة فى شعر شوقى وأيضا عن الحكمة الفطرية فى شعر شوقى.

ويرى زكى مبـارك أن شوقى كان حكيما فى هذا البيت :

أن ملكت النفـوس فابغ رضـاها
فلهـا ثورة وفيهـا مضـاء

كما يرى زكى مبارك ان شوقى فى هذا البيت :

من صحب الحيـاة بغير عقـل
تورط فى حـوادثهـا اندفاعا

وقع موقعا طبيعيا لم يشنه الحكمة ولا اختلاق أسباب القـول الحكيم ، وفى ديسمبر أيضا وعلى صفحات جريدة البـلاغ سنة ١٩٣٢

وصف زكى مبارك الاحتفال الذى أقيم لتأبين أمير الشعراء أحمد شوقى ..

بل ان زكى مبارك كان أول من تطرق الى التربية والتعليم فى شعر شوقى ، فكتب على صفحات جريدة البلاغ فى أكتوبر سنة ١٩٣٤ يقول :

« ان شوقى كان يتطلع كثيرا الى مستقبل الأمة فى حياتها التهذيبية ، فكان يسوقه ذلك الى الحديث عن الأزهر والجامعة المصرية .. وكان له فى أكثر المواقف قصائد ومقطوعات ينحو فيها منحى الحكيم ، وان لم يقصد الى تحديد شىء من المذاهب والآراء التعليمية فكان شعره فى هذا الباب من عفو الفطرة وقد تجود الفطرة أحيانا بما تعجز عنه عقول الباحثين »

ولشوقى قصيدة مشهورة فى واجب المعلم يحفظها جميع التلاميذ لأن أساتذة اللغة العربية يسرهم جدا أن يعمل تلاميذهم بقول شوقى:

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا (١)

وفى سنة ١٩٤١ و ١٩٤٢ وعلى صفحات مجلة الرسالة نقد الشوقيات وفيها يقول زكى مبارك : ان أحمد شوقى طلب منه كتابة مقدمة للشوقيات سنة ١٩٢٥ ولكن زكى مبارك اعتذر لأنه كان يرى أن المقدمات توجب الترفق .

أما بعد ..

قلت فى حديثى ان الصلة بين زكى مبارك وشوقى توثقت عام ١٩٢٥ وقال زكى مبارك انها دامت نحو سنتين فما الذى حدث ؟

---

(١) ونص هذا المقال على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان « التربية والتعليم » فى شعر شوقى .

يجيب زكى مبارك (٢) على هذا السؤال بقوله . « فسد ما بينى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشـــوقيات ، فانقطعت عن لقائه بمكتبه فى شارع جلال ، وانقطع هو أيضا فلم يعد يســـأل عنى .. وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة فى داره ودعـا اليها أساتذة الجامعة المصرية ولكنه تجاهل اســـمى فلم يدعنى الى استقبال ذلك الشاعر الصناج .

وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخـــلاقى :

فان تلك الهفوة لم تنقص تقديرى لشوقى .. شوقى الشـــاعر أما شوقى الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة ، وعدت لا أقابله حـــين ألقاه مصادفة الا بنفس الزاهد العيوف .

ثم يقول زكى مبارك :

لم أسىء يوما الى شوقى الشاعر ، والحمد لله ، وان كنت بعت حظى من شوقى الصديق .

وقد عانيت فى سبيل اعجابى بشعره نكبات عديدة ، فان ناسا كانوا يودون لو هدموه ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا الى هدمه شتى الشعاب وكان الرجل عظيم الشاعرية حقا وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان ، والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود ، وستظل الاخلاق والوطنية دعامة يستند اليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهـــل الشرق يحســـنون الاستماع الى أدعياء الوطنية والأخلاق ..

---

(١) مجلة أبولو عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقى أخلاقه ووطنيته ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ..

وبعد .

ذكرتنى كلمات زكى مبارك تلك بنغمة تتردد بين الحين والحين عن المديح فى شعر شوقى .

وعن قصائد المديح فى شعر شوقى قال البعض : اذا رفعنا قصائد المديح من شعر شوقى فماذا يبقى لنا ؟

ولكن لماذا نرفع قصائد المديح من شعر شوقى ؟

يقول زكى مبارك عن قصائد المديح فى اللغة العربية فى الجزء الأول من كتابه البدائع الطبعة الثانية صفحة ٩٧ تحت عنوان « درس فى الأدب) (١) : « انها كلمة ضخمة جدا ، كنت أحب أن أتحرج منها ولكن ما الحيلة وطلاب الأدب يحتاجون الى هذا الدرس أشد الأحتياج وما كانوا يحتاجون اليه لو أن كتاب الصحف والمجلات لم يوحوا اليهم بغض طائفة من الفنون الأدبية ، وكتاب الصحف يقدمون المصاعب بلا حساب الى أساتذة المدارس الثانوية والعالية ، فمن السهل أن يتندر كاتب بغمز العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ليصبح بغض تلك العلوم شريعة عند الطلاب ، ومن السهل أن يعبث كاتب فيزعم أن الشعر العربى أكثره مديح ، وان المديح لم ينظم الا فى طلب المال ، لتصبح قصائد المديح كلها لغوا عند طلبة الآداب .

ان أساتذة اليوم يعانون صعابا كثيرة فى توجيه الطلبة الى الدراسات الجدية ، لأن هؤلاء الطلبة يرون الحياة الادبية تنال بأيسر الجهد ويرون من الكتاب من يذيع صيته مع الجهل المطلق بأصول

(١) نشرت هذه الكلمة أول مرة على صفحات جريدة البلاغ ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ تحت عنوان : قصائد المديح فى اللغة العربية .

العربية ، ويرون من الشعراء من يهز كتفيه حين توجه اليه مؤاخذة صرفية أو نحوية أو عروضية ، ثم يمضى مرفوع الرأس بين الناس .

لقد آن أن نعرف أن الأساتذة والصحفيين يشتركون فى تكوين الجيل الجديد ، وان من الخير أن تقترب أوجه النظر فى فهم الأصول الأدبية ، والا فسيقع الطلبة بين تيارين متنافرين أشد التنافر وسيكون لهذه الحيرة آصار خطرة تصبح بعدها عقليات الطلاب موزعة بين القوة والانحلال .

وقد يسأل القارىء عن الباعث لهذا الدرس .

وأجيب بأنى كنت أوصى فريقا من الطلبة بالمبادرة الى اقتناء طائفة من المصنفات أعرف انها لن تطبع مرة ثانية لأن الناس هنا يغلب عليهم الملل ، والكتاب الذى يقع فى أجزاء كثيرة يندر أن يطبع مرتين فى جيل واحد ، والمكتبة عند الأديب كالمعمل عند العالم ، وطالب الأدب يحتاج الى تكوين مكتبته رويدا رويدا حتى تغنيه بعض الاغناء عن تضييع الوقت فى الاختلاف الى المكتبات العمومية ، فلما جاء اسم (مختارات البارودى) وقف أحد الطلبة وقال « هذه المجموعة أكثرها مديح » .

أيها القراء ، ان المديح ديوان العرب فان كنتم فى ريب من ذلك فسأشفيكم من الشك بهذا الحديث .

لا أنكر أن كثيرا من الشعراء اتخذوا مدح الملوك والأمراء وسيلة من وسائل العيش ، ولا أنكر أن كثيرا منهم وصل بذلك الى أسفل دركات الاسفاف ، وأصرح بأن من النقائص النفسية أن يسخر الشعر تسخيرا فى سبيل المنافع الزائلة ، وأعترف بأن هذه النقيصة تمس طوائف كثيرة من شعراء اللغة العربية ، وان كان من أسباب العزاء ان هذه النقيصة لم يتفرد بعارها شعراء العرب ، فقد كان أكثر الشعراء فى

أوربا يعيشون عالة على الملوك والأمراء ولم يعرف منهم باستقلال الشخصية الا القليل .

ولكنى ــ مع هذا ــ أقول بأن المديح ديوان العرب ، وهو الوثيقة الباقية على ما كان فيهم من كرم الشمائل والخصال ، والمادحون قد يكذبون ولكنهم فى كذبهم يصورون ما اصطلح عليه معاصروهم من ألوان المحاسن والعيوب ، فالشاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة ممدوحه ، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق لأنه يصور ما يشتهى ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال وهل يمكن الارتياب فى تصوير المكارم البدوية التى تمدح بها الشاعر حين قال :

ومستنبح تهوى مساقط رأسه
الى كل شخص فهو للسمع أصور (١)
يصفقه أنف من الريح بارد
ونكباء ليل من جمادى وصرصر (٢)
حبيب الى كلب الكريم مناخه
بغيض الى الكوماء والكلب أبصر (٣)
حضأت له نارى فأبصر ضوءها
وما كاد لولا حضأة النار يبصر (٤)

دعته بغير اسم هلم الى القرى ... فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر
فلما أضاءت شخصه قلت مرحبا ... هلم ، وللصالين بالنار أبشروا
فجاء ومحمود القرى يستفزه ... اليها وداعى الليل بالصبح يسفر

---

(١) اصور : من الصور بالتحريك وهو الميل الى الشىء بالوجه والعنق .

(٢) الأنف : من الريح اولها ، والنكباء : كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الاربع والصرصر : الريح القوية .

(٣) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

(٤) حضأ النار : اوقدها ورفعها .

تأخرت حتى لم تكد تصطفى القرى
على أهله والحق لا يتأخر

وقمت بنصل السيف والبرك هاجد
بهازره والموت فى السيف ينظر (١)

فأعضضته الطولى سناما وخيرها
بلاء وخير الخير ما يتخير

فأوفضن عنها وهى ترغو حشاشة
بذى نفسها والسيف عريان أحمر (٢)

فباتت رحاب جونة من لحامها
وفوها بما فى جوفها يتغرغر (٣)

وقد يمكن الشك فى هذه الصورة من حيث انطباقها على ذلك الممتدح ، ولكن لا ريب فى أنها تمثل النبل فى الشمائل البدوية والباحث الموفق الذى يستمد من الأدب شواهد لعلم النفس سيجد فيها صورة صحيحة للاخلاق العربية ، وسيتمثل كيف يهيم الجائع فى الليل فيستنبح لترد عليه الكلاب فيعرف أين يقيم الناس ، ثم يمضى حيث يرحب به الكلب الذى ألف الضيافات ، وتنفر منه الجمال التى تعرف حتفها بقدوم الضيف ، وسيتمثل أيضا اريحية ذلك البدوى الذى يرفع النار ليهتدى بها الضالون فى البيداء ثم يتصور تلك الضجة المرحة التى تفيض بها خيام الاعراب الاجواد وهم يستقبلون الضيف .

وأنت ، يا ابن المدينة يا مارد العصر ، ستقرأ هذا الشعر فتتمثل فيه ألوانا من الاريحية العطرة لم يشتمل عليها اهابك فتعرف حينا

(١) البرك بفتح الباء : الابل ، والبهازر جمع بهزرة على وزن قنفذة وهى الناقة العظيمة .
(٢) اوفضت : تفرقت .
(٣) الرحاب الجونة : هى هنا القدور السود .

وتنكر أحيانا ، وأنت فى عرفانك ونكرانك مدين لهذا الشاعر الذى أمتع وجدانك بهذه النفحات العطرة .

نترك البادية ، وشعر البادية، ثم ننتقل الى شعراء الحضارة وسنجد عندهم أفانين من القول هى الصورة الباقية لما عرفوا من أزمات النفوس والقلوب .

هل تعرفون قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية ؟

لقد حدثتكم عنها فى المذياع منذ أسـابيع ، وفاتنى مع الأسف أن أدلكم على موقف هو نموذج للتشفى ، والتشفى رذيلة خلقيـة ولكن الباحث يحتاج الى شـواهد للرذائل فانها تدرس كما تدرس الفضائل ، ومن لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وبضدها تتميز الأشياء

انظروا كيف يتشفى ذلك الشاعر الفحل وقد تهدمت عمورية :

ماربع ميـة معمـورا يطيف به	غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب
ولا الخدود وان أدمين من خجل	أشهى الى ناظرى من خدها الترب
سماجة غنيت منـا العيـون بها	عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبـدو عـواقبه	جاءت بشاشته عن سـوء منقلب

قد تقولون ان من القسوة أن يفرح الرجل لمدينة دكت حصونها، وهدمت أبراجها وقوضت معالمها ، وصح فى أهلها قول ذلك الشـاعر الشـامت :

لم تطـلع الشمس منهم يـوم ذاك على
بان بأهل ولـم تغـرب على عـزب

وأجيب بأنى أستقبح من هذا ما تستقبحون ، ولكنى أقرر أن هذه الصورة البشعة صورة الشماتة ، مما يجب تقييده ، والدلالة عليه ، لأنها من الصور الانسانية التى يهتم بتحليلها العالم والفيلسوف وهذه

الصورة بالذات من نماذج القسوة الحربية ، والجيش الذى يهدم مدينة معادية يقف على أطلالها وقفة الفرح والابتهاج ..

وصاحبنا أبو تمام جاء بصورة بارعة كل البراعة لشهوة الشماتة والحقد وما ظنكم بمن يتمثل ربع مية وهو معمور يطيف به المحب فيراه أقل جاذبية من منظر عمورية وهى خراب ، ويتمثل الخدود أدماها الخجل فيراها أقل نضارة من خد عمورية وقد عفره التراب ..

هذا بغى فى عالم الأخلاق ، ولكنه نبل حين تذكر البطولة والابطال . تذكروا هذا ، ثم حدثونا : أنغفل بائية أبى تمام هذه لأنها قصيدة مديح ؟ ان الحكمة ، وهى أنفس ما يقتنى الناس ، وقعت غير مرة فى تلك القصيدة ، وهل يمكن فى عالم الفكر أن نستغنى عن هذين البيتين :

عداك حر الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلنا بالسيف منصلتا ... ولو أجبت بغير السيف لم تجب

وسيقول ناس من خلق الله : لقد ثقل البيت الأول بالجناس فليعرفوا أننا نراه غاية فى خفة الروح ، وحسب الشاعر أن وفق الى أن يقول :

(ولو أجبت بغير السيف لم تجب)

والبحترى الذى ضربت بمدائحه الأمثال ، أترون تلك المدائح مما يجب اهماله لانها من صنوف التملق والرياء؟؟ لقد تأملت تلك المدائح فوجدت فيها كثيرا من الصور النفسية التى يقف عندها من يهتم بدرس دخائل النفوس ، وانظروا هذه الأبيات من داليته فى مدح ابن الزيات محمد بن عبد الملك :

واستوى الناس فالقريب قريب ... عنده والبعيد غير بعيد
لا يميل الهوى به حين يمضى الرأ ... ى بين المقلى والمودود

وسواء لديه ابناء اسما عيل في حكمه وأبناء هود
مستريح الأحشاء من كل ضغن بارد الصدر من غليل الحقود

ما رأيكم في هذا ؟ أترون سوء المنقلب في مصاير الناس يقع الا بعلة الهوى في امضاء الرأي والتفرقة بين الأصدقاء والأعداء حين تنصب الموازين ؟ وهل ترون متعة أفضل وأروح من راحة الاحشاء من عنف الاضغان وبرد الصدور من غليل الأحقاد .

ان مثل هذا الشعر لا يمر بأسماع الممدوحين بدون أن يترك في نفوسهم شوقا الى العدل ، وحنينا الى سلامة الصدر من الغل فهو من نفثات الاصلاح ولو كره المتحذلقون .

وفي القصيدة نفسها قطعة وصفية ، وان كانت مدحا ، فقد وصف « الكاتب » في شخص ابن الزيات وصفا دقيقا يعد نموذجا من نماذج البيان . واليكم هذه الأبيات :

لتفننت في الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شـ ـك أمرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ـلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيـ ـس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى عن اغاني مخارق وعقيد
حجج تخرس الالد بألفا ظ فرادى كالجواهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدر كن به غاية المراد البعيد

هذه قطعة وصفية وردت في قصيدة مدح : أترون فيها شيئا من الفضول ؟ وكيف والبيت الأول وحده يفيدنا فائدة عظيمة ، فهو يدلنا على أن الناس في عهد البحتري كانوا يفهمون أن هناك فنا انشائيا

اسمه « من عبد الحميد » وفى ذلك رد على جماعة من المستشرقين كانوا يرون عبد الحميد من الشخصيات الخرافية وتبعهم فى ذلك أحد ادباء مصر فى العهد الحديث • ولكم أن تقولوا ان فى بعض هــذه القطعة ما يجرى فى طريق المنح الفضفاض ، غير انكم لا تستطيعون أن تنكروا دقة الوصف فى هذين البيتين :

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمــة التعقيــد
وركبن اللفظ القريب فأدركـــن به غاية المــراد البعيــد

ففيهما دستور لنظام الكلام البليغ ، وهما يصلحان للتمثل فى أكثر مقامات الافصاح •

أما بعد •• فهذه اشارات تنفع من يدرس الأدب ليستخلص منه الحقائق النفسية والاجتماعية ، وسنتبعها بأمثالها ان اقتضى المقــام ليعلم شباب هذا الجيل أن أسلافهم لم يكونوا عابثين وأن من الهزل نفسه ما يكشف عن مواطن هى عند الباحث جد صراح » •

وبعد ، وقد أتعبتنى أما بعد لقد نقلت كلمة زكى مبارك بكاملها عن قصائد المديح فى اللغة العربية لسببين :

السبب الأول أنها رد مقنع وصائب يفحم كل من يحاول النيــل من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى ، خاصة ان معظم الذين ينتقدون شعر شوقى الآن يهاجمون قصائد المديح فى شعر شوقى •

والسبب الثانى أن رأى زكى مبارك فى قصائد المديح فى اللغة العربية بدأ يتردد الآن على ألســنة البعض ، وكل منهم ينسبه الى نفســه ••

خبــر اسود
خبــر اسود
خبــر اسود

ومعذرة فقد تعودت أن أهتف بهذه العبارة كما يهتف زكي مبارك حين ينزعج ، وقد كان زكي مبارك يقول انه يهتف كما يهتف الفلاح المصرى حين ينزعج . وان عبارات الفلاحين تسبق الى لسانه حين يثور غضبه .. وهل أنا الا فلاحة من سنتريس أثارتها السرقات الأدبية فهتفت : خبر اسود ؟؟

بقيت كلمة .، فكما تثار هذه الأيام المناقشات حول قصائد المديح فى شعر شوقى تثار أيضا قضية امارة الشعر ، ومن يخلف شوقى ؟؟

هذه القضية أثيرت أيضا أيام زكي مبارك ؟؟ ففى الاحتفال الذى أقيم فى دار الاوبرا فى ديسمبر ١٩٣٢ لتأبين الشاعر أحمد شوقى كان من بين الحاضرين الشاعر فؤاد باشا الخطيب ، يقول زكي مبارك ان الخطيب سأل عمن يخلف شوقى فى امارة الشعر ؟

ويقول زكي مبارك : ان حياة شوقى كانت من أسباب خمول الشعراء المعاصرين ، فان شوقى فعل ما فعل أبو تمام الذى أخمل ثلثمائة شاعر فى حياته، فلننتظر حتى يستبق الشعراء فى ميادين المجد من جديد ثم ننظر لمن يكون السبق ؟! ثم يستطرد زكي مبارك فيقول : على أن الخلافة فى الشعر أصبحت سنة لا تلائم سنن العصر الحديث فليظل كل شاعر خليفة نفسه ان شاء ، الى أن يوجد بينهم من يملك ما كان يملك شوقى من المال والفراغ والعبقرية ، فان هذه الثلاثة مجتمعة هى التى تمكن الشاعر من الامارة ، أما الشعراء الصعاليك (والصعلوك كلمة مدح وهى تقابل مانسميه اليوم باللص الشريف) هؤلاء الصعاليك الذين يجمعون بين الفقر والشرف ليس لهم ان يتساموا الى امارة الشعر لأن غنى القلوب أضعف من فقر الجيوب .. وكيف تنتظر ان يصير الشاعر أميرا فى أمته وهو ليس بأمير فى بيته ؟؟

ثم يقول زكي مبارك : ان أكثر شعرائنا يكدحون ليعيشوا فهم بالطبع أعجز من أن ينهضوا بتكاليف المجد المجلوب ..

ولإمارة الشعر تكاليف أهمها ترضية النقاد وكبح أقلام المتحاملين منهم ببعض الهدايا والولائم على نحو ما كان يفعل شوقى رحمه الله.

وهذه أثقال تقصم ظهور كثير من شعرائنا الفقراء الذين يفنون أطيب أوقاتهم للسعى فى طلب الرزق ، فليتغنوا ان شاءوا بما تغنى به حافظ ابراهيم فى ليالى سطيح ..

نيس الخمول بعار وتلك خير الليالى
فليلة القدر تخفى على امرىء ذى جلال

والآن .. بعد هذه المقدمة التى أرجو أن يكون الله قد وفقنى فيها آن للقلم أن يستريح ولكن بعد أن يكتب للتاريخ قبل أن يضيع التاريخ ، ان زكى مبارك الذى كان أول من أنصف أحمد شوقى يبحث عمن ينصفه . يقول زكى مبارك : « حالى فى مصر حال عجيب فقد عشت دهرى مظلوما ..، وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أكافح فى بحر الظلمات فما رحمنى راحم ولا أغاثنى مغيث

أنا محزون ، محزون ، محزون ..
كيف فاتنى ان انافق فى زمن لا يسود فيه غير أهل النفاق ؟؟
وييأس زكى مبارك من رحمة الناس فيطلب رحمة الله :
يا خالق النخيل والاعناب ، كيف سكبت الصهباء فى روحى ؟؟
ويا فاطر السموات كيف ترى حالى ؟ كيف علمتنى وعلمت الحمائم النواح ؟
وما الذى اعددت لتكريمى يوم القاك وقد سبحت بحمدك فوق أفنان الجمال ؟ »

والآن رب فنان يرى الحقيقة فينصف زكى مبارك ..
أو رب مظلوم يرى نفسه فى زكى مبارك فينصف زكى مبارك..
وليسترح القلم ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .. !!

كريمة زكى مبارك

مقدمة الشوقيات

طلب أحمد شوقى من زكى مبارك مقدمة للشوقيات ، واعتذر زكى مبارك عن كتابة المقدمة لأن المقدمات يراعى فيها التلطف كما قال زكى مبارك •

ويقول زكى مبارك انه التقى بعد ذلك بالدكتور طه حسين وكان جاره فى مصر الجديدة وقص عليه ما دار بينه وبين شوقى فقال طه حسين : لو طلب شوقى منى ما طلب منك ــ وأنا خصمه ــ لا ستجبت بلا تردد ، فشوقى فى رأيى هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبى فقلت « انى أر ىأنه أشعر من المتنبى » •

فقال الدكتور طه : ما دام هذا رأيك فما الذى يمنع من أن تكتب المقدمة ؟؟

فقلت : لأحتفظ بحقى فى نقده حين يخطىء

فقال الدكتور طه : شوقى لا يخطىء ••

فقلت (١) : اسمع يا سيدى الدكتور هذا البيت وهو من قصيدة قالها شوقى بعد العودة من منفاه •

وكل مسافر سيؤوب يوما
اذا رزق السلامة والايابا

فقال الدكتور طه : هذا بيت جميل •

فقلت : ان سيدى الدكتور من ذرية الرسول، عليه الصلاة والسلام، وفيه قال الله فى كتابه العزيز «وما علمناه الشعر وماينبغى له» فالمفروض يا سيدى الدكتور ان المسافر سيؤوب اذا رزق السلامة والاياب ، فليس فى البيت معنى جديد فضحك الدكتور طه حسين » •

وبعد •• متى نقد زكى مبارك الشوقيات ؟

كانت الجامعة المصرية أيام زكى مبارك تعد مسابقة للادب العربى بالاشتراك مع وزارة المعارف أى وزارة التربية والتعليم ، لطلبة السنة التوجيهية أى السنة النهائية بالمدارس الثانوية •

وفى هذه الدراسة قدمت مؤلفات لزكى مبارك وأحمد حسن الزيات وجبران خليل جبران وغيرهم وكان زكى مبارك يدرس هذه المؤلفات •• وينقدها على صفحات مجلة الرسالة •

كان ضمن المقرر على الطلبة فى المسابقة « الشوقيات » ويومها نقد زكى مبارك الشوقيات فى مجلة الرسالة قائلا : ان الغرض من هذه الدراسة توجيه لطلبة السنة النهائية بالمدارس الثانوية على أن يكون مفهوما أنها موجهة أيضا الى جميع القراء •

وفى دراسته يقول زكى مبارك ان فى مكتبته نسخة نفيسة جدا من الشوقيات لأنها مصححة بقلم « شوقى » فى مواضع كثيرة • وهذه النسخة موجودة عندى •، والآن مع زكى مبارك والشوقيات •

---

(١) البلاغ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧ •

الشوقيات

الجزء الأول

يبدأ الجزء الأول من « الشوقيات » وبه مقدمة الدكتور هيكل، وكان فى النية أن أنظر فى تلك المقدمة نظرة نقدية ، على نحو ما صنعت بالمقدمة التى صدر بها ديوان البارودى ، ولكنى لم أجد المقدمة المنشودة فى النسخة التى بين يدى ، فأين ذهبت ؟؟ وكيف رضيت أن تظل نسختى عاطلة من تلك المقدمة العصماء ؟؟

لذلك تاريخ يجب تسجيله قبل أن يضيع ، فقد تأتى أيام نجهل فيها مآثر الشوقيات وما مر بها من ظروف ، وللتاريخ الأدبى علينا حقوق ، فما ذلك التاريخ ؟

النسخة التى بين يدى ناقصة ، ولكنها نفيسة جدا لأنها على نقصها مصححة بقلم « شوقى » فى مواضع كثيرة ، وليس ذلك بالمغنم القليل وأواجه ذلك التاريخ فأقول :

---

* فى كتاب « زكى مبارك ونقد الشعر » وهو تحت الطبع الآن نقد زكى مبارك ديوان البارودى كما نقد ايضا مقدمة ديوان البارودى .

« كانت الصلة قويت بينى وبين « شوقى » فى سنة ١٩٢٥ وكان شرع فى طبع «الشوقيات» فشاء لطفه وكرمه أن يدعونى لكتابة المقدمة بعبارة لا أزال أذكر نصها بالحرف :

« سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبيـــة » (١) ..

وبعد أيام تلطف فأهدى ما طبع من الجزء الأول مصححا بخطه الجميل ، لأكتب تقديمة ما أريد ..

ورجعت الى نفسى فتذكرت ان المقدمات يلتزم فيها الترفق ، وذلك ما يجمل بكاتب مشغول بالنقد الأدبى مع شاعر لا يزال فى الميـــدان، وأسرعت فكتبت اليه خطابا قلت فيه :

انى لا أستطيع كتابة المقدمة التى ينتظرها أمير الشعراء ، لأنى أخشى أن أقول فيها كلاما يصدنى عن نقده ان رأيت فى أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد وهو ـــ بارك الله فى عمره ـــ لا يكف عن مساورة الشعر والخيال فى صباح أو مساء وفى عصرية اليوم الذى كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع ، فغضب أشد الغضب وقال : « ليتك استشرتنى قبل أن تصنع ما صنعت .. ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ؟؟ لو طلب «شوقى» منى ما طلب منك ـــ وانا خصمه ـــ لاستجبت بلا تردد ، فشوقى فى رأيى هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبى » .

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من « الشوقيات » وبه مقدمة

---

(١) الرسالة : ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤١ العدد ٤٤٣ .

الدكتور هيكل ونادى المنادى بوجود الاحتفال بتكريم أمير الشعراء احتفالا يشترك فيه من يستطيع من ادباء الأمة العربية ، وبرعاية الزعيم ســعد زغلول •

ثم يقام الحفل بدار الأوبرا الملكية فى التاسع والعشرين من نيسان ١٩٢٧ ويقول الشعراء والخطباء في « شوقى » ما يقــولون باطناب ويلتفت الدكتور هيكل كاتب مقدمة (الشوقيات) فيرى من الواجب اصدار عدد خاص من (السياسة الاسبوعية) لتكريم شوقى • ويدعى للاشتراك فى تحرير ذلك العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هــذا الحديث • ويرى « شوقى » من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان فيها مقالى •• ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة « للشوقيات »

« كانت السياسة الاسبوعية » فى تلك الأيام توجه التيار الادبى فى مصر وفى سائر البلاد العربية وكان اصدار عدد خاص عن شــاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية ادبية تفوق الوصف ، ولكن « شوقى » لم يرتح كل الارتياح الى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت عبــارات تغض كثيرا أو قليلا من أمير الشعراء •

اخلاق شاعر الاخلاق (١) :

غضب شوقى على ذلك العدد من السياسة الاسبوعية وكان شوقى اذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب ، فمضى أولئك المرتزقة يقولون فى الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الوريقات المتســمة زورا بوسم الجرائد والمجلات فكتب الدكتور هيكل فى «السياسة الاسبوعية» مقاله المأثور :

« أخلاق شاعر الأخلاق » وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين

---

(١) عنوان مقال الدكتور هيكل باشا •

« شوقى » وتوعده توعدا أليما ، فقد نص على أن «شوقى» لن يظفر منه مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال ..

ورأيت أن أرجع الى الدكتور طه أستفتيه ، فابتسم وقال : كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكل لو كتبت مقدمة « الشوقيات »

ثم ماذا ؟؟ ثم ذهب « شوقى » الذى قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق ان ينصب لها ميزان ، وبقى « شوقى » الشاعر الذى رثاه المازنى يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال ..

دسائس صحفية :

فسد ما بينى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات فانقطعت عن لقائه بمكتبه فى شارع جلال ، وانقطع هو أيضا فلم يعد يسأل عنى .. وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة فى داره دعا اليها أساتذة الجامعة المصرية ، ولكنه تجاهل اسمى فلم يدعنى الى استقبال ذلك الشاعر الصناج .. وسمع بذلك الحـــادث جماعة من الصحفيين فحرضونى على ايذاء شوقى بمقال أو مقالين ، وزعموا ان مال شوقى لا ينال بغير الهجاء ..

وما لى أنا ومال شوقى أو غير شوقى ؟؟

هل منحنا الله نعمة القلم الصوال .. لنبتز الأموال ؟؟

ان شوقى حرمنى فرصة التمتع بصوت طاغور وما صوت طاغور بالقياس الى الموسيقى الشوقية ؟ شوقى شاعر مصر ، وهو على جحوده انسان واستاذ الأساتذة فى ميدان القصـيدة فمن الواجب أن أحتفظ عهده الى أن يموت ، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمى أو لســانى ..

فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام وحفظ الله عهدك بين أقطاب الأدب الرفيع .

كيف يدرس شعر شوقى :

الغرض من هذه الدراسة هو توجيه من سيتبارون فى مسابقة الأدب العربى ، فماذا تقول فى توجيه أولئك الشبان ؟؟

أهم قصيدة فى الجزء الاول من الشوقيات هى قصيدة « نهج البردة » ولهذه القصيدة تاريخ يجدونه فى الطبعة الثانية من كتاب «الموازنة بين الشعراء » وما أريد أن أغتنم الفرصة فأعلن عن كتابى فى مجلة الرسالة بالمجان وانما هى فرصة للدارسين الأعزاء فان درسوا ما كتبت عن تلك القصيدة فى ذلك الكتاب فسيقرءون أبحاثا تجوز بهم الصراط فى أمان ..

وهنالك مرجع ينفعهم فى هذا الموضوع الدقيق وهو كتاب المدائح النبوية فى الأدب العربى وفى ذلك الكتاب تفصيل واف لتطور المدائح النبوية من عهد حسان الى عهد شوقى ..

فقد بدأ من « التشبيع » ثم صار بلاغيا يسجل فنون « علم البديع » ثم عاد مدحا صرفا على لسان البارودى وشوقى والحملاوى ، ومع تفاوت فى أسلوب الأداء (١) .

أما القصيدة الثانية فهى الاندلس الجديدة ويجب حفظها عن ظهر قلب ، لأنها فيما نعتقد أعظم قصيدة جاد بها الشعر الحديث فى تصوير التعاطف بين الأمم الاسلامية :

مقدونيا ــ والمسلمون عشيرة	كيف الخؤوله فيك والأعمام
أترينهم هانوا ، وكان بعزهم	وعلوهم يتخايل الاسلام
اذ أنت ناب الليث كل كتيبة	طلعت عليك فريسة وطعام

وقد سما شوقى بهذه القصيدة سموا لا يدرك مداه غير من يعرف أسرار الشعر وسرائر القلوب . ولهذه القصيدة أهمية فى تأريخ شاعرية

---

(١) انظر همزية شوقى فى مدح الرسول ولاحظ تأثره بهمزية البوصيرى .

شوقى .. فقد كادت آراء النقاد تجمع على أن عبقرية شوقى لم تتفتح الا بعد نفيه فى أيام الحرب الماضية ، وهو قد نظم هذه القصيدة فى عام ١٩١٢ قبل النفى بأعوام ..

ثم تجىء قصيدة « انتحار طالب » وهى قصيدة طوقت بها وزارة المعارف بأطواق من حديد ، فالطالب المنتحر :

ناشىء فى الورد من أيـــامه   حسـبه الله أبالورد عثر ؟؟
سدد السهم الى صـدر الصبا   ورماه فى حواشـيه الغـــرر
بيـــد لا تعرف الشر ولا ..   خلقت الا لتلهـــو بالأكـر

ولكن كيف صنع الطالب بنفسه ذلك الصنيع الممقوت ؟؟

قال نـاس : صرعة من قـــدر   وقديما ظلم النـاس القـــدر
ويقـول الطب : بل من جنة   ورأيت العقـل فى النـاس ندر
ويقولون : جفـاء راعـــه   من أب أغلظ قلبـا من حجـر
وامتحـــان صعبته وطـــأة   شدها فى العلم أستاذ نـكر
لا أرى الا نظـاما فاسـدا   فكك العـلم وأودى بالأسر
من ضحاياه ــ وما أكثـــرها   ذلك الكـاره فى غض العمـــر

وتلك قصيدة نادرة ، فليتفهمها الطلبة وليحفظوها عن ظهر قلب .. فموضوعها يكاد يتجدد فى كل يوم وهى تنهى عن آفة من آفات الضعف فى هذا الجيل .

التغنى بالآثار المصرية :

فاتحة الشوقيات هى قصيدة شوقى عن كبار الحوادث فى وادى النيل . هذه القصيدة تصحح غلطة وقع فيها صـــاحب « الموازنة بين الشعراء » فقد نص على أن اسماعيل صبرى هو أول شاعر سن مذاهب القول فى وصف آثار الفراعنة بعد أن ثار الجدال بينه وبين خليـــل مطران فى سنة ١٩٠٤ .. ثم تشاء المقادير أن يعرف المؤلف أن «شوقى»

سبق صبرى فى التغنى بتلك الآثار الخوالد فى القصيد الذى القـاه فى مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤ .

فما ذلك القصيد ؟؟ هو قصيد طويل سجل به الشاعر ما كان لمصر من تحليق واسفاف فى أعوام تزيد على خمسة آلاف ..

وهنا يظهر العجب العجاب فقد كان شوقى ناشئا يوم نظم فى ذلك التاريخ ولكنه مع ذلك عرف كيف يهتف :

قل لبان بنى فشـاد فغـالى   لم يجز مصر فى الزمان بنـاء
ليس فى الممكنات أن تنقل الجبا   ل شـما وأ ن تنـال السماء
أجفل الجن عن عـزائم فرعـو   ن ودانت لبأسـها الانـاء
شـاد ما لم يشـد زمان ولا أنشـأ   عصر ولا بنى بنـاء
هيـكل تنثر الديانات فيـه   فهى والناس والقـرون هباء
وقبور تحط فيهـا الليـالى   ويوارى الاصباح والامسـاء

وهذه الباكورة كانت البشير بأن ستكون لشوقى مكانة فى وصف آثار الفـراعين ..

لقد طوفت بأقطار كثيرة من الشرق والغرب فما رأت عينى مثل ما ترك الفراعين بوادى النيـل .

الحرب العثمانية اليونانية :

هى حرب وقعت فى عهد السلطان عبد الحميد ولم يذكر الديوان تاريخها بالضبط .. ولا اتسع وقتى لتحقيق ذلك التاريخ ، وأين من يصدق أنى أكتب هذه الصفحات وأنا فى قطار الصعيد ؟؟

وهى احدى قصيدتين اعترف بهما حافظ بشاعرية شوقى ، ولم يكن حافظ يعترف لشوقى بشىء ولا كان شوقى يعترف لحافظ بشىء .. وآه ثم آه من تحاسد النظراء ، اعترف حافظ بقيمة البائية :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب   وينصر دين الله ايان تضرب

اعترف حافظ بقيمة هذه البائية فى كتاب ليالى سطيح ولا أعرف الآن موقع هذا الاعتراف من ذلك الكتاب فعهدى بقراءته يرجع الى زمن بعيـــد .

أما القصيدة الثانية فهى بائية شوقى فى «توت عنخ آمون» وكان حافظ يحفظ هـــذه البائية وقد انشدنيهـــا مرات ، وكان له فى انشادها ترجيع معروف ..

كانت البائية الأولى فتنة العصر الذى ظهرت فيه ، وكان جمهور الأدباء يحفظها عن ظهر قلب ، وراويها فى هذا اليوم هو الاستاذ محمد سعيد لطفى ، وله بها هيام وغرام ، فهو لينشدها كلما لاحت فرصـــة الحديث عن شوقى ..

اقرءوا هذه البائية « يا شبا بـاليوم » لتعرفوا كيف نستهين بما ينظم الأطفال من الشعر فى هذه السنين العجاف ..

اقرءوا هذه البائية واحفظوها ، فهى من آيات الشعر الحديث ..

وما السيف الا آية الملك فى الـــورى
وما الأمــــر الا للــذى يتغـــلب
فأدب به القـــوم الطغـــان فانه
لنعـم المـــربى للطغـــاة المـؤدب
تنـام خطوب الملك ان بات ساهرا
وان هــــو نام استيقظت تتـــألب

تكليل انقرة وعزل الاستانه :

تلك قصيدة كافية تسجل انحسار الخلافة عن استامبول ، بعـد حـوادث تشيب ناصية التاريخ وتصور عزة الترك بانقرة فى عهـدهم الجديد .

وفى هذه القصيدة توجع شوقى لعزل اســـتامبول واعتذر عن أبنائها الأماجد ، فما نقلوا مركز الملك الى انقرة الا رعاية لخطة من خطط الدفاع عن البلاد ..

لو أن سلطان الجمال مخــلد	لمليحــــه لعــذلت من عذلوك
خلعوك من ســـلطانهم فسليهم	أمن القلوب وملكها خلعوك
لا يحــزننك من حماتك خطة	كانت هى المثلى وان ساءوك
أيقال فتيان الحمى بك قصروا	أم ضيعوا الحرمات أم خانوك؟
وهم الخفاف اليك كالانصار اذ	قل النصير وعز من يفــديك
المشتروك بمــــا لهم ودمائهم	حين الشيوخ بجبــة باعــوك
هدروا دماء الذائدين عن الحمى	بلسان مفتى النــار لا مفتيك
شربوا على سر العدو وغردوا	كالبوم خلف جداول المدكوك
لو كنت (مكة) عندهم لرأيتهم	كمحمد ورفيقــه هجــروك

وهو يشير فى هذه الأبيات الى ما وقع من رجـــال الدين فى استامبول ، فقد أفتوا بوجوب مقاتلة الكماليين طاعة للخلفاء ،وكانوا احتلوا استامبول ولم يجلوا عنها بعد ذلك طائعين وانمــــا أكرهتهم السيوف الكمالية على الجــلاء ..

والشاعر يجعل انتقال اتاتورك ورفاقه من استامبول الى انقرة شبيها بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقه من مكة الى المدينة .. وهو تشبيه على جانب من الجمال .

انتصار الاتراك فى الحرب السياسية :

ثم يلتفت القارىء مرة ثانية فيرى شوقى يرجع الى تمجيد اتاتورك من جديد بقصيدة بائية على غرار بائية ابن تمام فى فتح عمورية ، وقد تلاعب فيها بالمعانى وجال فى فنون القول كل مجال ..

كان عصمت باشا مندوب الاتراك فى مؤتمر لوزان ، وكان رجلا ضعيف السمع لا يصل اليه الصوت الا بالصياح ، فجعله شوقى :

أصم يسمع سر الكـــائدين له ولا يضيق بجهر المحنق الصخب

والذى يقرأ أخبار الحرب فى هذه الأيام يرى الانسحاب يوصف بالجمال وقد سبق شوقى كفه هذه الأيام فقال فى انسحاب اليونان :

جد الفرار فألقى كـل معتقـــل قنـاته وتخـــلى كل محتقب

يا حســن ما انسحبوا فى منطق عجب

تدعى الهـزيمة فيـه حسن منســحب

وكان ساسة اليونان منوا شعبهم بمملكة جديدة فى بلاد الترك فقال شــوقى :

هم حسنوا للسواد البله مملكة من لبدة الليث أو من غيلة الأشب

وانشــأوا نزهة للجيش قاتلة ومن تنزه فى الآجــام لم يؤب

وكان الدكتور طه حسين كتب مقالا فى جريدة الاتحاد اراد من المقال التهوين من شأن هذه البائية ، فهل ينظر فيها من جديد ليعرف أنه كان من المخطئين ؟؟

رحالة الشرق :

وهده قصيدة عينية قالها شوقى فى تكريم الرحالة محمد حسـنين باشا . كان ا ستكشف واحتين فى الصحراء اللوبية ، ويضيق المقـام عن شرح ما فى هذه القصيدة من أغراض ، ومع هذا لا يفوتنى آن أدل الدارس على سجية شوقى فى الجنوح الى التأمل العميق من حين الى حين وهل وازن أحد بين الصحرا ءوالحياة على نحو ما وازن شـوقى بينهما اذ يقـول .

كم فى الحيـاة من الصحراء من شبه
كلتـاهما فى مفاجاة الفتى شرع
وراء كـل سـبيل فيهما قـدر
لا تعـلم النفس ما يأتى وما يدع
فلست تدرى وان كنت الحـريص متى
تهب ريحـاهما أو يطلع السـبع
ولست تأنس عنـد الصحو فاجئـة
من العـواصف فيها الخـوف والهلع
ولست تدرى وان قـدرت مجتهـدا
متى تحط رحالا أو متى تضـع
ولست تملك من أمر الدليـل سوى
أن الدليـل وان أرداك متبـع

والبيت الأخير من وثبات الخيال .

أما بعد فهذه كلمات سريعة بددت بها ساعات من الطـريق بين القاهرة والمنيا ولن أنظر فيها بعد ذلك . فليبلغها القارىء على هواه بالحمد أو بالملام وهل يكلف الله نفسا الا وسعها ؟

أثنيت على شوقى مرات وأنا أراجع الشوقيات ثم لمتـه مرة أو مرتين ..

لقد أشرف بنفسه على طبع الجزء الأول والثانى فما كان ضره لو أرخ جميع القصائد ونص على جميع المناسبات ليتمثل القـارىء صور البواعث الروحية والسياسية ؟؟

قصائد شوقى تمثل معضلات عصره أصدق تمثيل ، ولكن القراء لن يروها خليقة بهذا الوصف الا اذا شرحت مناسباتها باسهاب فأين من ينهض بهذا الواجب قبل أن تنسى تلك المناسبات ؟؟

ثم أقول ان الشوقيات زادت ايمانى بمجد بلادى فقد امتطيت القطار وأنا متخوف من ضجر الطريق ، وما هى الا لحظة حتى كانت الشوقيات وحيا يهتف بأن كل بقعة من أرض مصر معهد مجد أو محراب فنون ..

ليت شعرى والدهر حرب بنيه وأياديه عندهم أفياء
مالذى داخل الليالى منا فى صبانا وللليالى دهاء

فى هذه اللحظة أشعر بالندم على أنى ركبت القطار السريع ، ولم أركب القطار القشاش وهو القطار الذى يقف على جميع المحطات ، ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء ؟؟ . وما أسعد من يمر بالقطار على جميع المحطات المصرية وقد بلغ عددها (٥٣٢) .

يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف فلا يكاد المسافر يتذكر أن كل قرية من تلك القرى فيها أرواح وقلوب ولأهلها تاريخ وتواريخ .

هذه منارة تدل على مسجد ، فأين من يذكر ان مساجد الصعيد كانت لها أياد بيض فى حفظ العلوم الانسانية ؟؟

ذلك فلاح يناجى الأرض مناجاة الحبيب للحبيب .. فأين من يذكر أن الفلاح المصرى قد يكون أقرب الناس من الله .، ثم لا تمنعه تقواه من انتهاب شبر أو فتر من أرض الجيران ؟؟

وهل يستطيع أحد أن يقنع الفلاح المصرى بأن الجنة أجمل من أرضه الغالية ؟؟

ذنبك مغفور ــ أيها الفلاح ــ فاعص الله كيف شئت فى انتهاب أرض جيرانك فذلك شاهد بانك تقدر نعمة الله على أهل هذه البلاد .

ثم ماذا ؟ ثم أذكر ان هذا الكلام يخرج عن موضوع هـــذا المقال • وانى سأطيل وسوف أصل الى المنيا بعد لحظات وان التمادى فى الثرثرة أمر غير مقبول :

وما ذنبى اذا فتنتنى بلادى ؟؟

آمن الاثم هتـــافى بالجمـــال   فى بلاد كـل ما فيهـا جميـل
لو بعينى نظر اللاحى وجـال   لرأى الفتنـة فى كل ســبيل

حار الناس فى تعليل التفاوت بين شوقى وحافظ ، لعرفانهم بأن «حافظ» كان أذكى من شوقى بمراحل طوال ، فهل آن لهم أن يعرفوا ان «شوقى» تقدم لأنه كان من أكابر الملاك فى هذه البلاد ، وان حافظا تخلف لأنه بشهادة نفسه لم يملك من أرض مصر نصف فدان ؟؟

ما أنا وما هـــذا الكلام ؟؟ هى ثرثرة لاتليق برجل من الله عليه بركوب قطار الصعيد وهو قطار يساير نهرا بين جبلين ••

وتلك حال توحى باعزاز السرعة والقسوة واللين ، ومن هـــذه العناصر الثلاثة يتكون جسر الخلاص ؟؟

أحبك ــ يا وطنى ــ أحبك أحبك بأعظم مما أحبك مصــطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ••

لم يعان أحد من الظلم فى وطنه مثل ما عانيت فما زادنى ذلك الظلم الا عرفانا بجمال وطنى ، وهل رأيتم جميلا غير ظلام ؟؟

قطار الصعيد فى ١٩٤١/١٢/١٧

زكى مبـــارك

الشوقيات

الجزء الثانى

ومن أهم أبواب هذا الجزء باب النسيب ، ومن أهم قصـــائده قصيدة (ياناعم الطلح) ولن أتكلم عن هذه القصيدة (١) ولا عن ذلك الباب لأنى أكره أن أنشر بحثا نشرته من قبل وانا تكلمت بالتفصـــيل عن نونية شوقى فى الطبعة الثانية من كتاب «الموازنة بين الشعراء»(٢) وتكلمت عن غزليات شوقى (٣) بالتفصيل فى الطبعة الثانية من كتاب (البـــدائع)

تاريخ القصائد :

شوقى لم يؤرخ قصائده جميعا ولو أنه فعل لأعفى النقد الأدبى من التعب فى تعقب أسباب الضعف والقوة فى شاعريته العصماء .. والظاهر أن وضوح التواريخ أمام عينيه أفهمه أن الناس لن يحتاجوا عند النظر فى قصائده الى تاريخ والأمر كان كذلك بالفعل فقد كنت

---

(١) الرسالة الأعداد ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٢ .
(٢) الكلام عن قصيدة ياناعم الطلح فى هذا الكتاب .
(٣) الكلام عن غزليات شوقى فى هذا الكتاب

أعرف المناسبات التى قيلت فيها تلك القصائد ثم طغت الشواغل فأنستنى ما لم أكن أحب أن أنساه ، ولعل أبناء شوقى يلاحظون هـــذا المعنى فيذكرون حميع التواريخ فى الطبعة الثانية ..

أقدم القصائد المؤرخة قصيدة (طابع البـــريد) فى العاشر من سبتمبر سنة ١٩٠٠ وتليها أبياته فى وصف معرض الأزهار والثمار فى باريس ســــنة ١٩٠١ ثم وصف المرقص الذى أقيم فى قصر عابدين سنة ١٩٠٣ والمرقص الذى تلاه فى سنة ١٩٠٤ .

وهذه القصائد لا ترتقى الى منزلة القصائد التى نظمها بعد أن استحصدت قواه الشعرية ولكنها مع ذلك تشهد بأن «شوقى» فطر منذ البداية على اجادة الغناء .

من كل فاكهة زوجان :

فى هذا الجزء نرى قصائد فرنسية وقصائد تركية ومصرية وقصائد سورية ولبنانية قصائد وصف بها عواطفه الصحاح نحو فرنسا وتركيا ومصر وسورية ولبنان قصائد تقيم أصح البراهين على أن «شوقى» أحب جميع ما عرف من الناس ، وهنالك ظاهرة يجب النص على تفســيرها الصحيح وهى افراط شوقى فى أخريات أيامه على الاشادة بمحــاسن الشـــام ولبنان فما تفسير هذه الظاهرة النفسية ؟؟

كان شوقى لا يحب الا من يروى شعره وكان هواه مقصـــورا على من يؤمن بأنه أشعر الناس ، وقد وجد فى سورية ولبنان جماعات كثيرة تعرف من سرائر شعره أكثر مما يعرف ، وتذهب فى تمجيده الى آفاق لا يطيف بها الخيـــال ..

وهل أسرف اذا قلت ان تلطف شوقى فى الحديث عن المسيحية يرجع الى مراعاة عشاق شعره من النصارى العرب ؟؟

الاسلام يحكم بكفر من يتطاول على المسيح ولكنه لا يفرض على المسلم أن يتغنى بمجد المسيح فكيف جاز لشوقى أن يجعل الثناء على المسيحية من أغراضه الشعرية ؟؟

السبب هو ما أقول ، هو ان شوقى وجد فى نصارى لبنـــان رجالا يؤمنون بأدبه الرفيع فجازاهم وفاء بوفاء ، وقال فى المســيح كلاما يقره أدب القرآن ، وهل وصف المسيح بأفضــل مما وصــفه القــرآن ؟

كان شوقى ينعطف من لبنان الى سورية بروحانية قليلة الأمثال:

خلفت لبنان جنات النعيــم وما نبئت ان طريق الخلد لبنـــان
حتى انحدرت الى فيحاء وارفة فيهاالندى وبها «طى» «وشيبان»
نزلت فيها بفتيــان جحــاجحة آباؤهم فى شــباب الدهر غسان
بيض الأسرة باق فيهـم صـيد من «عبدشمس» وانلم تبق تيجان
يا فتية الشام شكرا لا انقضاء له لو أن احسانكم يجزيه شكران
ما فوق راحاتكم يوم السماح يد ، ولا كأوطانكم فى البشر أوطان

فما هو الكرم الذى أضفاه الشاميون على شــوقى وكان أغنى الناس عن سخاء الأسخياء ؟؟ هو الكرم الذى وصفه فى قصيدة ثانية حين قال :

رواة قصائدى فاعجب لشــعر بكل محلة يرويه خــلق

والواضح مما قرأت وما سمعت ان «شوقى» لم يذق طعم النعيم الا فى سورية ولبنان فقد كان فى أبناء تلك البلاد الجميلة من يســمع شوقى آلاف الأبيات من شعره فى اليــوم الواحد ، وكان فيهم من يسمعه قصائد غابت عن وعيه الدقيق ، وكان شوقى يتلقى تلك التحيات بالبــكاء ..

ولبكائه هنالك صورة يتحدث عنها الشاعر أمين نخله ان صحت رواية الأستاذ صلاح الاسير

وحب شوقي للشام هو الذى جعل قواطفه أموية :

بنـــو أمية للأنباء ما فتحوا ... وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس فى أطراف دولتها ... فى كل ناحية ملك وســـلطان
يا ويح قلبى مهما انتاب أرسمهم ... سرى به الهم أوعادته أشـــجان
بالأمس قمت على الزهراء أندبهم ... واليوم دمعى على الفيحاء هتان
فى الأرض منهم سماوات وألوية ... ونيرات « وأنواء » وعقبـــــان
معادن العز قد مال الرغام بهـــم ... لوهان فى تربه الابريز ما هانوا
لولا دمشـــــق لما كانت طليطلة ... ولازهت بنى العباس بغـــــداذ
مررت بالمسجد المحزون أسأله ... هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنـــابر أحـــرار وعبدان
فلا الأذان أذان فى منـــارته ... اذا تعـــــــالى ولا الآذان آذان

ومع هذا لم ينس شوقى حق العلويين فتحدث عنهم فى مواطن كثيرة أشهرها الموطن الذى اختلقه اختلاقا فى مسرحية مجنون ليـــلى ان صدقنا افتراض الدكتور طه حسين .

وخلاصة القول ان عواطف شوقى منوعة الأصول والفروع فقد سما بنفسه عن الشعوبية ورأى أن يكون شعره ميراث الشرق على مافيه من اختلاف النوازع والميول :

كان شعرى الغناء فىفرح الشر ... ق وكان العزاء فى أحـــزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ... ح وأن نلتقى على أشـــجانه
كلما أن بالعراق جـــريح ... لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينـــا كما عليـــكم حديد ... تتنزى الليوث فى قضـــبانه
نحن فى الفقه بالديار سواء ... كلنا مشـــــفق على أوطانه

مصرية شوقى :

وبرغم التنوع فى العواطف كان شوقى شاعر القومية المصرية ولعله أول شاعر جعل من همــه وصف مصر فى أحلامها وأهــوائها وأمانيها بما هى له أهل وأول شاعر ذاق ما فى مصر من قرارة النعيم والبؤس وان كان شفى ما فى نفسه حين قال فى غمز الحكومة التى سمحت بنفيه فى أوائل الحرب الماضية •

« وطن توالت عليه حكومات وحكومات تقول فتجد وتعمــل فتهزل ولا تحسن من ضروب الاصلاح الا أن تولى وتعزل » •

حكاية المستر روزفلت :

هو رئيس أسبق للولايات المتحدة وكان قد زار مصر فى سنة ١٩١١ أو قريبا من ذلك فما يتسع وقتى لتحديد التاريخ •

والظاهر أن روزفلت السابق فاه عند زيارته للسودان بكلام لا يرتضيه المصريون فرد عليه الشيخ على يوسف فى جريدة المؤيد بمقال كان آية فى البيان ثم اندفع شوقى فحاوره بأسلوب غير ذلك الأسلوب، اندفع فحدثه عن عظمة مصر الممثلة فى قصر أنس الوجود ••

أيهـــا المنتحى بأســوان دارا
كالثـــريا تريد أن تنقضــــا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع
لا تحـاول من آية الدهر غضـــا

وهى قصيدة نفسية المعانى وهى من عيون الشوقيات •

قصيدة النيل :

هى قافية فى ١٥٣ بيتا أرسلها المستشرق مرجــوليوث مــع مقدمة نثرية قلقة الاسجاع ، قصيدة يرجع عهدها فيمــا افترض الى

أيام حرب البلقان فهى اذن من غرر شعره القديم ، وليس من العـدل أن نجارى الأستاذ المازنى فى القول بأن شاعرية شوقى لم تتفتح الا بعد النفى فأنا أرى أن قصيدة الأندلس الجديدة التى قالها بمنـاسبة سقوط ادرنه فى سنة ١٩١٢ لا تقل جودة عن أبرع ما جاد به خاطره فى النفى وبعد النفى، والحق أن «شوقى» نضج فى وقت مبكر فقصيدته التى قالها فى المؤتمر الشرقى بمدينة جنيف سنة ١٨٩٤ تعد من القصائد الجياد وهى الباكورة التى بشرت بأن سيكون له مقام بين شـعراء القصص التاريخى ..

ونرجع الى قصيدة النيل فنقـول :

أراد شوقى بهذه القصيدة تمجيد العنصرية المصرية ممثلة فى النيل السعيد ، وقد رحب الشاعر بالألفاظ الجارية على ألسنة الفلاحين فى أعمال لسقى والغرس والحصاد وطاف به الخيال حول عهـــود التاريخ فشرح ما مر بهذه البلاد من عقائد وديانات شرحها برفــق لأنه لم يرد النقد وانما أراد التسجيل .

ولو شئت لقلت انه اعتــذر عن ظلم الفراعين فقد عد ارهاقهم للشعب فى بناء الهياكل بابا من المجد المرموق .

هى من بنـاء الظـــلم الا أنه	يبيض وجـه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الامم الملوك بمثلهـــا	مجدا لهم يبـقى وذكرا يعبـق

ويرى الشاعر ان الأرض والسماء لا تبيدان الا برجفة القيامة، أما قيامة مصر فهى جفاف النيل الذى خاطبه الشاعر فقال :

من أى عهد فى القـرى تتـدفق	وبأى كف فى المـدائن تغـدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من	عليا الجنان جـداولا تترقرق
وبأى عـــين أم بـأية مـــزنة	أم أى طوفان تفيض وتفهـق
وبـأى نول أنت ناسـج بـردة	للضفتين جـددها لا يخـلق

تسود دياجا اذا فارقتهـــا فاذا حضرت اخضوضر الاستبرق
فى كل آونة تبـدل صـبغة عجبا وأنت الصـابغ المتـأنق
أتت الدهور عليك مهـدك مترع وحياضك الشرق الشهية دفـق
تسقى وتطعم لا اناؤك ضـائق بالواردين ولا خـوانك ينفـق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا والأرض تغـرقها فيحيا المغـرق

ونظر الشاعر فرأى الوثنية المصرية تأمر بعبادة النيل فشـاء له الأدب أن يوجه تلك العبادة توجيها يرفع عنها اصر الشرك بواجب الوجـود :

دين الأوائل فيـك دين مروءة لم لا يؤله من يقـوت ويـرزق
لو أن مخـلوقا يؤله لم تـكن لسواك مرتبـة الالوهة تخـلق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة ان العبـادة خشية وتعـلق

ثم نظر الشاعر فرأى ان المصريين القدماء كانوا يهتمون ببنـاء القبور اضعاف ما يهتمون ببناء البيوت فاتخـذ من ذاك دليـلا على حبهم للخلود :

بلغوا الحقيقة من حياة علمهـا حجب مكثفـة وسر مغـلق
وتبينوا معنى الوجـود فلم يروا دون الخلود سعادة تتحقـق
يبنون للدنيا كما تبنى لهـم خربا غراب البين فيها ينعـق
فقصورهم كوخ وبيت بـداوة وقبورهم صرح أشم وجوسق

ولم ينكر الشاعر فى تفنيد خرافة « عروس النيل » وانما جعلها حقيقة شرعية حين قال :

ونجيبة بين الطفولة والصـبا عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف اليك غاية حظهـا والحظ ان بلغ النهاية موبق
لاقيت أعراسـا ولاقت مأتمـا كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهـق

الى آخر ما قال فى هذا المعنى الدقيق . وقد اعتذر عن اسطورة « ابيس » فجعلها نوعا من الوفاء للدين :

قوم وقار الدين فى أخـــلاقهم   والشعب ما يعتاد أو يتخـــلق

ولم يفت الشاعر أن يسجل فى أبيات كريمة أن مصر التى كانت موئلا للديانة الفرعونية هى مصر التى آوت الديانة الموسوية والديانة العيسوية والديانة المحمدية ولم يفته أيضـــا أن ينص على عـــدالة عمر بن الخطاب الذى ضرب ابن عمرو بن العاص بالسوط حين سمع أنه أهان أحـــد الأقباط وقال فى ذلك كلمته التاريخية « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

ثم ماذا ؟؟

ثم يختتم شوقى قصيدة النيل بأبيات تفسر معنى الوطنية فالناس عنده يحبون الوطن لأنه مصدر ســـعادتهم لأنه المســـتقر الأمين لأبنـــائهم :

مما يحملنا الهوى لك أفـــرخ   سنطير عنها وهى عنـــدك ترزق
تهفو اليهـــم فى التراب قلوبنا   وتكاد فيه بغير عرق تخفـــق
ترجى لهم ، والله جـــل جـــلاله   منا ومنـــك بهم أبر وأرفـــق

مصاير الايام :

هذا عنوان قصيدة صور بها شوقى صروف الحياة من عهـــد الطفولة الى عهد المشيب ابتـــدأ الشـــاعر بحياة الطفل فى المـــكتب والمكتب كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية وهى كذلك فى عرف المعارف فهى تقول المكاتب العامة بعد أن كانت تقول المدارس الأولية وكان العرف المدرسى قبل سنين يعمم كلمة المكتب بحيث تشمل حجـــرة الدرس ولو كانت فى مدرسة عالية .

وشوقى فى هذه القصيدة يتمثل حياة الأطفال ويحسها أصدق احساس •

ألا حبــذا صـحبة المكتب وأحبب بأيامهــــا أحبب
ويا حبــذا صبية يلعبــو ن عنـان الحياة عليهم صبى
كأنهمو بســمات الحيـاة وأنفـاس ريحـانها الطيب

وعبارة « عنان الحياة عليهم صبى » عبارة طريفة والمراد بصبا العنان هو الرقة واللين ثم يلتفت الشاعر فيرى أن الأطفال لا يفرحون بالمكتب كل الفرح ولا يرتاحون اليه كل الارتياح وكيف والأمر كما قـال :

يراح ويغدى بهم كالقطيــع على مشرق الشمس والمغــرب
الى مرتــع ألفـوا غـيره وراع غريب العصـا أجنبى

وهذان البيتان من أروع ما صورت به حياة الأطفال فى رعاية المعلمين ••

وصور اختلاف قواهم باختلاف أسنانهم فقال :

فــراخ بأيك فمن ناهض يروض الجنـاح ومن أزغب

وصور غفلتهم عن المصير المرتقب فقال :

مقاعدهم من جنــاح الزمـا ن وما علمــوا خطر المركب

وقد جاد الوحى على شوقى ببيتين فى غاية من العذوبة والصدق أما البيت الأول فهو قوله فى تلوين حيوية الأطفال :

عصافير عنــد تهجى الدرو س مهار عرابيــد فى الملعب

وأما البيت الثانى فهو قوله فى اختلاف الاحساس باختــلاف أوقات الجرس :

لهم جرس مطرب فى الســرا ح وليس اذا جــد بالمطرب

وهل ينسى المدرسون لا التلاميذ أن جرس الانصراف محبوب الرنين ، وان جرس الدرس بغيض الضجيج ؟

وأذكر من باب الفكاهة أنى كنت أشرح لأحد نظـار المدارس قيمة الطرافة فى هذا البيت فقال ان شوقى نسى جرس الغداء ..

ثم قال شوقى :

جنـون الحداثة من حـولهم	تضيق به سعة المـــذهب
عـدا فاستبد بعقل الصبى	وأعدى المـؤدب حتى صبى

والغرض قد التوى على شوقى فى هذين البيتين بعض الالتواء لأنه ساوى بين الجنونين : جنون الأطفال وجنون المعلمين .

وأخطأ شوقى فى اختيار كلمة (المؤدب) والصواب أن يقـول « المعلم » فهناك فرق بين التأديب والتعليم فالتـأديب هو التثقيف والتعليم هو الترتيب وفى كلام الجاحظ عبارة تفصح عن الفرق بين المؤدب والمعلم وتدل بوضوح على أن المؤدبين أكبر من المعلمين .

ثم نقل شوقى تلاميذه من المكتب الى المدرسة ثم الى الحياة فقال :

فياويحهم هل أحسوا الحيا	ة لقـد لعبـوا وهى لم تلعب
تجرب فيهـم وما يعلمـون	كتجـربة الطب فى الأرنب
سقتهم بسم جرى فى الأصول	وروى الفـروع ولم ينضب
ودار الزمان فـدال الصبا	وشب الصغار عن المـكتب
وجد الطلاب وكد الشـبا	ب وأوغل فى الصعب فالأصعب
وعـادت نواعـم أيامـه	سنين من الدأب المنصـب
وعـذب بالعـلم طـلابه	وغصـوا بمنهله الأعـذب

والمجال يضيق عن تشريح هذه القصيدة التى قال فيها شوقى :

وكـم منجب فى تلقى الدروس	تلقى الحيـاة فلم ينجب

فأرجو أن يلتفت اليها المتسابقون لأنها من غرر الشوقيات ..

قصائد سورية :

في المقال السالف نصصنا على السر في اهتمام شوقي بأخبار سورية ولبنان ، فلنذكر اليوم أن الشاعر تحدث عن سورية في قصائد جياد ، منها القصيدة التي تحدث فيها عن الشهداء في سبيل الاستقلال ؟

بني سورية اطرحوا الأماني ... خرجتم تطلبون به النزالا
سلوا الحرية الزهراء عنا ... وعنكم هل أذاقتنا الوصالا
وهل نلنا كلانا اليوم الا ... عراقيب المواعد والمطالا
عرفتم مهرها فبهرتموها ... دما صبغ السباسب والدغالا
وقمتم دونها حتى خضبتم ... هوادجها الشريفة والحجالا
دعوا في الناس مفتونا جبانا ... يقول : الحرب قد كانت وبالا
أيطلب حقهم بالروح قوم ... فتسمع قائلا ركبوا الضلالا

ومنها القصيدة الأموية وقد أشرنا اليها في المقالة الماضية ومنها القصيد الذي لا يطاوله قصيد فما نظم شاعر أروع مما نظم شوقي في نكبة دمشق ولا ارتاع شاعر كما ارتاع شوقي لنكبة دمشق :

لحاها الله أنباء توالت ... على سمع الولي بما يشق
يفصلها الى الدنيا بريد ... ويحملها الى الآفاق برق
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دكت ... وقيل أصابها تلف وحرق
ألست دمشق للاسلام ظئرا ... ومرضعة الأبوة لا تعق

وفي هذه القصيدة يقول شوقي في وصف ما صنعت النكبة بنساء دمشق :

برزن وفي نواحي الأيك نار ... وخلف الأيك أفراخ تزق
اذا رمن السلامة من طريق ... أتت من دونه للموت طرق

بليل للقذائف والمنايا وراء سمائه خطف وصعق
اذا عصف الحديد احمر أفق على جنباته واسود أفق

ثم توحى اليه ملائكة الشعر أن يقول :

بنى سورية اطرحوا الأمانى والقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خدع السياسة أن تغروا بألقاب الامارة وهى رق
وكم صيد بدالك من ذليل كما مالت من المصلوب عنق
نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا فى الهم شرق
ويجمعنا اذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق
وقفتم بين موت أو حياة فان رمتم نعيم الدهر فاشقوا
ومن يسقى ويشرب بالمنايا اذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا
ففى القتلى لأجيال حياة وفى الأسرى فدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

هل يحتاج هذا الشعر الى شرح ؟ هيهات !

قصائد لبنانية :

المذاق يختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف بين قصائد شوقى السورية وقصائده اللبنانية فهو فى الشام يعانى نارين : الذكريات للامجاد الاموية ونار الحقد على الاستعمار الفرنسى وقد جاهده السوريون أصدق الجهاد وعانوا فى دفعه مكاره لا تطاق .

ولا كذلك حال شوقى فى لبنان فهو هنالك شاعر يصدح فوق أفنان الجمال ، ولا يرى ما يسوءه من الاضطهاد لأن الظواهر كانت تزعم أن الفرنسيين واللبنانيين على وفاق .

كان لبنان لعهد زيارات شوقى وطن الشعر والجمال والأمان والرخاء وكان اللبنانيون على فطرتهم الاصيلة من الترحيب الصادق بكل

من يزور وطنهم الجميل فأنس بهم شوقى كل الأنس واطمأن اليهم كل الاطمئنـــان •

أيام شوقى فى سورية كانت أيام جهاد أما أيامه فى لبنان فكانت أيام شهاد •

كان شوقى يكره أن يقول ان شبابه الى أفول وان جـــاوز الستين ثم شاء شيطانه أن ينقله الى زحلة وطن الرحيق ومعه المحامى فكرى أباظة والموسيقار محمد عبد الوهاب •

وفى لحظة من لحظات الصراع بين العيون والقلوب هان عليه أن يبكى الشباب الذاهب فيقول :

شيعت أحلامى بقلب بـــاك	ولمت من طرق الملاح شباكى(١)
ورجعت أدراج الشباب ووردِه	أمشى مكانهما على الأشـــواك
وبجانبى واه كأن خفـــوقه	لما تلفت جهشـــة المتبــــاكى
شاكى السلاح اذا خلا بضلوعه	فاذا أهيب به فليس بشـــاك
قد راعه أنى طويت حبـــائلى	من بعد طـــول تناول وفكاك
ويح ابن جنبى ، كل غـــاية لذة	بعد الشـــباب عزيزة الادراك
لم تبق منا يا فـــؤاد بقيـــة	لفتـــوة أو فضلة لعـــراك
كنا اذا صفقت نستبق الهـــوى	ونشد شد العصـــبة الفتاك
واليوم تبعث فى حـــين تهزنى	ما يبعث الناقوس فى النســـاك

وكان الرأى أن تلقى هذه القصيدة فى حفلة أعدها أهل زحـــلة لتكريم شوقى وكان الأستاذ فكرى أباظة هو الأثير عند شوقى حينذاك فى القاء شعره البليغ فاعترض للموسيقار عبد الوهاب قائلا ان هـــذه القصيدة للغناء ، وليست للالقاء ، ثم صدح بصوته الرنان :

---

(١) فى الديوان لمحت وهى غلطة مطبعية لم ينتبه لها أكثر من نقلوا هذه القصـــيدة عن الديوان •

يا جارة الوادى طـربت وعادنى ما يشبه الأحـلام من ذكـراك
مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى والذكريات صدى السنين الحاكى
لم أدر ماطيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدى فطـواك
لا أمس من عمر الزمان ولا غد جمع الزمان فكان يوم لقاك (١)

وفى هذه القصيدة يقول شوقى على عادته فى التخـوف من محجب الغيـوب :

لبنان ردتنى اليك من النـوى أقـدار سـير للحيـاة دراك
نمشى عليها فـوق كل فجـاءة كالطير فـوق مكامن الاشراك

مصرع شوقى :

فى مكتبة الدكتور طه بك حسين ظرف مختوم كتب عليه «مصرع شوقى» فما الذى يحتويه الظرف المختوم ؟

فى احدى المصريات من صيف سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦ حدثنى الدكتور طه حسين أن « شوقى » أسف أبشع الأسف بقصيدة نشرتها جريدة المقطم عن هوى شوقى فى لبنان .

واعترف انى كنت أرى ما يرى الدكتور طه حسـين فى تلك القصيدة يومذاك فقد نشرت فى المقطم على أسوأ حال من التحريف.

ثم دارت الأيام وعرفنا انها أجود مما كنا نتوهم وانها فى كل خاطر وعلى كل لسان فى لبنان ثم دارت الأيام مرة ثانية فعرفنا أن الاريحية اللبنانية سمحت بأن يكثر من يقولون ان شوقى عناهم بذلك القصيد ، الذى يهتف :

وأغن أكحل من مهـا (بكفية) علقت محـاجره دمى وعلقتـه
لبنان دارته وفيـه كنـاسه بين القنا الخطار خط نحبته

(١) هذه القطعة مشهورة جدا . ولها ترتيب غير هذا الترتيب .

السلسبيل من الجــــداول ورده	والآس من خضر الخمــائل قوته
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل	فأتيت دون طـريقه فزحمتـــه
فازور غضـــابانا وأعرض نافــرا	حال من الغيد الملاح عرفتـــه
فصرفت تلعـــــابي الى أترابه	وزعمتهن لبـــاتتي فأغـرته
فمشى الى وليس أول جـــؤذر	وقعت عليه حبـائلي فقنصـته
قد جاء من سحر الجفون فصادني	وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرت به على حـرم الهدى	لابن البتول وللصلاة وهبته

الى آخر القصــيدة ..

شعور شوقي بالوجود :

بين قصائد شوقي فى سورية ولبنان وقصائده فى البلاد التركية والفرنسية آماد طوال ومع هذا نجد أن احساسه بالوجود على اختلاف الأزمان غاية فى القوة والبريق وهل ننسى أن الجرائد المصرية لم تجد عند مصرع باريس فى الحرب الحاضرة غير ما توجع به شوقي لباريس فى الحرب الماضية ؟

ولقــد أقول وأدمعي منهــلة	باريس لم يعرفك من يغزوك
زعموك دار خـلاعة ومجانة	ودعارة يا افــك ما زعمــوك
ان كنت للشهوات ريا فالعـــلا	شهواتهن مرويات فيـــك

ومن هذا الكلام نعرف، أن للعلا شــهوات أعنف من شــهوات الأهواء ..

وقصيدة شوقي فى غاية بولونيا قديمة العهود وهى مع ذلك لطيفة النفس ذكية الروح .. وأبياته فى « شبه أمينة » أبيات لطاف ، وقــد رأيت بعيني صورة «أمينة» فى غرف كثيرة من دار شوقي بدون استثناء لحجرة الاستقبال وهى البنية التى قال فيها ذلك الأب الحنان :

وكم قد خلت من أبيك الجيوب	وليست جيوبك بالخـــاليه

ثم مـاذا ؟

ثم يبقى الحديث عن القصيدة التى حفظها حافظ ابراهيم مـع تفاصيل يوجبها التاريخ لمعرفة سرائر هذين الشاعرين ..

توت عنخ أمون :

فى الجزء الثانى من الشوقيات قصيدتان فى توت عنخ آمون ، ولهاتين القصيدتين قيمة عظيمة فقد صرح شوقى نفسه أن أعظم قصائده هى النونية الآمونية :

درجت على الكنـز القـرون وأتت على الدن السـنون

أما حافظ ابراهيم فكان يرى أن أعظم قصيدة نظمها شوقى هى البائية الكارنارفونية :

فى الموت ما أعيـا وفى أسبابه كل امرىء رهن بطى كتـابه

فما حديث هذه القصائد الجياد ؟

كان اللورد كارنارفون من المولعين بالآثار المصرية ، وقد سمح له غناه أن ينفق على الحفريات بسخاء فكلف المستر كارتر أن يحفر فى وادى الملوك بالأقصر عساه يهتدى الى مقبرة لم يهتد اليها اللصـوص فى العصور الخوالى ..

وبعد متاعب كادت تودى بمصير اللورد كارنارفون عثر المسـتر كارتر على مقبرة توت عنخ آمون فى سنة ١٩٢٢ .

وقد التفت الباحثون من الأوربيين والامريكيين الى هذا الكشف أعظم التفات وقدمت التهانى الى كارتر وكارنارفون من الهيئات العلمية فى الغرب والشرق ودعيت الصحافة الى معاينة ذلك الكشف الخطـير فذهب لمعاينته ثلاثة من الصحفيين : زكى مبارك مندوبا عن جـريدة الأفكار والدكتور هيكل مندوبا عن جريدة السياسة والأستاذ المازنى

مندوبا عن جريدة الاخبار ، ولن انسى ان المستر كارتر حدثنا عن السبب في نقص بعض محتويات المقبرة وكان الرأى عنده أن أيدى اللصوص قد امتدت اليها في عهد الأسرة العشرين • فكتبت في الأفكار أقول : انى أرجح أنها سرقت فى القرن العشرين ولم يفت مراسل التيمس أن يبرق الى جريدته بهذا التلميح فنشرته بدون تسويف ، لتداعب به اللورد كارنارفون وكانت النتيجة أن يمتنع المستر كارتر عن السماح للصحفيين بزيارة المقبرة ولهذا الامتناع صدى فى شعر شوقى سنشير اليه قبل ختام هذا الحديث •

لعنة الفراعنة :

هنالك خرافة تقول بأن الفراعنة يلعنون من ينبش قبورهم بعد الموت • ولهذه الخرافة أصل فقد وجد على كثير من القبور المصرية والكلدانية دعوات حرار على من ينبشون قبور الملوك وفى القبور المصرية ما يسمى الرصد وهو تمثال يقام فى مدخل القبر لتخويف اللصوص وهو حقا مخيف لأن القدماء كانوا يتوهمون أنه مزود بالسلاح والروح ، وانه يقتل من يدخل القبر بدون استئذان ، وهل يستأذن اللصوص ؟ فماذا صنعت لعنة الفراعنة باللورد كارنارفون ؟ أبرق اليه المستر كارتر فحضر على عجل ليشهد الكشف الجديد وبعد أيام لسعته بعوضة وهو نائم فى خيمة بجوار المقبرة فمات •

حقيقة اغرب من الخيال :

كان اللورد كارنارفون اهدى الى بنت ملك الانجليز عقدا من العقود المصرية القديمة ففرحت به فرحا عظيما واثابت مهديه أجزل الثواب فلما سمعت أن بعوضة لسعته فمات نزعت العقد من جيدها لئلا تلحقها لعنة الفراعين •

وفى قصة البعوضة يقول شوقى :

صادت بقارعة الصــعيد بعوضة   فى الجو صائد بازه وعقابه
وأصاب خرطوم الذبابة صفحة   خلقت لسيف الهند أو لذبابه
طارت بخافية القضاء ورأرأت   بكريمتيه ولامســت بلعــابه

ثم يعلل شوقى تلك الحادثة تعليلا علميا فيذكر أنها من نتــائج الوهم الذى يضعف الأعصاب ؟

لا تسمعن لعصبة الأرواح ما   قالوا بباطل علمهم وكــذابه
الروح للرحمن جل جــلاله   هى من ضغائن علمه وغيابه
غلبوا على أعصابهم فتوهموا   أوهام مغلوب على أعصابه

بين حافظ وشوقى :

كان التنافس بين حافظ وشوقى قد وصل الى أبعد الحدود ، وزاد فى خطر ذلك التنافس أن حافظا كان رجلا عذب الروح وكــانت له مع الصحفيين صلات يؤرث بها أحقادهم على شوقى حين يشاء ..

وما أذكر غلبة شوقى على حافظ الا تعجبت ، فقد كان حافظ غاية فى الذكاء واللوذعية وكان علمه بتاريخ العــرب وآذابهم علما يفوق الوصف وكان فهمه لدقائق الحياة المصرية اعجوبة الأعاجيب فكيف تفوق عليه شوقى وكان رجــلا يدل مظهره وحديثه على أنه فرد من سواد الناس لا يمتاز بعبقرية ولا نبوغ ؟

اكاد أجزم بأن « شهوة الحديث » هى التى اضعفت شاعرية حافظ فقط كان كثير الحديث وبالحديث وصل الى ألوف القلوب وبالحديث ضاع ، لأن الحديث يأخذ من القوى النفسية طاقات لا تصلح بعــدها للغنــاء .

لو أن أحاديث حافظ دونت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك شوقى من الثروة الشعرية ولكان من الممكن أن بعد من أقطاب التاريخ

الأدبى فى هذا الباب ولكن هذا الزمن لا تتسع تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء فى أمثال هذه الشئون •

أما شوقى فكان يؤثر الصمت ليحتفظ بالمدخر من قواه النفسية وليلقى الناس بالقصيد لا بالحديث فظفرت جهوده بالخلود ••

كان حافظ يحدث من يلقاه باطناب واسهاب فلا ينقضى اليـوم الا وهو متهالك من فرط الاعياء ، وكان شوقى يهرب من الناس حـين يشرع فى النظم فلا تراه الا هائما على وجهه من طريق الى طريق وفى حال تنذر بالجنـون •

كان حافظ يطيل محاورتى حين كنت موظفا بدار الكتب المصرية فى سنة ١٩٢٥ فبدا للمرحوم أحمد نسيم أن يدلنى على أحد مقاتله النفسية فحدثنى أن أعظم ما يغيظ حافظا أن تخبره انك رأيت شوقى ينتقل من ترام الى ترام وفى يده سيجارة وعلى وجهه امارات الذهول•

وحملنى النزق على تجربة هذه الوصية فأخبرت حافظا انى رأيت «شوقى» كثير التنقل فى الشوارع وفى حال يغلب عليه الانفعال فصرخ حافظ • فى أى غرض يعالج الشعر هذا المخبول انه يكره أن يقتـرن اسمى باسمه ، مع ان الناس ظلوا يقولون فى أكثر من عشرين سنة ، شوقى وحافظ كما يقولون بيض وسميط ••

بين الظلم والعدل :

كانت الأقدار سمحت بأن تنعقد بينى وبين شوقى مودة دامت نحو سنتين وفى تلك الأيام عرفت من أحوال شوقى أشياء ومن المؤكد انه من أعاظم الرجال الذين عرفتهم فى حياتى فقد كانت اسـتاذيته فى نقد المجتمع مضرب الأمثال وكان روحه من ألطف الارواح وفى لحظـة من لحظات الحوار حول مقاصد الشعراء سألته عن قصيدة حـافظ فى مجاوبته وهو منفى بالأندلس فأجاب وقد تربد وجهه بالغيظ أنا لا أروى غير شعرى ••

فقلت : ومن الوفاء للادب أن تروى شـــعر من يناجيك وانت غريب ..

وفى اليوم التالى لقيت حافظا فسألته برفق أتحفظ شيئا من شعر شوقى فأجاب لقد قتلنى شوقى حين قال فى اللورد كارنارفون :

أفضى الى ختم الزمان ففضـــه ... وحبا الى التاريخ فى محـــرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى ... فرعون بين طعـــامه وشرابه

احفاد العبقريين :

ومع هذا فأحقاد العبقريين كأحقاد الأطفال تذوب بعد ليـــال ففى سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلة عربية لتكريم شوقى فأنشد حافظ قصـــيدا جاء فيـــه :

أمير القوافى قد أتيت مبـــايعا ... وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فدعاه شوقى وقبل جبينه والدمع فى عينيه .. ثم شاء القـــدر أن يموت حافظ قبل شوقى بأسابيع فقال شوقى يبكيه ؟

قد كنت أوثر أن تقول رثـــائى ... يا منصـــف المـــوتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طـــول سلامة ... قدر وكل منيـــة بقضـــــاء
وودت لو أنى فـــداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فـــدائى
الناطقون عن الضغينة والهـــوى ... الموغرو الموتى على الاحيـــــاء
من كل هدام ويبنى مجـــــــده ... بكرائم الانقـــاض والاشـــــلاء
ما حطموك وانما بك حطمـــوا ... من ذا يحطم رفرف الجـــــوزاء
انظر فانت كامس شأنك باذخ ... فى الشرق واسمك أرفع الأسماء
بالامس قد حليتنى بقصـــــيدة ... غراء تحفظ كاليـــــد البيضـــاء
غيظ الحسود لها وقمت بشكرها ... وكمـــا علمت مودتى ووفائى

وهى أعظم قصيدة قالها شوقى قبيل الموت • ولعلها خير ما جاد به خاطره برفق وحنان (١) •

الاعيب الحظوظ :

مات حافظ وشوقى فى موسم واحد هو صيف سنة ١٩٣٢ •• فارتجت الأقطار العربية لموت شاعرين كانت اليهما قيثارة الغنـاء فى أعوام تزيد على الثلاثين •

وفى خريف تلك السنة بدا لاحدى شركات السجائر أن تخرج علبة باسم شوقى وعلبة باسم حافظ فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة قروش وثمن العلبة الثانية أربعة قروش • وسعيد الدنيا سـعيد الآخرة كما يقولون •

توضيح :

لهذا الاستطراد غاية هى خلق جو يفسر ما كان بين شوقى وحافظ وما يليق بأديب أن يجهل ما كان بين حافظ وشوقى من مصاولات عادت على الشعر بأطيب الثمرات •

النونية الامونية :

مراجعة هذه القصيدة بتأمل وتدقيق ترينا كيف قال شوقى انها أعظم ما خطته يمناه فقد حاور الحياة وحاور الوجود بأسلوب الأديب الفيلسوف وزعم خياله أن الموتى لوشعروا بما فى قبر ذلك الملك

---

(١) كان شوقى فى اخريات أيامه مصابا برعشة عنيفة تتمثل فى اضطراب يديه بدون انقطاع ، ومع هـذا فقصيدته فى رثاء حافظ لا تدل على تعب أو اعياء ، أما آخر قصيدة نظمها فهى قصيدته فى افتتاح مصنع مشروع القرش ، وبعد أن صفق المحتفلون وأطالوا التصفيق لقصيدة شوقى كان زادهم عند الانصراف أن يتلقوا ملحقا لجريدة الجهاد تنعى به شوقى ، فعرفوا أن تصفيقهم كان تحية تلقاها الشاعر وهو على سرير الموت •• يرحمك الله يا شوقى •

لنبشوه بدون استحياء ثم مضى فصور حياة ذلك الفرعون فى حــدود التصاوير المرسومة بجدران قبره المطموس ••

والتلطف مع شوقى لاينسينى واجب النقد الأدبى وهذا الواجب يدعونى الى النص على أن «شوقى أسرف» فى وصف مقبرة توت عنخ آمون فقد ذكر لها خصائص غير حقيقية ، خصائص لم ترها عيناى حين زرتها قبل عشرين عاما ولعل شوقى لم يرها بعينه قبل نظم هذا القصيد وانما تمثل ما رآه فى بعض المقابر الفرعونية فقال ما قال بلا تحفظ ولا احتــراس ••

ثورة الجيل :

فى هذه النونية تحدث شوقى عن عصر توت عنخ آمون وعده عهد الفرد اللعين ليجوز له فى قصيدة ثانية أن يقول ان الدستور جعل عصره دون عصر فؤاد ••

والقصيدة الثانية تحفة أدبية تخيل فيها الشاعر أن توت عنخ آمــون :

سافر أربعــين قــرنا عــــدها	حتى أتى الدار فألفى عندها
انجلتـــرا وجيشــها ولوردهــا	مسلولة الهندى تحمى هندها
قامت على السودان تحمى سدها	وركزت دون القنـــاة بنــدها
فقال والحسرة ما أشـــدها	ليت جدار القبر ما تدهدهــا
وليت عينى لم تفارق رقـــدها	قــم نبنى يا بنتئور ما دهــا
مصر فتـــاتى لم توقر جــدها	دقت وراء مضجعى جازبندها
وخلطت ظبــــاءها وأسدها	وسكب الســاقى الطــلا وبدها
قد سحبت على جـــلالى بردها	ليت جــلال الموت كان صدها

وهذا شعر يفسده الشرح وهو أيضا شعر لا يقوله غير شــوقى

امام الصياغة الشعرية وأصدق من تغنى بأمجاد النيل وفى هذه القصيدة نص شوقى على أن :

مصر الفتاة بلغت أشدها وأثبت الدم الزكى رشدها
ولعبت على الحبال وحدها وجربت أرخاءها وشدها
فأرسلت دهاتها ولدها فى الغرب سدوا عنده مسدها
وبعثت للبرلمان جندها وحشدت للمهرجان حشدها

ثم أشار الى معارضة المستر كارتر فى زيارة المقبرة فقال يخاطب الفرعون :

لحدك ودته النجوم لحدها أريتنا الدنيا به وجدها
سلطانها وعزها ورغدها وكيف يعطى المتقون خلدها
أبوابك اللائى قصدنا قصدها كارتر فى وجه الوفود ردها
لولا جهود لا نريد جحدها وحرمة من قربك استمدها
قلت لك اضرب يده وقدها وابعث له من البعوض نكدها

والقارىء يفهم انه يشيرالى البعوض الذى صرعاللورد كارنارفون وهو بعوض ظالم فقد حدثنا شوقى فى البائية أن اللورد كارنارفون أهدى الى توت عنخ آمون هدية أعظم من الهيرمين ، لأنه عرف به أمما لم يعرفها عصر الفراعين . ألم تكتب فيه عشرات البحوث فى بلاد الأمريكان ؟

خلاصة البحث :

قد فرغت من الكلام عن عيون الجزء الثانى أيضا من الشوقيات فى الحدود التى يسمح بها الوقت وقد سكت عن سينية شوقى (١)

---

(١) الموازنة بين سينية شوقى فى معارضة سينية البحترى فى هذا الكتاب .

فى معارضة سينية البحترى لأنى تحدثت عنها باطناب فى كتاب (الموازنة بين الشعراء) وانا أكره الحديث المعاد ..

أما بعد فما خلاصة هذا البحث ؟

هو اشارة ورموز لا ينتفع بها غير من يقرأ الشوقيات بامعان ، والنقد الأدبى توجيه لا تلخيص ، والله ولى التوفيق .

نقد باب النسيب

على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٥ سبتمبر سـنة ١٩٤٧ وتحت عنوان « أحمد شوقى أمير الشعراء » كتب زكى مبارك يقول:

« كنت أرسل الى البلاغ مقـالات من باريس فأرسلت ثلاث مقالات في نقد الجزء الثانى من الشوقيات، وكان الدكتور زكى حسن قـدمه الى لأطلع عليـه ، فلم يعجبنى باب النسيب فـكتبت تلك المقالات ..

ويمضى زكى مبارك فيقول : ولكن خطابا يصل بالبريد الجوى بخط الاستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول :

أن « شوقى » مريض ونقد شعره من كاتب فى مثـل منزلتك الأدبية يؤذيه وحين يعافيه الله من المرض سأنشر هذه المقـالات بنصها الاصيل »

وبعد ذلك نشرت تلك المقالات فى جريدة البلاغ عن « الغـزل فى شعر شوقى » فى شهرى يوليه وأغسطس سنة ١٩٣١ ، والشاعر شوقى مازال على قيد الحياة .. وهذه الصفحات نجدها فى الطبعة الثانية من كتاب زكى مبارك « البدائع » .

والآن مع زكى مبارك ونقد باب النسيب فى الشوقيات ..

الغزل فى شعر شوقى

رسائل ثلاث في نقد الغزل فى شعر شوقى كتبهـا المؤلف فى باريس فى شهر مارس ١٩٣١

— ١ —

تفضل أحد الأصدقاء المقيمين فى باريس نأعارنى الجزء الثـانى من الشوقيات ، فرأيت أن أنقد منه باب النسيب ، وانما اقتصرت على هذا الباب لأن أحد الكتاب كان وعد بنقد ذلك الديوان ، فمـن الخير اذن ألا يتكرر ما يكتب ، وان كان لكل منا مذهبه الخاص .

ولأقيد أولا أن «شوقى» مسئول عن ذلك الشرح الموجز الـذى ذيلت به الشوقيات ، فهو فى أغلب الاحيان شرح ضعيف وقد يتعدى الضعف أحيانا الى الغلط الشـنيع . ومن أمثلة ذلك التعليق على قـوله :

لو جلوا حسنك أو غنـوا به للبيـد فى الثمانين صـبا

فقد جاء فى الشرح ما نصه : هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذى قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة :

ان الثمـانين وبلغتهـا قد أحوجت سمعى الى ترجمان

وهذا خطأ يؤخذ به أمير الشعراء الذى ظل يراجع هذا الجـزء من ديوانه نحو خمسة أعوام أو تزيد ، فليس هذا البيت من شعر لبيد وانما هو من قصيدة لأبى محلم الشيبانى ــ ان لم تخنى الذاكرة ــ والقصيدة برمتها مثبتة فى الجزء الاول من أمالى القالى

ان شوقى يعرف رأيى فى شعره ، وقد أكون أول من أنصفه بين النقاد المعاصرين ، فهو اذن خليق بأن يفترض انى لا أتحامل عليه ان قلت ان أضعف الجوانب فى ديوانه هو باب النسيب .

لقد عتب على مرة لأنى لم أختر من شعره فى كتاب « مدامع العشاق » غير أربعة أبيات ، ولعله يفهم أن عذرى فى ذلك مقبول لأن شعره فى الغزل أضعف من أن يمس القلوب ؛ فضلا عن أن يفصح عن مدامع العشاق .

ان النسيب فى جملته يرجع الى عنصرين : الأول وصف ما يجد المحب من لوعة الشوق ، والثانى وصف ما فى المحبوب من الملاحـة والجمال ، ويمكن أن يقال ان شعر شوقى خال من أوصاف الوجـد المبرح لأنه عاش مقسم القلب ، موزع الاحساس . فكان ينتقل من حب الى حب ، ومن حسن الى حسن ، فلم يقع لذلك فى وقـدة الهجـر أو أسر الصدود .

ذلك اعتذارنا عنه ، لأننا نؤثر الرفق بشاعرنا المجيد ، ولـو آثرنا الصدق لصارحنا أمير الشعراء بأنه لم يكن من رقة القـلب ودقة الاحساس بحيث تتنزى كبده من الشغف المهلك بما رأت عينه من أسراب الملاح .

انها لفكرة ساذجة أن يظن أن الوجد المبرح لا يقع الا لمن يحبون فى قصد وفى عفاف ، هى فكرة ساذجة دافعت عنها فيما سلف . أما الواقع فهو أن الشاعر المرهف الاحساس يتزايد بلاؤه وشقاؤه كلما طال عهده بمواجهة الصباحة ومطالعة الجمال .

الشاعر أشقى الناس بشاعريته ، لأنه أعرفهم بخطر ما تبدع الطبيعة من أسباب الحسن والفتون ، وقد أتيح لشوقى أن يشهد من روعة الجمال ما يندر أن يتاح نظيره لرجل سواه ، ولكنه لم يقل شيئا عن القلوب التى أشقتها السعادة فى الحب ، ولم يتحدث عن آلام السعداء الأشقياء الذين يحترقون وهم فى كوثر الوصال .

انه لعزيز ان يدور شعراؤنا حول الحسن فلا يرون منه غير ماكان يرى الأقدمون : فحيرة الشاعر اليوم هى حيرة أسلافه منذ قرون ، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقيد . وهذا الحسن — ان لم يلطف الله — ماض فى الفتك بلفائف القلوب ، وقد جدت للارواح أزمات جديدة ، ومطامح جديدة ، لم يشق بها الأولون فليس من المغالاة فى شىء أن نصارح القراء بأن الغزل فى شعر شوقى وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما فى نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظمأ والالتياع .

وهذه المؤاخذة توجه الى الأدب فى جملته ، لأن قراء العربية فى هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم ، وجمدت مشاعرهم ، عن فهم ما فى هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية ، والاذكياء منهم جبناء يكتبون غير ما يشعرون ، وهذا هو السر فى انحطاط الادب العربى الحديث .. والا فأين فى مصر الشاعر أو الكاتب الذى استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال الى هدى ، أو من هدى الى ضلال .

آكثر الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون للعوام وأشـباههم من أدعيـاء الخواص ، وقد وقفت مطامح كثـير من حملة الأقـلام عند تلك الغايات الصغيرة ، وبذلك ظلت عقول الصفوة المختارة من مفكرى القراء فى حيرة داجية سوداء ، حيث لا يجدون من يترجـم عن ظمأ أرواحهم ، وهيام قلوبهم ، وقلق نفوسهم ، وكان الظن بمـن أغنـاهم الله وأراحهم من تكاليف العيش أن يقدموا الى الجمهور غذاءه الروحى والعقلى فى صورة أخاذة تلقى شيئا من النور فى طريق الأرواح الحائرة ، أو تلقى قبسا من الثورة فى أنفس من تغشاهم الخمود .

ولعل أفظع رزء منى به الشرق هو الغفلة عن تربية العواطف وغض الأبصار عن روائع الجمال ، ومصدر ذلك ــ فيما أظن ــ أنه يندر فى الشرق أن يكون شىء من الامر بيد الشباب : فنحن نعيش فى قيود وأغلال طرق حديدها جماعة من الحمقى البلداء الذين يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوى العقل واضح الفكر مضىء الادراك .

لنترك هذه الخواطر التى تقض بعض المضاجع، ولنأخذ فى الكلام عن غزل شـوقى :

لاحظت أن «شوقى» حين جمع ديوانه لم تسمح نفسه باغفال شىء من شعره القديم ، فتجـاور فى ديوانه التليـد والطريف ، والغث والسمين ، وأنا لا أكتم القراء أن هذه آفة الشعراء والكتاب جميعا فمن العسير على الشاعر أو الكاتب أن يتناسى شـيئا من منظومه أو منثوره ، وكل رجل منا حين يعود الى آثاره يقـع صريع الفتنـة والاعجاب ، وأكثر الذين جمعوا قصائدهم ورسائلهم قد تسامحوا مع أنفسهم : فقد يتفق أن يسوء رأى المرء فى احدى قصائده أو رسائله ولكنه مع ذلك بضعف فيرى فيها جوانب من الحسن تستحق الخلود .

وقد كانت لبشار بن برد مقطوعات سخيفة فسأله بعض أصدقائه

أن يهبها للنسيان ، فرفض ذلك محتجا بأن قصائد الشاعر كأبنائه يتساوى حظهم عنده من البر والاشفاق .

وقد أحرق البحترى جملة من أهاجيه حتى لا تكون بابا من الشر لابنه من بعده ، وعندى أن تلك جرأة عظيمة أن يتلف الرجل بعض آثاره مراعاة لمصالح الأهل والأقرباء وفى ظنى أن ذلك ما كان يقع لو قيل للبحترى : أحرق هذه الاهاجى لانها ضعيفة لا تستحق البقاء .

وانما أثبتنا هذه الملاحظة لنعتذر بها عن شوقى فهو فى رأينا أبعد نظرا من أن يخفى عليه ضعف الأبيات الآتية :

لا والقوام الذى والأعين اللاتى   ما خنت رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهمم ولا خطرت   بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب   وثغرك المتمنى كل حاجاتى

فليس فى هذه الأبيات من سمات الشعر غير الوزن والقافية ولكنه أثبتها فى الديوان لأنه قالها ، وكلام أمير الشعر يجب أن يظل على أى حال أمير الكلام ! والا فما هو القوام الذى ، وما هى الأعين اللاتى ؟ اللهم الا أن أن يريد أن يأتى بشاهد جديد لحذف صلة الموصول !

ثم ما معنى قوله :

وخاتم الملك للحاجات مطلب   وثغرك المتمنى كل حاجاتى

وكيف غابت عليه تفاهة كلمة « حاجات » فى مقام التشبيب ومن الغزل البارع جدا قول شوقى :

يا ناعما رقدت جفونه   مضناك لا تهدا شجونه
حمل الهوى لك كله   ان لم تعنه فمن يعينه
عد منعما أو لا تعد   أودعت سرك من يصونه
بينى وبينك فى الهوى   سبب سيجمعنا متينه

رشـأ يعـاب السـاحرو ن وسـحرهم الا جفـونه
الـروح مـلك يمينـه يفـديه ما ملكت يمينـه
مـا البـان الا قـده لوتيمت قلبـا غصـونه

هذه قطعة جميلة ، لم يضعف منها الا قوله :

رشـأ يعـاب السـاحرو ن وسـحرهم الا جفـونه

لأنه لا يكفى أن يقال : « السحر معيب ، ولكن سحر هـذه الجفون لا عيب فيه » والشاعر يعلم أن سحر العيون أسمى وأعز من أن ينزل الى توافه المشكلات • فهل يدرى القارىء ماذا أضاف شوقى الى هذه القطعة الجيدة ؟ لننظر كيف يقول :

ويـزين كـل يتيمـة فمـه وتحسـبها تزينه

فما معنى هذا ؟ معناه أن ثنايا المحبوب تزين اللآلىء ، على حين يظن أن اللآلىء تزينها •• وما نظن شوقى يقدر أن هذا معنى جميل • والخطأ وقع له من اختلاس قول بعض الأقدمين ولعله الحسين بن مطـير •

منعمة الأطراف زانت عقـودها بأجمل مما زينتهـا عقـودها

فان هذا الشاعر وقع على المعنى المقبول : لأن النحور قد تكـون أجمل وأروع من نفائس العقود • أما أن تكون الثنايا أجمل من اللآلىء التى تزدان بها فذلك خيال مقلوب •

ثم ما معنى قوله بعد ذلك :

مـا العمـر الا ليـلة كان الصـباح لهـا جبينه

وهناك أبيات كثيرة كان يستطيع شوقى اسـقاطها من الديوان ولكنه كما أشرت ضعف عن ذلك كأكثر الكتاب والشعراء وسـترى فى الأبحاث الآتية مبلغ ما وصل اليه فى فن النسيب •

٢

بين العاطفة والذكاء

لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القـــديم على افتتـــاح القصائد بالنسيب ، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب : فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام ، وهى بذلك أشبه بالموسيقى تتقــــدم الغناء ليثور قلب المغنى ويرهف احساسه للتلحين والتطـريب ، ومن مساويها أنها تفرض على الشاعر ما لا قبل له باحتماله من التغنى بعواطف قد تكون خمدت فى صدره منذ أزمان • على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم الى الاسفاف وحسب القارىء أن أذكر له أن من الشعراء الماضين من كان يفتتح قصائد الرثاء بالنسيب وذلك أغرب ألوان الشذوذ ، وقد أحصيت من هـــذا النوع عشرين شاهدا هى فى مذكراتى بمصر ، فليعذرنى القارىء ان اكتفيت بالاشارة اليها فى هذا الحديث •

وقد سلك شوقى هذا المسلك ، فباب النسيب فى ديوانه أخــذ أغلبه من طلائع مدائحه القديمة ، فهو فى جملته نسيب مصنوع غابت عنه العاطفة وصاغه الذكاء • وهو فى هذا يشارك جمهور شـــعراء اللغة العربية الذين اتخذوا النسيب حلية للقصائد بدون أن يفهموا أن الجمال من النفحات السماوية التى لاينبغى أن يشرك الشاعر بها أحدا من النـــاس •

الجمال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذه الشاعر وسيلة لقصائد المديح ، ولئن اغتفر للشعراء الأولين أن يتناسوا عظمة الجمال ويبتذلوه فى غير اشفاق فانه لا يغتفر لشوقى وقد درس ميسيه ولامرتين وفرلين أن لا يتقى الله فى لغته ويرحمها من ذلك الجدب الموحش الذى ابتليت به يوم كان الشعراء يتورعون فى جبن وغفلة وجمود عن التســبيح بحمــد الجمــال •

ومع هذا فلشوقي مقطوعات وأغان قليلة وهبها للحسن وحده وسنعود اليها فى الرسالة الآتية ، ولكنها لقلتها لا تسمو به الى منزلة معاصريه فى الأمم الاوربية ، ولا تلحقه بمن أجاد التشبيب من أسلافه كعمر بن أبى ربيعة والعباس بن الأحنف وأبى نواس وابن زيدون .

وقد عرض شوقي لتشطير بعض أبيات النسيب ، والتشطير والتخميس من الفنون المستحدثة فى الشعر العربى ، وهو عمل فنى لا أثر فيه للعاطفة وانما يرجع الى الذكاء . فلننظر كيف صنع شوقي مثلا فى قول أبى نواس :

يا ويح أهلى يرونى بين أعينهم   على الفراش ولا يدرون ما دائى

والقارىء فى غنى عمن يرشده الى روعة هذا البيت الجميل وقد حوله شوقي الى الصورة الآتية :

يا ويح أهلى أبلى بين أعينهم
ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى
وينظرون لجنب لا هدوء له
على الفراش ولا يدرون ما دائى

فان هذا التشطير لم يستقم لشوقي الا بحذف كلمة « يرونى » ووضع كلمة « أبلى » مكانها . ثم عاد فأتى بكلمة « وينظرون » فى البيت الثانى ليستقيم له الشطر الأخير وقد عاد المعنى مغلقا بعض الشىء حين تدخل شوقي لاتمامه ، وكان قبل ذلك غاية فى الرقة والوضوح .

ولشوقي بيت سائر وهو قوله :

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

وهو بيت يعجب به الناس ، وقد أشرت مرة الى أنه عرض فيه حوادث الحب على الطريقة السينمائية ، وهو فوق ذلك لا يمثل الحرائر

من الحسان ، وانما يمثل الساقطات اللائى تنبو عنهن العيون فى الحانات وما أظن شوقى ظفر بتلك السعادة مع فتاة نبيلة اللهم الا ان زعم أنـه كان (ايروس) العصر والأوان !

وقد فتن شوقى بالسلاسة التى كانت فى نصيب ذلك البيت فأراد أن يضيف اليه بيتا ثانيا لتتم بهما صور العشق فقال :

ففـــراق يكون فيــه دواء أو فراق يكون منه الداء

فأين هذا من ذاك ؟ ذاك بيت ألقت به السليقة فجاء غاية فى الاستواء . أما البيت الثانى فهو من آثار التكلف ، لأن الشـــاعر توهم أن الصورة تتم به ، وكانت النتيجة ما نراه من تنافر الأخوين .

فان كان شوقى فى ريب من صدق هذه الملاحظة فليحدثنا كيف صح له أن يقول بعد ذلك :

يوم كنـا ولا تسل كيف كنـا نتهادى فى الهـوى ما نشـــاء

فان ذلك وقع بالطبع بعد السلام والكلام وقبل الفراق !

وجاء فى الديوان ما نصـه :

وقال مشطرا حيث اجتمع بعض الأدباء فى مجلس فذكر أحدهم بيتا لابهاء زهير وهـو :

يقـول أناس لو وصفت لنـا الهوى
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصـف

فقـال :

يقول أناس لو وصفت لنـا الهـــوى
لعـل الذى لا يعـرف الحب يعـــرف
فقلت لقــــد ذقت الهـــوى ثم ذقتــه
فوالله ما أدرى الهـــوى كيف يوصف

وكان على شوقى أن يلاحظ أن بيت البهاء زهير هذا ليس من الجودة بحيث يستحق هذه العناية ، فان من السذاجة أن يتوجه الناس الى المحب قائلين : نسمع أنك تحب ، فهل لك أن تقول لنا ما طعم الحب وما لونه ؟ وأغرب من هذا وأدخل فى السذاجة أن يعلل شوقى وجاهة السؤال بقـوله :

لعل الذى لا يعرف الحب يعرفه

فهل من الحق أنه لو أمكن وصف الحب للناس أصبحوا محبين أم الأمر لا يخرج عن عبث الالفاظ ؟

وهناك قصيدة صنعها شوقى ليدل بها على ذكائه وانقياد النظم اليه ، فقد قال البارودى :

أتغلبنى ذات الدلال على صبرى ؟

ثم سكت . فرأى شوقى أن يكمل البيت هكذا :

اذن أنا أولى بالقناع وبالخدر

ثم مضى فأنشأ قصيدة طويلة من الوزن والقافية

وقبل نقد هذه القصيدة نسأل شوقى : هل كل مغلوب على صبره فى الحب خليق بالخدر والقناع ؟

لا أظن ؛ والا فهناك قصائد صرح فيها شوقى بأنه يائس مغلوب؛ والى القارىء القطعة الآتية :

وليل كأن الحشر مطلع فجـره … تراءت دموعى فيه سابقة الفجر
سريت به طيفـا الى من أحبها … وهل بالسهى فى حلة السقم من نكر
طرقت حماها بعد ما هب أهلها … أخوض غمار الظن والنظر الشزر
فما راعنى الا نساء لقيننى … يبالغن فى زجرى ويسرفن فى نهرى
يقلن لمن أهوى وآنسن ريبـة … نرى حالة بين الصبابة والسحر

اليكن جارات الحمى عن ملامتى وذرن قضاء الله فى خلقه يجرى
وأحرجنى دمعى فلما زجرته رددت قلوب العاذلات الى العذر
فساءلتها ما اسمى فسمت فجئننى يقلن أمانا للعذارى من الشعر

فقلت أخاف الله فيكن اننى
وجدت مقال الهجر يزرى بأن يزرى
أخذن بحظ من هواها وبينها
ومن يهو يعدل فى الوصال وفى الهجر

هذه أبيات فى غاية الانسجام ، ولأجل هذا أثبتها شوقى فى الديوان ، ولكن ما معناها ؟

الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة ، قاهرية بالطبع ، لأن هذا من شعره القديم ، وللقاهريات تقاليد فى الصيانة والعفاف . ومع هذا طرق حماها بالليل فهب أهلها مذعورين ، وأحاط به النساء يزجرنه وينهرنه ، ثم توجه أولئك النساء الى محبوبته يسألنها ما شأن هذا الزائر ؟ وهنا أجهش الشاعر فى البكاء فخمدت حمية النساء وسألن الفتاة عن اسمه فقالت شوقى ! ولم تكد تلفظ هذا الاسم الكريم حتى تساقط النساء متخاذلات واهنات يطلبن من الشعر الأمان ! وفى هذا الموقف كان الشاعر كريما ، فقد طمأنهن قائلا انه يخاف فيهن الله !!

ان هذه الصورة المنكرة لا تقع فى حى وضيع الا موسومة بسقم الذوق ، فكيف صح وقوعها فى مدينة القاهرة قبل ثلاثين عاما !!

كل هذا لم يكن ، ولكن شوقى أراد أن يتكلم ، فليكن ما أراد لأنه يقول للشعر كن فيكون .

وعلى القارىء أن يروض نفسه على الاقتناع بأن نساء القاهرة كانت شمائلهن من هذا الطراز : ولو فى خيال أمير الشعراء !!

٣

نجوى القلب

شوقى شاعر محسود ، فقد ملأ جميع الأسماع وأشجى كثيرا من القلوب ، وقد أتيح له أن يظل زعيم الشعراء أكثر من أربعين عاما ، وهى زعامة حقة لا يمترى فيها الا المكابرون • وكم شقى خصومه فى هدمه وهو على الزمن لا يصنع فيه النقد المغرض الا كما يصنع المطر من متين الحصون، لاتسأل عن السر فى عظمة شوقى لأنالشعر فى أكثر الاحيان من النفحات الالهية التى لا تنال بالجد وعرق الجبين ، فليس هو بأعلم معاصريه ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود وقد أفصح عن ذلك أبدع افصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شـــأنى	أنا أســـمو الى نباهة شـانه
كان بالسبق والميـــادين أولى	لو جرى الحظ فى ســواء عنانه
انما أظهــروا يد الله عنـــدى	وأزاعوا الجميل من احسانـــه
ما الرحيق الذى تذوقون من كر	مى وان عشت طائفـــا بدنانه
وهبونى الحمــام لذة ســـجع	أين فضــل الحمـام فى تحنانه
وتـــر فى اللهـــاة ما للمغنى	من يد فى صـــفائه وليـــانه

وكذلك يجيد شوقى حين يسلم خياله الى فطرته الجيدة ، ويسف حين يتكاف ويتصنع ، لأنه لا يتقن الصنعة الا الشعراء المحـــرومون من هبـــات الروح •

وقد راجعت ما قال شوقى فى النسيب فكان أكثر ما شـــاقنى عنده نجواه لقلبه وقد ودع أحلام الشباب ، وكلمة الشباب لها فى شعر شوقى وفى حياته معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم الا من عاشوا كما عاش ، أو رزقوا من رقة الحس ما يتوهمون به كيف كانت حياة مثله بين فتن المال والجمال والشباب •

وشوقى رجل ألقى فى غيابات الماضى أطيب الأحـــلام والأوهام

فهو اليوم يعيش تحت أثقال السنين ، ولكن كاهله لا يزال قويا ولا يزال يقول : هات ما عندك يا زمان ؛ ولا يزال فى ذلك الجسم قلب حساس يفيض بأقوى العواطف والمشاعر والأحاسيس .

غير أن «شوقى» أذكى من ذلك ، فهو يعلم علم اليقين أنه لا يأسر الجمال بصباه كما كان يفعل فى أيامه الخوالى ، وانما ينقاد الجمـــال اليه لأن شهرته طبقت آفاق الأقطار العربية ، وطبعت اسمه فى صدور الناطقين بالضاد . كل هذا جعل شوقى من أشعر الناس حين يتحـــدث عن هزيمته فى الحب ، وكان لا يعرف الهزائم فى ذلك الميدان فيارحمة الله لقائد قضى عمره بين أكاليل النصر ، ثم كتب عليــه أن يشـــهد فى آخر أيامه وقائع الاخفاق ؛

والى القارىء نجوى شوقى لقلبه وقد تقطعت حبائله فى أودية الجمـــال :

شيعت أحـــلامى بقلب باك ... ولمت من طرق الملاح شباكى
ورجعت أدراج الشـباب ورده ... أمشى مكانهمـا على الاشـواك
وبجانبى واه كأن خفـــوقه ... لما تلفت جهشـــة المتبـاكى
شاكى السلاح اذا خلا بضلوعه ... فـاذا أهيب به فليس بشـــاك
قـــد راعه أنى طويت حبـائلى ... من بعد طـــول تناول وفـــكاك
ويح ابن جنبى كل غاية لـــذة ... بعد الشـــباب عزيزة الادراك
لم تبـــق منـــا يا فؤاد بقيـــة ... لفتـــوة أو فضلة لعـــراك
كنـــا اذا صفقت نستبق الهوى ... ونشد شـــد العصـبة الفتـــاك
واليوم تبعث فى حـــين تهـــزنى ... ما يبعث النـاقوس فى النســاك

والى القارىء قوله يخاطب قلبه من كلمة ثانية :

صحا القلب الا من خمـــار أمانى ... يجاذبنى فى الغيـــد رث عنـــانى
حنانيك قلبى هل أعيد لك الصبا ... وهل للفتى بالمستحيل يـــدان
تحن الى ذاك الزمان وطيبـــه ... وهل أنت الا من دم وحنــــان

اذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة ولم تذكر الفا فلست جنـــانى
اتذكر اذ نعطى الصبابة حقهــا ونشرب من صرف الهوى بدنان
وأنت خفــوق والحبيب مبــاعد وأنت خفــوق والحبيب مــدان
وأيام لا آلو رهــانا مع الهوى وأنت فــؤادى عند كل رهــان
لقد كنت أشكو من خفوقك دائبا فولى فيــالهفى على الخفقان
متاك التصابى بعد ما علك الصبا فكيف ترى الكأســين تختلفان
وما زلت فى ريع الشباب وانما يشيب الفتى فى مصر قبل أوان
ولا أكذب انبارى بنى الله هيكلى صنيعة احسان ورق حســان
أدين اذا اقتاد الجمال أزمتى وأعنو اذا اقتــاد الجمال عنانى

والفرق بين القطعتين واضح ، فالأولى قوية تزخر بالحياة لأن الشاعر ألقى بها وهو واجد محزون ، أما الثانية فوسط بين الجيـد والردىء لأن الشاعر قالها وهو شاب يتكلف سآمة الشيوخ ليثبت أن الفتى يشيب فى مصر قبل أوان المشيب والضعف ظاهر فى قوله:

أتذكر اذ نعطى الصبابة حقها ونشرب من صرف الهوى بدنان

وقوله :

وأيام لا آلو رهانا مع الهـــوى وأنت فؤادى عند كل رهــان

والفتور ملموس فى قــوله :

وأنت خفوق والحبيب مبـــاعد وأنت خفوق والحبيب مـــدان

على أنه اختلس هذا المعنى من قول بعض الأقدمين :

وما فى الأرض أشــقى من محب ولو وجــد الهوى حلو المذاق
تراه باكيـــا فى كل حــال مخـافة فرقة أو لاشــتياق
فيبـــكى ان نأوا شــوقا اليهم ويبكى ان دنوا خــوف الفراق
فتسخن عينيه عنــد التنــائى وتسخن عينه عنــد التــلاقى

وفى القطعة الثانية عيب آخر وهو التناقض فى عرض نفســية

الشاعر، فهو يحدثنا أولا أنه ودع عهد الشباب ويذكر أن رد الصبا من المستحيل ، ثم يعود فيذكر أنه لا يزال فى ربع الشباب وان الله بنى هيكله صنيعة احسان ورق حسان ، فهو فى أول القطعة ينـدب شبابه: وهو فى آخرها يتغزل فى نفسه فيذكر أن قوامه كالغصن الرطيب ! وفى هذه الحيرة الفنية دليل على أن الشاعر لا يعنى ما يقول

ولننظر كيف يخاطب قلبه من كلمة ثالثة :

أرقت وعادتنى لذكرى أحبتى شجون قيـام بالضلوع قعـود

ومن يحمـل الأشـواق يتعب ويختلف
عليـه قديم فى الهـوى وجـديد

لقيت الذى لم يلق قلب من الهـوى
لك الله يـا قلبى أأنت حـديد

وهذا شعر لابأس به ولكن ما معنى قـوله :

لك الله يا قلبى أأنت حديد ؟

انا نظن أن هذا التعبير لا يخلو من ابتذال

ومن الانصاف أن نذكر أننا نستجيد من هـذه القصيدة القطعة الآتيـة :

وروض كما شاء المحبون ظله لهم ولأسرار الغرام مـديد
تظللنا والطـير فى جنبـاته غصون قيـام للنسيم سجود
تميل الى مضنى الغـرام وتارة يعارضها مضنى الصبا فتحيـد
مشى فى حواشيها الأصيل فذهبت وماس عليها الحلى وهى تميد
وقامت لديها الطير شتى : فآنس بأهل ومفقود الأليف وحيـد
وباك ولا دمع وشاك ولا جـوى وجذلان يشدو فى الربى ويشيد
وذو كبرة لم يعط بالدهر خبرة وعريان كـاس تزدهيـه مهود
غشيناه والأيام تنـدى شـبيبة ويقطر منها العيش وهو رغيـد
رأت شـفقا ينعى النهار مضرجا فقلت لها حتى النهـار شـهيد

فقالت وما بالطير ؟ قلت سكينة فمـا هى ممـا نبتغى ونصـيد
أحل لنا صيدان : يوم الهوى مها ويوم تسـل المرهفـات أسـود
يحطـم رمح دوننا ومهنـد ويقتلنا لحظ ويأسر جيـد
ونحكم حتى يقبل الدهر حكمنا ونحن لسلطان الغرام عبيـد

وهذا من الشعر البارع الجيد السبك وان كنا ننكر عليه البيتين الأخيرين ، لأن شوقى لم يكن يوما من رجال السيف ، حتى يصـطاد المها فى يوم الهوى ويصطاد الاسود فى يوم الجلاد ، وهو قد سرق هذا المعنى من عبد الله بن طاهر اذ يقـول :

نحن قـوم تذيبنا الأعين النجـ ـل على أننـا نذيب الحـديدا
وترانا عنـد الكريهـة أحرا رأ وعند الغـوانى عبيـدا

وعبد الله بن طاهر يقول ويفعل : لأنه كان من كبار القواد ومن أقدر الناس على مقارعة الهيجاء ، فى حين أن شوقى حدثنا فى مقدمته القديمة للشوقيات أنه كان يجتاز ميدان عابدين على ظهر أتان !

الجزل والرقيق :

شوقى يؤثر الرقيق على الجزل فى الغزل والنسيب ، ولا عيب فيه الا أنه كما قيل يسيل رقة حتى يصل الى النعومة واللين ، والى القارىء هذه الأبيات :

يا حسنه بين الحسـان فى شكله ان قيـل بـان
كالبـدر تأخـذه العيـو ن وما لهـن به يـدان
ملك الجـوانح والفـؤا د ففى يديه الخـافقان
ومنـاى منـه نظـرة فعسى يشـير الحـاجبان
فعسى يـزكى حسـنه من لا له فى الحسن ثان
فدعـوه يعـدل أو يجو ر فانـه ملك العنـان
حـق الـدلال لمـن لـه فى كـل جـارحة مـكان

والتعبير عن ذلك المحبوب بأنه « حسن في شكله » من التعابير العامية ، ولكن لا بأس فلعل ذلك الظبي كان يلعب في الحارة حينذاك.

وزكاة الحسن ما موضعها هنا ؟ ان الشاعر يجارى بعض المتقدمين في هذا المعنى ، وكان ينبغي أن يلحظ أن هذا من أخيلة الفقهاء .

ونشوقي قطعة رقيقة قالها في بعض الناس ووهبها للغناء ، وهي

منك يا هاجر دائي	وبكفيك دوائي
يا منى روحي ودنيا	ى وسؤلي ورجائي
أنت ان شئت نعيمي	واذا شئت شقائي
ليس من عمري يوم	لا ترى فيه لقائي
وحياتي في التداني	ومماتي في التنائي
نم على نسيان سهدي	فيك واضحك من بكائي
كل ما ترضاه يا مولا	ى يرضاه ولائي
وكما تعلم حبي	وكما تدري وفائي
فيك يا راحة روحي	طال بالواشي عنائي
وتواريت بدمعي	من عيون الرقباء
أنا أهواك ولا أر	ضى الهوى من شركائي
غرت حتى لترى أر	ضى غيري من سمائي
ليتني كنت رداء	لك أو كنت ردائي
ليتني ماؤك في الغلـ	ـة أو ليتك مائي

وهذا شعر مقبول ، ولكن هل يستطيع شوقي أن يدلنا على بيت واحد فيه شيء من الابداع ؟ وما باله يرضى بأن يقدم للغناء هذه المعاني التي رددها مئات الشعراء ؟

وهناك قصيدة أجزل من هذا وهي التي يقول فيها :

وقالوا فى البـديل رضا وروح   لقـد رمت البديل فرمت صـعبا
وراجعت الرشاد عساى أسلو   فما بالى مع السلوان أصبى
اذا ما الكأس لم تذهب همومى   فقـد تبت يـد الساقى وتبا
على أنى أعف من احتسـاها   وأكرم من عذارى الدير شربا

وهى قصيدة أكثرها مستجاد ، وانما نقلنا هذه الأبيات لنسأل شـوقى عن معنى قـوله :

اذا ما الكأس لم تذهب همومى   فقد تبت يـد السـاقى وتبـا

لأننا لا نفهم موجب هذه الدعوة البشعة فى الشطر الاخير وما ذنب الساقى اذا تحجرت نفس الشارب فى حضرة الصهباء ؟ وقد نفهم أن يكون شوقى أعف من احتسى الراح ، ان كانت تبقى على عفاف ، ولكننا لا ندرى كيف رأى أن يحدثنا أنه أكرم من عذارى الدير شربا !! لقـد كان أولى للشاعر أن يذكر أنه أقسى الشاربين فتكا ، لا أنه أكرم شربا من العذارى المتبتلات ، فان الراح لا تثير معانى الحنان الا فى النفوس الضعاف ؟

ثم ما قيمة قوله فى كلمة أخرى :

حبتك ذات الخال، والحب حالة   اذا عرضت للمرء لم يدر ماهيا
وانك دنيا القلب مهما غـدرته   أتى لك مملوءا من الوجد وافيا
وبين الهوى والعذل للقلب موقف   كحالك بين السيف والنار ثاويا
وبين المنى واليأس للصبر هزة   كخصرك بين النهد والردف واهيا

ويا ليت الشاعر أسقط أمثال هذه الأبيات من الديوان
وما قيمة قوله أيضا يستعطف محبوبته :

فحسب خدى من عينى ماشربا   فمثل ما قـد جرى لم تلق عيناى

وأين وجه الحسن فى قوله :

يا من هجرت الى الأوطان رؤيتها فرحت أشوق مشتاق لأوطـــان
أتذكرين حنينى فى الزمان لها وسكبى الدمع من تذكارها قانى
وغبطى الطير ألقـــاه أصيح بـــه ليت الكريم الذى أعطاك أعطانى

وبعد فقد كانت هذه الرسائل الثلاث تذكرة للقـــارىء بما فى باب النسيب من مواطن القوة والضعف ، أردنا بها توجيه الأنظـــار الى الجزء الثانى من الشوقيات ، ونحن أبعد الناس عن التحامل على بلبـــل النيل الذى يقول :

وقلت له صبرا فكل أخى هـــوى على يد من يهوى غدا ســـيتوب

أحمد شوقي

والموازنة بينه وبين بعض الشعراء

عرفنا أن للشاعر أحمد شوقى حظ عظيم من عناية زكى مبارك، وان الصلة التى توطدت بين الاثنين فى يوم من الايام وفترت بعد ذلك ، لم تمنع زكى مبارك من ان يظل مشغولا بأحمد شوقى ، فنقد الشوقيات وكتب عن الغزل فى شعر شوقى .

ويقول زكى مبارك : « شوقى معروف فى مصر والشرق ، وهو خبير بأسرار اللغة العربية ، وبصير بشئون الحياة ، وله كلف بمعارضة القدماء » ولهذا فقد رأينا زكى مبارك يوازن بين الشاعر شوقى وبين الشعراء الحصرى والبحترى والبوصيرى ، والبارودى ، وابن زيدون.

ونحن نرى أن شوقى عارض الحصرى فى قصيدته الدالية :

يا ليل الصب متى غده ؟

حين نظم شوقى داليته :

« مضناك جفاه مرقده »

وان شوقى حين نظم قصيدته السينية فى وصف قصر الحمراء كان يعارض بها سينية البحترى فى وصف ايوان كسرى .

يقـول البحترى :

صـنت نفسى عمـا يدنس نفسى
وترفعت عن نـدى كـل جبس

ويقول شـوقى :

اختـلاف النهـار والليـل ينسى
اذكـروا لى الصـبا وأيام أنسى

وللبوصيرى قصيدته المشهورة « البـردة » والتى يسـتهلها بقـوله :

أمن تذكر جـيران بذى سـلم
مزجت دمعا جرى من مقـلة بـدم

ويعارضها شـوقى بقصيدته المشـهورة أيضا « نهج البردة » فيقـول :

ريم على القـاع بين البان والعلم
أحل سـفك دمى فى الأشـهر الحرم

(وللبارودى قصيدة اسمها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » يقول البارودى فى مطلعهـا :

يا رائد البـرق يمم داره العـلم
واحد الغمـام الى حى بذى سـلم

والقصيدة طويلة وفيها أيضا وصف للبارودى للغار الذى أوى اليه النبى صلى الله عليه وسلم مع الصديق ، فيقـول البـارودى بين ما يقـول :

وجـاءه الوحى ايذانا بهجـرته
فيمم الغـار بالصديق فى الغسـم

والتى عارضها البوصيرى :

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم

ويعارضها شوقى فى ميميته قائلا :

سل عصبة الشرك حول الغار حائمة
لولا مطاردة المختار لم تحم

ثم هناك نونية ابن زيدون المشهورة :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهناك معارضة شوقى لابن زيدون فى قصيدته النونية المشهورة أيضا :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

والآن مع زكى مبارك ونقده الممتع فى الموازنة بين الشاعر أحمد شوقى والشعراء الذين عارضهم الشاعر أحمد شوقى •

الحصرى وشوقى

ندخل فى بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل : وهـو الموازنة بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والمماثلة ، كما فعل ابن المعتز فى معارضة الحسين بن الضحاك وابن عبد ربه فى معارضة مسلم بن الوليد وابن دراج فى معارضة أبى نواس ، والبارودى فى معارضة أبى فراس ، الخ ..

ولهذا البحث أهمية كبيرة ، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة وسيرينا كيف تتصاول العقـول ، وكيف تتسابق القرائح ، اذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعا من السباق فى عالم البيان .

ولنبدأ بالموازنة بين دالية الحصرى (١) « ياليل الصب متى غده» ودالية شوقى « مضناك جفاه مرقده » فان لهاتين القصيدتين أثرا فى أندية الأدب ومجالس الغناء ، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن ، ومظان الضعف ، وان نبين : أى الشاعرين أبرع لفظا وأشرف معنى واسمى خيالا .

والحصرى (٢) ـ بضم الحاء المهملة ، وسكون الصاد المهملة .

---

(١) الموازنة بين الشعراء للدكتور زكى مبارك الطبعة الثانية صفحة ١٠٩ .

وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى المقرىء الضرير القيروانى ، وهو ابن خالة ابى اسحاق الحصرى صاحب كتاب زهر الآداب ، وقد ذكر ابن بسام فى الذخيرة ان ابا الحسن الحصرى كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، وانه طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق معمور الطريق فتهاداه ملوك الطوائف تهادى الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالانس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك فاحتمل على مضض بين زمانه وبعد قطرة ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف وتوفى بها رحمه الله سنة ٤٨٨ .

وله قصيدة طويلة فى قراءات نافع ، وله ديوان شعر (٣) وهو القائل :

أقول له وقد حيا بكأس لها من مسك رقته ختام
أمن خديك تعصر قال كلا متى عصرت من الورد المدام

ويقول ابن بسام فى وصفه « على انه كان فيما بلغنى من ضيق العطن ، ومشهور اللسن ، يتلفت الى الهجاء تلفت الظمآن الى الماء »

وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد ، فان كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن ، وأين الظن من اليقين .

ويمكن الحكم بأنه كان خبيرا باسرار اللغة العربية ، فان التأليف فى علم القراءات يدل على ذلك ، ويمكن الحكم أيضا بأنه كان بصيرا

---

(٢) ذكر ابن خلكان انه منسوب الى الحصر التى تفرش وقد حدثنا السيد حسنى عبد الوهاب أنه منسوب الى الحصر وهى قرية قديمة بالقرب من القيروان .

(٣) راجع وفيات الأعيان .

شؤون الحياة فان فى الاغتراب وصحبة الملوك عونا على فهم دقائق الوجود .

أما شوقى فشاعر معروف فى مصر والشرق وله كلف بمعارضة القدماء وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية وبصير بشؤون الحياة وهو كالحصرى افتتح قصيدته بالنسيب واختتمها بالمديح ولكنى سأقتصر فى الموازنة على صدر القصيدتين ، اذ كان النسيب هو السبب فيما يرجى لهما من الخلود ، ان كان لهذا العالم حظ فى الخلود :

قصيدة الحصرى

يا ليل الصب متى غده	أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقه	أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له	مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذى هيف	خوف الواشين يشرده
نصبت عيناى له شركا	فى النوم فعز تصيده
وكفى عجبا أنى قنص	للسرب سبانى أغيده
صنم للفتنة منتصب	أهواه ولا أتعبده (١)
صاح والخمر جنى فمه	سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفا	وكأن نعاسا يغمده
فيريق دم العشاق به	والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت	عيناه ولم تقتل يده
يا من جحدت عيناه دمى	وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمى	فعلام جفونك تجحده
انى لأعيذك من قتلى	وأظنك لا تتعمده

(١) الصنم هو التمثال ولا تزال هذه الكلمة على السنة أهل المغرب وان كانت فى مصر مما ينكر الذوق .

بالله هب المشتاق كرى   فلعل خيالك يسعده
ما ضرك لو داويت ضنى   صب يدنيك وتبعده
لم يبق هواك له رمقا   فليبك عليه عوده
وغدا يفضى أو بعد غد   هل من نظر يتزوده
يا أهل الشوق لنا شرق   بالدمع يفيض مورده
يهوى المشتاق لقاءكم   وصروف الدهر تبعده

ما أحلى الوصل وأعذبه   لولا الأيام تنكده
بالبين وبالهجران فيا   لفؤادى كيف تجلده

قصيدة شوقى

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه   مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الا رمقا   يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوهه   ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه   ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة   شجنا فى الدوح تردده
كم مد لطيفك من شرك   وتأدب لا يتصيده
فعساك بغمض مسعفه   ولعل خيالك مسعده
الحسن حلفت بيوسفه   والسورة أنك مفرده
قد ود جمالك أو قبسا   حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعة   يدها لو تبعث تشهده
جحدت عيناك زكى دمى   أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودى اذ رمتا   فأشرت لخدك أشهده
وهممت بجيدك أشركه   فأبى واستكبر أصيده

وهززت قــوامك أعطفـــه فنبا وتمنـــع أملـــده
سبب لرضاك أمهـــده ما بال الخصر يعقـــده
بيني في الحب وبينك ما لا يقدر واش يفســـده
ما بال العـــاذل يفتح لى باب السلوان وأوصـــده
ويقول تكـــاد تجـن بـه فأقول وأوشــك أعبــده
مولاى وروحى في يــده قد ضيعها سلمت يــده
ناقوس القلب يــدق لــه وحنــايا الأضــلع معبــده
حســادى فيــه أعــذرهم وأحق بعــذرى حســـده
قســـما بثنايا لــؤلؤهـــا قسم اليـــاقوت منضده
ورضـــاب يوعــــد كوثره مقتـــول العشـــق ومشهده
وبخـــال كاد يحج لـــــه لو كان يقبـــل أســـــوده
وقوام يروى الغصن لــه نســـبا والرمح يفنـــده
وبخصر أوهن من جـلدى وعوادى الهجـــر تبـــدده
ما خنت هواك ولا خطرت ســـلوى بالقــلب تبرده

الموازنة

ولنذكر أولا ما في القصيدتين من الأغراض ، وانا لنجد الحصرى تكلم عن طول الليل . وطيف الخيال وخمر الرضاب ، وسيف المقـلة : وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفنـاء المحب ، ونجد شوقى تكلم عن لوعة المضنى ، وطيف الخيال . وجمال المحبوب وجناية العين ، وحسن القد والجيد ، ودقة الخصر، والصبر على الوشاة وتفدية الحبيب ، والرفق بالحســاد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان ، فقصيدة شـوقى اذن أحفل بالأغراض .

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع ، وانا لنجد الحصرى يقول :

يا ليل الصب متى غده   أقيام انساعة موعده
رقد السمار وأرقه   أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له   مما يرعاه ويرصده

ونجد شوقى يقول :

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه   مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الا رمقا   يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوهه   ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه   ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة   شجنا فى الدوح ترديده

والمطلع فى رأينا هو أول صورة شعرية لا أول بيت ، ومطلع شوقى أوفى وأروع من مطلع الحصرى وخطاب الحبيب فى قول شوقى .

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحم عوده

أرق من خطاب الليل فى قول الحصرى .

يا ليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده

وقول الشاعر شوقى فى حيرة المحب وعذابه وفنائه :

حيران القلب معذبه   مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الا رمقا   يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوهه   ويذيب الصخر تنهده

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصرى :

رقد السمار وأرقه   أسف للبين يردده

وقول شوقي :

وينـاجي النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعده

أقرب في صدره الى الواقع من قول الحصرى .

فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

وقول الحصرى فى تصيد الطيف :

نصبت عيناى له شركا فى النوم فعز تصيده

وكفى عجبا أنى قنص للسرب سبانى أغيده

أبرع من قول شوقى :

كم مد لطيفك من شرك وتأدب لا يتصيده

فعساك بغمض مسعفه ولعل خيالك يسعده

لأن الحصرى حدثنا عن حقيقة صادقة وهى تمنع الطيف ـ فليس فى طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مد له الأشراك ..

ولا يعجبنى تأدب شوقى فى قوله :

كم مد لطيفك من شرك وتأدب لا يتصيده

لأن التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن وان الحسن لمهيب الجناب (١) .

ويروقنى قول شوقى :

مولاى وروحى فى يده قد ضيعها سلمت يده

ناقوس القلب يدق له وحنايا الأضلع معبده

حسادى فيه أعذرهم وأحق بعذرى حسده

---

(١) هذه اللفتة تذكر بقول الشاعر :

حمى نفسه الحسن اضعاف ما حمى نفسه الجمر لما التهب

فان فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه • فى ظلمه وعدوانه ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون صلاة للحسن ، ان قضى الله أن نصلى له ، كما يصلى فريق للشمس عند الشروق ، والهوى — كما قيل — اله معبود•

وما أرفق شوقى وأرقه حين يقول :

قد ود جمالك أو قبسا   حوراء الخلد وأمرده

فان الحسن لا يعبد بأرق من هذا الوصف ، وهل العبادة الا وصف المعبود بالتفرد والجلال •

وقول الحصرى :

صاح والخمر جنى فمه   سكران اللحظ معربده

أروع وأبدع من قول شوقى

ورضاب يوعد كوثره   مقتول العشق ومشهده

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين ، فان بيت الحصرى بيت نادر المثال ، وفيه وحده صورة شعرية رائعة • وما رددته الا فتنت به فتنة جديدة وظهر لى منه معنى جديد كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه • ولا حد لقدرته على تصريف القلوب •

ولك أن تتأمل كلمة « جنى » فى قوله :

صاح والخير جنى فمه   سكران اللحظ معربده

وما هذه العربدة يا صاح ؟ انها الاشراك التى يقيدك بها اللحظ ، وأنت تنهل من ورده العذب الجميل ••

وقول شوقى :

جحدت عيناك زكى دمى   أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودى اذ رمتا   فأشرت لخدك أشهده

أرق من قــول الحصرى :

يا من جحــدت عيناه دمى وعــلى خـــديه تورده
خــداك قد اعتــرفا بدمى فعــلام جفــونك تجحده

لأن الاستفهام فى قول شوقى أعطى المعنى شيئا من الحسن ، وزاده تمكينا فى النفس ، على ما فيه من الابتذال ..

وقد أجاد الحصرى فى استعطاف الحبيب اذ يقــول :

لم يبق هــواك له رمقــا فليبـــك عليـــه عوده
وغــدا يقضى أو بعد غد هل من نظــر يتـــزوده

ولا نجد هذه النغمة المحزنة فى قصيدة شوقى وانها لتذكرنا بهذا البيت الحزين :

وأرى الأيام لا تدنى الذى أرتجى منــك وتدنى أجلى

مظان الضعف

وانى لاستثقل الصنم المنتصب فى قــول الحصرى :

صنم للفتنـــة منتصب أهــواه ولا أتعبـــده

لأن كلمة « الصنم » كلمة غـــير شـــعرية والعرب تستملح « الدمية » فى وصف المرأة الجميلة والدمية هى الصورة المنشـــقة من الرخام والجمع دمى ، قال بعض الأعراب :

وانى لأهــدى بالأوانس كالدمى وانى بأطراف القنــا للعــوب
وانى على ما كان من عنجهيتى ولوثــة أعــرابيتى لأديب

وكذلك استضعف قول الحصرى .

ما أحلى الوصــل وأعــذبه لــولا الأيــام تنــكده
بالبين وبالهجـــران فيا لفــؤادى كيف تجــلده

وأضعف منه قول شوقى :

بينى فى الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى باب السلوان وأوصده

ولا أدرى ما قيمة التعجب فى البيت الثانى من هذين البيتين . وهو لا يزيد شيئا عن صوت العامى المشهور « كيد العواذل كايدنى بس اسمع شوف »

وكذلك لا قيمة لقوله :

وبخصر أوهن من جلدى وعوادى الهجر تبدده

وهى مبالغة مردودة لأن الذى يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادى الصدور .

وقد ظلم شوقى نفسه حين قال :

وقوام يروى الغصن له نسبا والرمح يفنده

كما أساء الحصرى الى شعره اذ قال :

انى لأعيذك من قتلى وأظنك لا تتعمده

فان هذا خيال فقهاء لا خيال شعراء ..

روعة الخيال

وانه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصرى وشوقى من الخيال الرائع وأنا لنستجيد قول الحصرى :

ينضو من مقتله سيفا وكأن نعاسا يغمده
فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده
كلا لاذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

وان البيت الأول لمن وثبات الخيال ، وفى البيت الثانى ضعف، والثالث مع ضعفه مستملح مقبول ..

ونستجيد كذلك قول شوقى :

ناقوس القلب يدق له   وحنايا الأضلع معبده

وللقارىء أن يلومنا فى استجادة هذا البيت ، وان يذكر أن هذا أيضا خيال فقهاء ، لا خيال شعراء ، ولنا ان نذكر القارىء بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ التى استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو وملاعب الشباب ، ولهم فى الأديار شعر ممتع عنيت بتفصيله فى غير هذا الحديث وكذلك ظرف شوقى حين تحدث عن المعبد والناقوس وكان خياله قريبا من الحسن من خيال الحصرى ، اذ توهم للحظ سيفا يكاد يغمده النعاس ، وانى لمفتون بهذا الخيال .

البراعة فى تناول المعانى

وانا لنرى شوقى أبرع من الحصرى فى تناول المعانى ، ومن السهل أن نعلل هذا .. فان الحصرى لم يجر فى قصيدته الا على الفطرة وكان من ذلك أن رضى بعفو الخاطر أما شوقى فمعارض من همه أن يظفر بالسبق . وكان من ذلك أن عنى بترتيب المعانى واختيار الالفاظ وتنوع الاغراض . على أن هذا التكلف لم يمض بلا عيوب فانه لا معنى لقول الشاعر شوقى :

وبخال كاد يحج له   لو كان يقبل أسوده

ولا رونق لقوله :

وتمنت كل مقطعة   يدها لو تبعث تشهده

الحكم

وللقارىء — ان شاء الحكم — أن يرجع الى ما أسلفنا القــول عنه من مواطن الحسن ومظان الضعف • ومواقع الخيـال : ليرى أى الشاعرين أولى بالسبق ، وأيهما أرجح فى الميزان • وحسبه أن دللناه على ما فى القصيدتين من المحاسن والعيوب • فاننا لا نعنى بالأشخاص وانما يعنينا أن ندرس الشعر • وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف والحسن والقبح • وكذلك ندرس البيان • ونحن نوازن بين الشعراء •

البحترى وشوقى

قلنا ان لشوقى كلفا بمعارضة المتقدمين من الشعراء ووازنا بين داليته ودالية الحصرى فى الكلمة السابقة ، والآن نوازن بينه وبين البحترى فقد عارض سينيته فى وصف ايوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء • ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة ، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة ، ليقف القارىء على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان •

ولنذكر أولا أن شوقى يتأثر بالبحترى منذ زمن بعيد • ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية ، التى ضربت بها الأمثال •

ولننظر كيف يقول فى خطاب « أم المحسنين »

النيل فجر مشرعين وعيلما ... وتفجرت يمناك خمسة أبحر
أحييت فى فضل الملوك وعزهم ... ما مات من أم الخليفة جعفر
ان الذى قد ردها وأعادها ... فى بردتيك أعاد فى البحترى

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء :

وعظ البحترى ايوان كسرى ... وشفتنى القصور من عبد شمس

حيـاة البحترى

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى فى سنة ٢٠٦ بمنبج بين حلب والفرات • ومنبج ـ بالفتح ، ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم ـ بلد قديم طيب الهواء • ولد فيه جماعة من فرسان البـلاغة منهم : البحترى وأبو فراس • ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذى قال له الرشيد لما دخل منبج : أهذا منزلك ؟؟ قال : هو لك • ولى بك يا أمير المؤمنين قال : كيف بناؤه ؟؟ قال : دون منـازل أهلى ، وفوق منـازل الناس •

قال وكيف ذلك ، وقدرك فوق أقدارهم ؟؟ قال : ذلك خـلق أمير المؤمنين أتأسى به وأقفو أثره وأحذو حذوه •

قال : فكيف طيب منبج ؟ قال عذبة الماء ، طيبة الهـواء ، قليلة الأدواء • قال : فكيف ليلها ؟

قال : سـحر كله !

وفى التشوق الى منبج يقول ابراهيم بن المدبر • وقد خلى بهـا شعبة من فؤاده :

وليلة عـين المـرج زار خياله	فهيج بى شوقا وجدد أحزانى
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحا	بألمح آمـاق وأنظـر انسان
لعلى أرى أبيات منبج رؤية	تسكن من وجدى وتكشف أشجانى
فقصر طـرفى واستهل بعبرة	وفديت من لو كان يدرى لفدانى
ومثله شوقى اليـه مقـابلى	وناجاه عنى بالضمير وناجانى

وانما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السر فى رقة البحترى وجمال شعره فان للبلد الطيب الهواء ، العذب الماء ، القليل الأدواء ، أثرا كبيرا فى تكوين نفس الشـاعر ، والكاتب ،

والخطيب (١) ولان البحترى كان كثير الحنين الى منبج ، وكان كثيرا ما يشيد بها فى شعره ٠ واننظر كيف يقول فى خطاب أبى جعفر محمد بن حميد الطوسى :

لا أنسين زمنا لديك مهذبا وظلال عيش كان عندك سجسج
فى نعمة أوطنتها وسكنت فى أفيائها فكأننى فى منبج

بداية حياته

شب البحترى وترعرع فى منبج ٠ وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان قالوا وكان منه ماكان فى علوة التى شبب بها فى كثير من أشعاره ، وهى بنت زريقة الحلبية وزريقة أمها ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة لها شأن فى عالم الجمال وأن البحترى حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده الا بين يدى فتاة لعوب ، نشأت فى عهد المرح وتقلبت فوق أعطاف الدلال ٠٠ ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلفوا لنا دمية لعلوة ٠ وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التى أضرمت نار الوجد فى صدر الوليد ٠ وعلمته كيف تكون الشكوى ٠ وكيف يكون الأنين ٠٠ وان الشعر لمدين لهذه الالهة التى أوحت الى البحترى أن يقول بعد أن خلاها بالشام وسكن العراق :

أعيدى فى نظرة مستثيب توخى الأجر أو كره الأثاما
ترى كبدا محرقة وعينا مؤرقة وقلبا مستهاما
ألام على هواك وليس عدلا اذا أحببت مثلك أن ألاما
لقد حرمت من وصلى حلالا وقد حللت من هجرى حراما
تناءت دار علوة بعد قرب فهل ركب يبلغها السلاما

---

(١) انظر تفصيل هذا المعنى فى الكلام عن أبى الحسن الجرجانى فى الجزء الثانى من كتاب « النثر الفنى » ٠

وجدد طيفها عتبا علينـــا فمـــا يعتـــادنا الا لمـــاما
وربت ليلة قـــد بت أسقى بعينيها وكفيهـــا المـــداما
قطعنـــا الليل لثما واعتناقا وأفنينـــاه ضـــما والتـــزاما
لئن أضحت محلتنـــا عـــرافا مشرقة وحلتهـــا شـــآما
فلم أحدث لهـــا الا ودادا ولـــم أزدد بهـــا الا غراما

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحترى ســـلطان • ومن الوقار ان لانعرض لها فى هذا الحديث وقد بســـطنا عنها القول فى كتاب « مدامع العشاق » ويكفى أن نذكر أنموذجا من شعره فى وصف تلك النفس وانه ليقول :

هل لى سبيل الى الظهران من حلب ونشوة بين ذاك الـــورد والآس
أمد كفى لأخذ الكأس من رشأ وحاجتى كلها فى حامل الـــكاس
بقرب أنفاسه أشـــفى الغليل اذا دنا فقربهـــا من حر أنفـــاسى

اتصاله بأبى تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحترى من عهد الى عهد هو اتصـــاله بأبى تمام أمير الشعراء فى ذلك الحين ، فقد صار اليه وهـــو بحمص وعرض عليه شعره • وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر الا قصده وعرض عليه شعره • فلما سمع شعر البحترى أقبل عليه وترك ســـائر الناس فلما تفرقوا قال له أنت أشـــعر من أنشـــدنى ، فكيف حالك ؟ فشكا اليه خـــلة ، فكتب الى أهـــل معرة النعمان يشهد له بالحـــذق ويوصيهم باكرامه •• قال البحترى « فأكرمونى بكتابه ، ووظفوا لى أربعة آلاف درهم • فكانت أول مال أصبته » وقال البحترى : أنشدت أبا تمام شيئا من شعرى فأنشدنى بيت أوس ن حجر :

اذا مقرم منا ذرى حد نابه تخمط فينا ناب آخر مقرم(١)

وقال : نعيت الى نفسى .. فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال ان عمرى نيس يطول وقد نشأ لطيىء مثلك . أما علمت أن خالد بن صفوان المنقرى رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم وهو من رهطه فقال يا بنى : نعى نفسى الى احسانك فى كلامك ، لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب الا مات من قبله .

قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا .

وهذه بالطبع وسوسة من أبى تمام ، ولكنها شاهد على حسن رأيه فى شعر البحترى ، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر حتى قالوا انه فى اختياره أبلغ منه فى شعره .

وقال البحترى : أنشدت أبا تمام شعرا لى فى بعض بنى حميد وصلت به الى مال له خطر فقال لى « أحسنت . أنت أمير الشعراء بعدى » فكان قوله أحب الى من جميع ما حويته ..

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبى تمام للبحترى فقد نوه بها ابن رشيق وساقها صاحب زهر الآداب وهى تدلنا على رأى أبى تمام فى نظم الشعر وذوقه فى اختيار الأوقات ، وتدلنا على أسلوب البحترى فى حياته الأدبية فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه وفيها أيضا نوع من التربية نحب أن نسجله فى هذا الحديث .

قال البحترى : كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت أرجع فيه الى طبعى ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت

---

(١) الفحل المقرم هو الذى اقرمه صاحبه : تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة والقرمة .

وتخمط الفحل : هدر . ومن المجاز : تخمط الرجل : تغضب وثار ، والمراد هنا من تخمط الناب ظهوره وارتفاعه .

أبا تمام وانقطعت فيه اليه . واتكلت في تعريفه عليه . فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم . صفرا من الغموم واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الانسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وان أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا . والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق .. ولوعة الفراق ، فاذا أخذت في مديح سيد ذي اياد ، فاشهر مناقبه واظهر مناسبه، وأبن معالمه وشرف مقامه، ونضد المعاني، واحذر المجهول منها واياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل شعرك الا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه . فان الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله .

قال البحترى : فأعلمت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة (١)

ولهذه الوصية أغراض .. يرجع بعضها الى رياضة النفس تأهبا للقريض ويرجع بعضها الى جوهر الفن ، أما فيما يرجع الى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس ويلطف الحس . ويستيقظ الوجدان ومنهم من دعا الى الاستنجاد بالمياه الجارية والرياض الحالية . والأماكن الخالية الا أن أبا تمام . مع أنه — مسبوق — وفق كل التوفيق حين قال «واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم المعين » وهذه الكلمة فاصلة في حياة الفنانين على الاطلاق سواء أكانوا شعراء أم كتابا ، أم مصورين ، أم مثالين ، لأن الاجادة في الفنون تتوقف على

(١) السياسة هنا حسن التدبير .

الشهوة .. وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد الا ان كان له من فنه معبود جديد .

وأما فيما يرجع الى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح وسكت عن بقية الأغراض التى يهتم بها الشعراء فلم يتكلم عن الرثاء ولا الهجاء ولا الفخر ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التى تنطبق على كل موضوع اذ قال : « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهى كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال ..

ولا يحسبن القارىء أن فى اقبال البحترى على ما أوصاه به أستاذه دليلا على أن شعر أبى تمام وشعر البحترى من نمط واحد .. كلا فان أبا تمام فى وصيته يمثل الأستاذ ولا يقبل أن يمثل الشاعر لأنا لو حاكمنا شعره الى وصيته لراعنا ما بين المنزعين من الفرق البعيد ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب . فان أبا تمام لم يتغن بالحسن الا قليلا وحظه من صدق اللوعة ضئيل .

شخصية شوقى

ومهما يكن من شىء ، فان فى عناية البحترى بوصية أستاذه بيانا لأسلوبه فى رياضة نفسه وتهذيب شعره فلننظر بهذه المناسبة كيف يروض شوقى نفسه وكيف يهذب شعره وكيف يتناول ما يقصده الى نظمه من شتى الأغراض فقد صحبنا شوقى وعاصرناه وهو بحمد الله يعيش معنا فى مدينة واحدة وقد نقرأ عليه سينيته فى قصر الحمراء قبل أن نضعها فى الميزان . وأنا لنزن بالقسطاس المستقيم ..

صاحب شوقى ان شئت فستراه قليل الحديث وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع لهذا الرجل الصموت . وقد تصفه

بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين ولكني وقد عرفت شـــوقي أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلى • وليلاه هي الشعر وهو بالشعر مجنون لا مغرم ولا مفتون فان الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب يحدثك شوقي حديثا عاديا لا روعة له ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه • وحنايا نفسه • وأعمـــاق ضميره ـ دخلت عليه وهـو يتأهب لرثاء عبد اللطيف الصوفاني • فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامهـا الجديد •• ثم بغتني بهذه الكلمة « الصوفاني بك معضلة من المعضلات هو تمثال اخلاص • ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء » ؟؟ فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وان قلبه ونفسـه وحسه ووجدانه في شغل بما يعده لرثاء الصوفاني « تمثال الاخلاص » وعرفت انه لابد أن يقول شيئا في تحديد تلك الشخصية ثم انتظـرت يوم التأبين • فاذا هو يقول عن أثر الفقيد في المجالس النيابية :

ما كان قســا ولا زيادا ولا بسحر البيـان جاء
لكن اذا قام قال صـدقا وجـانب الـزور والـرياء

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفا صادقا حين قال :

« ينظم بين أصـحابه فيكون معهم • وليس معهم • وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي وحين يشاء وحيث يشاء ولا يعرف جليسه انه ينظم الا اذا سمع منه بادىء غمغمة النغـم الصادر من غور بعيد ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حـركة المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده الى جبينه وأمرها عليه امرارا خفيفا هنيهة بعد هنيهة فاذا قوطع في خلال النظم انتقل الى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كعادته في الحديث • ثم اذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد اليه كأنه لم ينقطع عنـه

مستظهرا ما تم منه حافظا لبقية المعنى الذى يضمره يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرا ، ثم ذكرها فكتبها فى جلسة واحدة — يكلف أحيانا بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه أن يبزهم — لا يجهد فكره ولا يكده فى معنى أو مبنى فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة الى أفانين الآداب فى لغات الافرنج والأعراب ، وفلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التى يحفظ منها غير يسير الى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استقاها من مطالعته فى صنوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب . وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول : ترى فيه من نسج البحترى ومن صياغة أبى تمام ومن وثبات المتنبى ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار وفى المجموع تجد صفة عامة المنظم وهى أنه نظم شوقى : ذلك شعر العبقرية والتفوق » .

ملامح وصفية

واذا ذكرنا عادة البحترى وشوقى فى قرض الشعر فلنذكر كذلك انهما يشتركان فى العناية بالآداب العربية فقد ترك البحترى كتابا سماه «معانى الشعر» (١) وترك كتابا آخر فى الحماسة كالذى تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات وشوقى وان لم يصنف كتبا فى الآداب — يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب . ويختلفان فى انشاد الشعر والاشادة به فقد كان البحترى يحتفى بانشاد شعره ويسلك فى ذلك مسلك التلحين والتطريب ، كان يطيل النظر فى وجوه الحاضرين ليرى مبلغ اعجابهم به واكبارهم له . حتى نفر الناس منه وعبث أهل السفه به ،

---

(١) قد يظن أن هذا كتاب فى النقد ولكنا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات التى رتبه على حسب المعانى .

وأصحاب المجون • أما شوقى : فقلما يتحدث عن شعره وقلما ينشـــده وانما يوكل بانشاده من يتوسم فيه حسن الفهم ، وحسن الاداء ، وهذا المسلك ، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم غير مأمون العـــواقب وكثيرا ما آذى الشاعر ، وعاد عليه بالضرر البليغ •

وفاء البحترى وشوقى

ولقد كانت الشاعرية ، ولا تزال ، دالة على سمو النفس ، ويقظة الوجدان والحوادث هى التى تميز عناصر النفوس ، وقد وقع للبحترى وشوقى من كبار الحوادث ماظهر معه مالهما من قوةالنفس ومتانة الخلق وكرم العنصر ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقى فلنكتف بهـــذا التلميح ولنذكر ما صنع البحترى مثلا فى الوفاء •

كان المتوكل ــ كما ذكر صاحب زهر الآداب ــ عقد لولدهالمنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، ثم تغير على المنتصر دون أخويه ، وكان يسميه المنتظر ، ويقول له : أنت تتمنى موتى وتنتظر وقتى ويأمر الندماء أن يعبثوا به الى أن أوغر صدره وأقل صبره فلما كانت ليلة الاربعـــاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكل يشرب مع الفتح فى قصره المعروف بالجعفرى ومعه جماعة من الندماء والمغنين وكان المنتصر معهم فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل ، قال لزرافة التركى : ألا تسمعنى ساعة حتى أشكو اليك ما يمر بى ؟ قال بلى ، وجعل يماطله ويطاوله وغلق بغا الشرابى الأبواب كلها الا باب المـــاء ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل وقـــد ضربوه ضربة قطع بها حبـــل عاتقه وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه فقتلا جميعا وبويع المنتصر من ساعته • قال الحصرى « وكانت مدة المنتصر فى الخلافة مدة شيرويه ابن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر » ــ وللظالم الويل ، كانت هـــذه القتلة الشنيعة التى تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين •• وكان هـــذا

الخليفة ولى نعمة البحترى . وكان استبداد المنتصر اذ ذاك كافيا فى ردعه عن رثاء مولاه ، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : ما قيلت هاشمية أحسن منها وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب » وفيها يقول :

تغير حسن الجعفرى وانسه ... وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه ... فآضت سواء دوره ومقابره
ولم أر مثل القصر اذ ريع سربه ... واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل أستاره وستائره
اذا نحن زرناه أجد لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
فأين عميد الناس فى كل نوبة ... تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره
تخفى له مغتاله تحت غرة ... وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة ... يجود بها والموت حمر أظافره
حرام على الراح بعدك أو أرى ... دما بدم يجرى على الأرض مائره
وهل يرتجىأن يطلب الدم طالب ... مدى الدهر والموتور بالدم واتره
فلا ملى الباقى تراث الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ونظرة واحدة الى ما كان يجرى فى تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحترى كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة ، انه لم يقف عند هذا الحد ، بل كان يرتاح فى كثير من شعره الى ذكر المتوكل بن خاقان وانظر كيف يفض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه :

تداركنى الاحسان منك ونالنى ... على فاقة ذاك الندى والتطول
ودافعت عنى حين لا الفتح يرتجى ... لدفع الأذى عنى ولا المتوكل

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية :

مضى جعفر والفتح بين موسد ... وبين قتيل فى الدماء مضرج

أأطلب أنصـــارا على الدهر بعـد ما
ثوى منهما فى الترب أوسى وخزرجى

وانظر كيف يقول وقد بان بعض من يهوى :

عسى آيس من رجعة الوصل يوصل	ودهر تولى بالأحبة يقبـــل
أيا سكنا فات الفراق بنفسه	وحال التعادى دونه والتزيل
أتعجب لما لم يغل جسمى الضنى	ولم يخترم نفسى الحمام المعجل
فقبلك بان الفتح عنى مودعا	وفارقنى شفعا له المتـــوكل
فما بلغ الدمع الذى كنت أرتجى	ولا فعل الوجد الذى خلت يفعل
وما كل نيران الجوى تقتل الحشا	وما كل أدواء الصبابة تقتـــل

تلك هى نفس البحترى الذى عذبته علوة فى بداية حياته وصهره الحزن على المتوكل فى أخريات أيامه وقد عرف القارىء عنه شيئا فيه بعض الغناء وعرف كذلك ما بينه وبين شوقى من الاختلاف والائتلاف .
ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين فى بكاء الممالك والتفجع لنكبات الشعوب قبل أن يرى كيف وصـف البحترى ايوان كسرى وكيف وصف شوقى قصر الحمراء .

بكاء الممالك عند البحترى وشوقى

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية لا اجتماعية ، فكان الشاعر يبكى وجده ونعيمه وهو ينـدب الرسوم ويتوجع للطلول ، ولم يهتم العرب ببكاء الممالك والتفجع للشعوب اذ كانوا فى بداية الحياة ، وكان الرجل منهم قلما يعنى بغير نفسه وأهله وذويه فكانوا فى شغل بأنفسهم عن بلايا الانسانية التى تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون .

ثم جاء القرآن فسـلك فى الحديث عن الممالك البائـدة مسلك التخويف والترهيب فلم يعطف عليها بكلمة ، ولم يستر لها عورة ، لأن

القرآن لم يكن كتاب شعر ، يرمي الى روعة الفن وجمال الخيال ، وانما كتاب حكمة وموعظة فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق : ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب » •

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية لكان له شأن غير هذا الشأن ، وهو يتحدث عن فرعون وابليس ومن اليهم من الجبابرة والطغاة ، فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة ، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال • على ان العرب لم يغفلوا عن الاشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفتهم التغنى بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية وان شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي :

نام الخلي وما أحس رقادي ... والهم محتضر لدى وسادي
من غير ما سقم ولكن شفني ... هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبالك أنني ... ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموضع تلعة ... بين العراق وبين أرض مراد
ولقد علمت سوى الذي نبأتني ... أن السبيل سبيل ذى الأعواد
ان المنية والحتوف كلاهما ... يوفى المخارم يرقبان سوادى
لن يرضيا منى وفاء رهينة ... من دون نفسى طارفى وتلادى

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين :

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد اياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذى الشرفات من سنداد

أرض تخيرها لطيب مقيلها | كعب بن مامة وابن أم دواد
جرت الرياح على مكان ديارهم | فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة | فى ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهمو | ماء الفرات يجىء من أطواد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به | يوما يصير الى بلى ونفاد

ثم عاد الى بكاء شبابه فقال :

اما ترينى قد بليت وغاضنى | ما نيل من بصرى ومن أجلادى (١)
وعصيت أصحاب الصبابة والصبا | وأطعت عاذلتى ولان قيادى
فلقد أروح على التجار مرجلا | مذلا بمالى لينا أجيادى
لقد لهوت وللشباب لذاذة | بسلافة مزجت بماء غواد
من خمر ذى نطف آغن منطق | وافى بها لدراهم الأمجاد
يسعى بها ذو تومتين مشمر | قنأت أنامله من الفرصاد
والبيض يرمين القلوب كأنها | أدحى بين صريمة وجماد
ينطقن معروفا وهن نواعم | بيض الوجوه رقيقة الأكباد

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة فى عينيته التى يقول فيها :

ولقد علمت ولا محالة اننى | للحادثات فهل ترينى أجزع
أفنين عادا ثم آل محرق | فتركنهم بددا وما قد جمعوا
ولهن كان الحارثان كلاهما | ولهن كان أخو المصانع تبع (٢)
لابد من تلف مصيب فانتظر | أبأرض قومك أم بأخرى تصرع
وليتأتين عليك يوم مرة | يبكى عليك مقنعا لا تسمع

وكذلك نجد فى خطب العرب وأشعارهم شذرات فى التوجع لما انقرض من الممالك والشعوب ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التى تشد

---

(١) الأجلاد : جمع جلدة بالتحريك ، وهو القوة .
(٢) المصانع : القصور .

اليها الرحال . كوقفة البحترى عند رسوم الايوان ووقفة شوقى عند أطلال الحمراء .

ايوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن ايوان كسرى ، الذى استلم البحترى أحجاره ، وطاف بأركانه كان مضرب المثل عند الأعراب فقد قيل لأعرابى :

كيف تصنع بالبادية اذا انتصب النهار ، وانتعل كل شىء ظله؟فأجاب وهل العيش الا ذاك ؟ يمشى أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان ، ثم ينصب عصاه ويلقى عليها كساءه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه فى ايوان كسرى ..

وقد حكى فيما نقل ياقوت ان المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك فى هدم الايوان وادخال آلته فى عمارة بغداد . فقال له :

لاتفعل ياأمير المؤمنين . فقال : أبيت الا التعصب للفرس . فقال: ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ولكنه أثر عظيم يدل على ان ملة ودينا وقوما اذهبوا ملك بانيه لدين وملك عظيم ، فلم يصغ الى رأيه وأمر بهدمه فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة فتركه ، فقال خالد : الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه ، لئلا يقال عنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك ، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة ..

وقد تكون الحكاية صحيحة ، وقد تكون خرافة تناقلها الناس ولكنها على كل حال دليل على منزلة الايوان فى صدور العرب لذلك العهد ، اما قصر الحمراء الذى بكاه شوقى فهو من قصور الأندلس . والأندلس هى الفردوس المفقود . الذى يبكيه المسلمون ولتنتظر فسيحدثنا شوقى عنه أصدق الحديث .

نفسية البحترى

وأريد بنفسية البحترى ذلك الخاطر الذى استولى عليه حين هم بوصف الايوان وقد رأيناه يذكر لـذلك علتين : احداهما فى بـداية القصيدة والثانية فى النهاية أما الأولى فهى الهرب من الهموم ومن ظلم الأقارب بالفزع الى طلول الايوان ، ينسى فى أكنـافها حـزنه وبثه ، ويستودعها أساه وشجاه وذلك حيث يقول :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن ندى كل جبس (١)
وتماسـكت حيث زعزعنى الـدهر التماسـا منه لتعسى ونكسى

بلغ من صبابة العيش عندى طففتها الأيـام تطفيف بخس
وبعيـد ما بين وارد رفـه علل شربه ووارد خمس (٢)
وكأن الزمان أصبح محمـو لا هواه مع الأخس الأخس
واشترائى العراق خطة غبـن بعـد بيعى الشآم بيعة وكس
لا ترزنى مـزاولا لاختيارى عند هذى البلوى فتنكر مسى (٣)
وقديما عهـدتنى ذا هنـات آبيـات على الدنيئات شمس
ولقـد رابنى نبـو ابن عمى بعـد لين من جانبيـه وأنس
واذا ما جفيت كنت حـريا أن أرى غير مصبح حيث أمسى

ثم انتقل الى الموضوع مباشرة فقـال :

حضرت رحـلى الهمـوم فوجهـت الى أبيض المدائن عنسى
أتسـلى عن الحظـوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التـوالى ولقد تذكر الخطـوب وتنسى

ونراه فى نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان . وليست الدار

---

(١) الجبس : هو الدنىء الجبان ..
(٢) الخمس : شر الاظماء .
(٣) لا ترزنى : لا تمتحنى .

داره ولا الجنس جنسه، لأن لأهله نعمى عند أهله، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه بما أمدوهم من الكتائب فى أيام القتال وذلك حيث يقول :

عمرت للسرور دهرا وصارت	للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع	موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندى وليست الدار دارى	باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهلى	غرسوا من ذكائها خير غرس
ايدوا ملكنا وشدوا قواه	بكماة تحت السنور خمس (١)
وأعانوا على كتائب أريا	ط بطعن على النحور ودعس

وأرانى من بعد آكلف بالاشراف طرا من كل سنخ وأس (٢)

وفى هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالاشراف من كل جنس ويبكى المجد الذاهب ، وان تقطعت بينه وبين أهله الأسباب .

نفسية شوقى

أما شوقى فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء ، فترك لنا قطعة منثورة تصف حسه ووجدانه وهو يطوف بذلك البيت ، وقد سلك شوقى هذا المسلك غير مرة فانا نراه قدم قصيدته فى وصف رومة برسالة بعث بها الى استاذنا الجليل اسماعيل رأفت ، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للاستاذ مرجليوث قصيدته فى وصف النيل ، والى القارىء كلمته عن رحلته الى وطن ابن خفاجه وابن زيدون :

«لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها وفضحها الله بين خلقه وهتك ازارها ، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها أصبحت واذا العوادى مقصرة ، والدواعي غير مقصرة ، واذا الشوق الى الأندلس أغلب ،

---

(١) السنور : السلاح .

(٢) السنخ : الاصل والأجلس .

والنفس بحق زيارته أطلب فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجد والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط فبلغت النفس بمرآة الأدب وكحلت العين في ثراه بآثار العرب وانها لشتى المواقع ، متفرقة المطالع في ذلك الفلك الجامع ، يسرى زائرها من حرم الى حرم كمن يمسى بالكرنك ويصبح بالهرم ، فلا تقارب غير العتق والكرم ، طليطلة تطل على جسرها البالى ، واشبيلية على قصرها الخالى ، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء ، وكان البحترى رحمه الله رفيقى فى هذا الترحال ، وسميرى فى الرحال والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فانه أبلغ من جلى الأثر وحيا الحجر ونشر الخبر وحشر العبر ، ومن قام فى مأتم على الدول الكبرى ، والملوك البهاليل الغرر ، عطف على الجعفرى حين تحمل عنه الملا ، وعطل من الحلى ، ووكل بعد المتوكل للبلى ، فرفع قواعده فى السير وبنى ركنه فى الخبر وجمع معالمه فى الفكر حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وان خلا البصر ، وتكفل بعد ذلك لكسرى بايوانه ، حتى زال عن الأرض الى ديوانه وسينيته المشهورة فى وصفه ليست دونه وهو تحت كسرى فى رصه ووصفه ، وهى تريك حسن قيام الشعر على الآثار وكيف تتجدد الديار فى بيوته بعد الاندثار . قال صاحب (الفيح القسى فى الفتح القدسى) بعد كلام :

« فانظروا الى ايوان كسرى وسينية البحترى فى وصفه ، تجدوا الايوان قد خرت شعفاته وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها كسرى فى ديوانه اضعاف ما بقى شخصه فى ايوانه . »

وهذه السينية هى التى يقول فى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى   وترفعت عن ندى كل جبس

والتى اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :

والمنايا مواثل وأنوشر   وان يزجي الصفوف تحت الدرفس(١)

فكنت كلما وقفت بحجر او طفت باثر بأبباتها واسترحت من مواثل العبر الى آياتها ، وانشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظ البحترى أيوان كسرى   وشفتني القصور من عبد شمس

«ثم جعلت أروض القول على هذا الروى وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة وأتممت هذه الكلمة الريضة واذا أعرضها على القراء راجيا ان يلحظوها بعين الرضاء ويسحبوا على عيوبها ذيل الاغضاء » .

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي فهو يسجع ولا يكاد يبين (٢) غير أنه قد يوفق الى تشابيه مبتكرة تسير مسير الامثال كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الاسبان :

« يسري زائرها من حرم الى حرم ، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم »

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل »

وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتري فهو عنده أبلغ من جلى الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي وكيف كان روح البحتري يطيف به وهو يطوف بالحمراء .

ولا ندري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من قصيدة البحتري هو قوله :

والمنايا مواثل وأنوشر   وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

---

(١) الدرفس : العلم وهي كلمة فارسية

(٢) غضب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة وكان يرى نفسه اكتب الناس ونحن لا نؤمن بقوته الكتابية ولكنا مع ذلك نراه بلغ الغاية في رسالته عن قناة السويس

وكنا نحب لو تنبه لقوله فى وصف الايوان :

ليس يدرى أصنع انس لجن　　سكنوه أم صنع جن لانس

وقوله فى بكائه :

لو تراه علمت أن الليالى　　جعلت فيه مأتما بعد عرس

ولشوقى رأيه ، فقد يختلف النقد أحيانا باختلاف الأذواق .

حنين شوقى لمصر

قد رأيت فى الكلمة الماضية أن البحترى ابتدأ سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان ، والتنكر لظلم الأقربين ، وكان ذلك لأن نزعته لم تكن اجتماعية وانما كانت فردية . أما شوقى فقد ابتدأ سينيته بقطعة وجدانية تفيض بالحنين الى مصر ، وتزخر بالشوق الى النيل ، وهو كأنما يتكلم عن نفسه ، ويحدث الناس عن شجونه ، ولكنه فى الواقع يتوجع لما يعانى وطنه من وطأة الظلم ويتفجع لما تقاسى بلاده من قسوة الاضطهاد وانه ليبكى ملاعب شبابه وعهود صباه حين يقول فى مطلع هذه السينية .

اختلاف النهار والليل ينسى　　فاذكرا لى الصبا وأيام أنسى

وصفا لى ملاوة من شباب　　صورت من تصورات ومس

عصفت كالصبا اللعوب ومرت　　سنة حلوة ولذة خلس

ثم يأخذ فى الحديث عن مصر فيقول :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها　　أوأسا جرحه الزمان المؤسى

كلما مرت الليالى عليه　　رق والعهد فى الليالى تقسى

مستطار اذا البواخر رنت　　أول الليل أوعوت بعد جرس

ولا أحب أن أنتقل الى خطاب شوقى للباخرة قبل أن أنبه القارىء الى روعة الحسن فى قوله :

وسلا مصر هل سلا القلب عنهـا   أوأسا جرحه الزمان المـؤسى

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليـالى ، وجعل جرحه فى هوى مصر أعضل من أن يطلب له الزمان ، وانظر كيف وصف قلبه حـين قال :

كلما مرت النيالى عليـه   رق والعهد فى الليالى تقسى
مستطار اذا البواخـر رنت   أول الليل أوعوت بعـد جرس

وها هو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البـرق أو هب النسـيم كما كان يتحدث الأعراب ، وانما يصـف ما يحسبه الغريب على شواطىء المحيط ، وأين وميض البرق ، وهبوب الريح من أصوات البواخر فى غسق الليل ؟ ثم قال :

يا ابنة اليـم ما ابوك بخيـل   مالـه مولعـا بمنع وحبس
أحـرام على بلابله الـدو   ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحـق بالأهـل الا   فى خبيث من المذاهب رجس

والقارىء يتلقى هذه الأبيات الآن بشىء من الطمأنينة ، أمـا الذين قرأوها يوم قالها شوقى فلهم فيها رأى ، ومن كان فى ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية لاقدر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة فقد كنا نتغنى بقول شوقى :

أحـرام على بلابـله الـدو   ح خلال للطير من كل جنس

ثم يتمثل مصر فى صورة الشجرة الوريقة نفرت عنها البـلابل المغردة ثم صارت مأوى للبوم ومقيلا للغربان ، وكذلك كانت مصر فى ذلك الحين فكان شهيد الحرية محمد فريد يرسل الأمانى عساها تقبل ثرى مصر ، وتنهل من سلسبيل النيل ، ثم لا تجاب له طلبة ، ولا يدنو منه مأمول فى حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الأبواب لكل أثيـم القلب ، وقاح الوجه خبيث اللسان وسيظل قول شوقى :

آحرام على بلابله الـــدو ح حلال للطـير من كـل جنس

سيظل هذا البيت مثارا للشجي والأسى ، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والأفنان وهى للبلابل مأوى وللطواويس مقيـــل ، أما قوله :

كـل دار أحـــق بالأهل الا في خبيث من المـــذاهب رجس

فهو رمية مسددة في صدر الظلم ، ونحر الاستبداد وسيظل غصة يشجى بها بعض الحلوق ، ثم قال فى خطاب الباخرة :

نفسى مرجـــل وقلبى شراع بهما فى الدموع سيرى وأرسى
واجعلى وجهك « الفنار » ومجرا ك يد «الثغر» بين رمل ومكس
وطنى لو شغلت بالخلد عنـــه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد فى ســـلسبيل ظمأ للسواد من عين شـمس
شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعة ولم يخـل حسى
يصـــبح الفـكر والمســـلة ناديه وبالسرحة الزكية يمسى

وأى نفس يمثلها شوقى فى هذا الشعر البديع انه والله يمثـل النفس المصرية وحسبى أن أقول : النفس المصرية ، وهل فى الدنيا ــ ولولا التقى لأضفت اليها الآخرة ــ وطن خليق بأن يعذب فى سبيله أبناؤه مثل وادى النيل ؟

ان الذى يعيش فى مصر وله ذوق شوقى واحساسه ليس بكثير عليـــه أن يقـــول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنـــه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد فى ســـلسبيل ظمأ للســـواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعة ولم يخـل حسى

ولقد كانت مصر ولا تزال بابا من الفتنة لكل من يمسى وله فيها رأى مطاع ، وبفضلها يقول فرعون :

« أليس لى ملك مصر وهذا الانهار تجـــرى من تحتى أفـــلا تبصرون » ولقد يذكرون ان المأمون قال لجنوده وهو يشـــاهد الأهرام: « أبهذه كفر فرعون بربه » فقال له أحد وزرائه يا أمير المؤمنين ان الله يقول « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فاذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر ان غلب عليه الضلال .

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة وتغرس فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك ، ويحبب اليه العدوان ، وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطا من أسباب الفتنة فى هذه البلاد !

ثم يقول شوقى وهو يتمثل الجزيرة والنيل :

وكأنى أرى الجـــزيرة أيـــكا	نغمت طيره بأرخـــم جـــرس
هى بلقيس فى الخمائل صـــرح	من عباب وصـــــاحب غيرنكس
حسبها أن تكون للنيل عرسا	قلبها لم يجن يوما بعـــرس
لبســـت بالأصـــــيل حلة وشى	بين صنعاء فى الثياب وقس (١)
قدها النيل فاستحت فتوارت	منه بالجسر بين عرى ولبس
وأرى النيـــل كالعقيـــق بواديـــ	ـــه وان كان كـــوثر المتحسى
ابن ماء السماء ذو الموكب الفخـــ	ـــم الذى يحسر العيون ويخسى
لا ترى فى ركابه غـــير مثـــن	بجميل أو شاكر فضل غرس

وهذا خيال وادع جميل ، ولكن شوقى لم يصبر عليه بل عـــاد الى هجيراه من النـــوح على مجد خوفو ورمسيس وأخذ يقول :

وأرى الجيزة الحزينة ثكلى	لم تفق بعد من مناحة رمسى(٢)
أكثرت ضجة السواقى عليـــه	وسؤال اليراع عنـــه بهمس

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والفرماء من أرض مصر تنسب اليه الثياب القسية .

(٢) يريد رمسيس .

وقيام النخيل ضفرن شعرا وتجردن غير طوق وسلس (١)
وكأن الاهرام ميزان فرعو ن يوم على الجبابر نحس
أو قناطيره تأنق فيها ألف جاب وألف صاحب مكس
روعة فى الضحى ملاعب جن حين يغشى الدجى حماها ويغسى

وكذلك يحسب شوقى وهو يندب مجد الفراعنة أن ما فى الطبيعة من ماء ونبات وجمال يبكى معه ذلك الملك الذى بطش به القدر وعدا عليه القضاء •

والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لابتسامه، وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لاكتئابه ، ولعل هذه السذاجة هى أظرف ما فى الشعراء اذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة ، وكم فى الطفولة من معان تسكن اليها شوارد النفوس •

ثم انتقل شوقى الى الحديث عن أبى الهول فقال :

ورهين الرمال افطس الا أنه صنع جنة غير فطس
تتجلى حقيقة الناس فيه سبع الخلق فى أسارير انسى
لعب الدهر فى ثراه صبيا والليالى كواعبا غير عنس (٢)
ركبت صيد المقادير عينيـ ـه لنقد ومخلبيه لفرس
فاصابت به الممالك كسرى وهرقلا والعبقرى الفرنسى

وهذا أيضا خيال شعراء فهو يتوهم ان المقادير ركبت عينى ابى الهول لنقد الحوادث واعدت مخلبيه لافتراس الطغاة ، ولكن هيهات لما يظن هيهات ، والويل لأمة تنتظر فى خمود حتى يثأر لها قعيد الصحراء ••

على أن من الحق أن نبين أن شوقى لم يسق هذه الخرافة ،

(١) السلس : من قولهم سلسلت النخلة اذا ذهبت منها أصول السعف •
(٢) عنس : جمع عانس وهى الفتاة يطول مكثها فى دار أبيها بعد ادراكها حتى تخرج من عداد الابكار •

وهو يحسبها حقيقة انما هو الفن يقضى على صاحبه باستغلال موارد الخيال ، وأبو الهول ــ رضى الله عنه ان كان وليا وجل جلاله ان كان الها ــ معبود قديم طالما قدمت له القرابين ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان يتيمن به آباؤهم من قبل ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه كما لا يزال العرب يحسبون حساب السانح والبارح اسوة بما كـــان يفعل آباؤهم الأقدمون • ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من اساطير الاولين ترينا كيف كان « هداة الأمم » يثيرون ما ركد فيها من العواطف بالاشادة بما عرف لهم من المعبودات وعلى هذا النهج جرى شوقى فسبح بحمد أبى الهول فى جملة من قصائده الطوال والشـــاعر كالخطيب لا تهمه العقول اذا ظفر بالقلوب •

ثم عاد شوقى الى قلبه وقد غمره الحزن فأخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين وانظر كيف يقول :

يا فــؤادى ! لكــل امر قــرار ... فيــه يبدو وينجلى بعـــد لبس
عقلت لجـة الأمور عقـــولا ... كانت الحوت طول سبح وغس (١)
غرقت حيث لا يصـــاح بطـاف ... أو غـــريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشموس نهـــارا ... ويسوم البدور ليـــلة وكس
ومواقيت للامـــور اذا مـــا ... بلغتها الأمور صارت لعـــكس
دول كالرجـــال مرتهنـــات ... بقيـــام من الجـــدود وتعس
وليـــال من كل ذات ســوار ... لطمت كل رب روم وفـــرس
ســـددت بالهـــلال قوسا وسلت ... خنجرا ينفـــذان من كل ترس
حكمت فى القرون خوفو ودارا ... وعفت وائلا وألـــوت بعبس
أين مروان فى المشـــارق عـــرش ... أمـــوى وفى المغارب كـــرسى

(٢) الغس مرادف للسبح •

وقفة قصيرة

لاحظنا أن شوقى تحدث عن نفسه قليلا فى بداية القصيدة ، ثم اندفع فى الحديث عن شوقه لمصر وتفجعه لما تقاسى من عاديات الخطوب فرأيناه يصور الجزيرة ويمثل استحياءها حين قدها النيل ، ثم رأينـــاه يذكر أن الجيزة لا تزال فى أثواب الحداد على رسيس وان السواقى لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين وان النخيل تجردت من الحزن عليه فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق ، ورأيناه كذلك يتـــكلم عن أبى الهول وعن الاهرام ويتخيل ابا الهول قارعة عتيـــدة لاهلاك الطغاة ثم رأيناه وقد عاود القلق على مصر ، ولم يقنعه السكون الى الخيال فأخذ يزفر من جديد ويقول!

يا فؤادى ! لــكل امر قــرار   فيــه يبدو وينجلى بعــد لبس

واين هذا القرار ، يا بلبل النيل ، هاته ، وخذ من أرواحنا مـــا تشـــاء !

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشـــعرية البديعة وهو يقول:

عقلت لجة الأمور عقـــــولا   كانت الحوت طول سبح وغس
غرقت جيث لا يصاح بطـــاف   أو غـــريق ولا يصـــاخ لحس
فلك يكسف الشموس نهـــارا   ويســـوم الـــدور ليلة وكس

ولم تظفر النفس الانسانية برثاء ابرع من هذا الرثاء ، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة وهى على جبروتها ألعـــوبة القدر وأضحوكة القضاء ، ومن ذا الذى وقف على القبر الذى ثوت فيه آمال الأمم المعذبة ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية يذرفها مثل شوقى على تلك العقول التى عقلتها لجة الخطوب والتى غرقت حيث لا يصاخ لحس ، ولا يصاح بطاف أو غريق .

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء ، فقد مهد شوقى لوقفته على أطلالها تمهيدا هو غاية فى اعداد النفس لبكاء المجد الذاهب ، والملك السليب ، والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة ، والشجى يبعث الشجى ، وهذا كله قبر مالك ، لو يعلم اللائمون !

ولم يصنع البحترى هذا الصنيع ، وانما حدثنا عما طففت الأيام من صبابة عيشه ، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق ، وكيف رابه نبو ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر ، لين الجانبين ، ثم قال :

حضرت رحلى الهموم فوجهت الى أبيض المدائن عنسى

أسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس

وهذا هو عين الاقتضاب ولا يبعد عندى أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة وان لم يوجد ما يرجح هذا الظن فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ولكن المريب هو أن يزهد البحترى فى حسن التخلص وهو يحبر قصيدة من أروع قصائده ان لم تكن أجمل ما قال وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية مايمت بصلة وثيقة الى ما سينقل اليه واشهر ماله فى هذا الأسلوب قصيدته الميمية فى عتاب الفتح بن خاقان فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هى أيضا عتاب وذلك حيث يقول :

يهون عليها أن أبيت متيما أعالج شوقا فى الضمير مكتما

وقد جاوزت أرض العراق وأصبحت
حمى وصلها مذ جاورت أبرق الحمى

بكت حرقة عند الفراق وأردفت
سلوا نهى الأحشاء أن تتضرما

فلم يبق من معروفها غير طائف
يلم بنا وهنا أذا الركب هوما

وفى هذه القصيدة يقول :

ولم أعرف الذنب الذى سؤتني له
فأقتل نفسى حسرة وتندما
ولو كان ما خبرته أو ظننته
لما كان غروا أن ألوم وتكرما
اذكرك العهد الذى ليس سؤددا
تناسيه والود الصحيح المسلما
أقر بما لم أجنه متنصلا
اليك على أنى أخالك ألوما
لى الذنب معروفا وان كنت جاهلا
به ولك العتبى على وأنعما
ومثلك ان أبدى الفعال أعاده
وان صنع المعروف زاد وتمما

نقول : ان البحترى لم يؤثر التخلص فى قصيدته السينية وانما آثر الاقتضاب ولا كذلك شوقى فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب ثم دخل فى الموضوع برفق وهو يقول :

أين مروان فى المشارق عرش أموى وفى المغارب كرسى
سقمت شمسهم فرد عليها نورها كل ثاقب الرأى نطس
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك تبلى وتنطوى تحت رمس
وعظ البحترى ايوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

نقرر هذا ثم نذكر أن البحترى لا لوم عليه فى أن خلت قصيدته من مثل هذه المقدمة الممتعة التى افتتحت بها قصيدة شوقى لأن ظروف

البحترى وقد ضاق به عيشه وظلمه أهله غير ظروف شوقى وهو يحاول العودة الى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان . وأصلاه أهله نار العقوق ، وهو قد خلف فى هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه ، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة ثم هو لا يدرى اذا عاد يقر قراره فليقى عصا التسيار أم تعصف به وشاية جديدة ، تحمله الى المنفى من جديد ..

ولو كان للبحترى مثل هذا القلب المشرد ، وهو يشد رحاله الى الايوان لكان له شأن آخر ، ولكانت شكواه مضرب الامثال ولكن الشاعر له رسالة يؤديها الى أهل عصره ولا مفر له من ادائها ما دام له قلب ووجدان وكانت رسالة شوقى حين قال سينيته اذ يصف ما يلاقى أهل مصر من الكمد وهم يودعون كل يوم فريقا من ابنائهم الأحرار ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقى اليهم البحر من نفايات الامم واوشاب الأقطار .. وكان له فى ذلك البيت الذى يصلح لكل أمة ولكل جيل :

أحرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل جنس

وفى مقابله يقول البحترى وهو يتحدث عن نفسه :

واشترائى العراق خطة غبن   بعد بيعى الشآم بيعة وكس

ولكن أين هذا من ذاك ؟! وأين قول البحترى فى عنف الدهر وجوره :

وكأن الزمان أصبح محمو   لا هواه مع الأخس الأخس

ومن قول شوقى فى المعنى نفسه :

عقلت لجة الأمور عقولا   كانت الحوت طول سبح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف   أو غريق ولا يصاخ لحس

فان هذه صورة شعرية نادرة المثال .

ومطلع البحترى :

سمت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس

فيه ضعف وانحلال ، وليس بقاطع الدلالة على الاباء ، وخير منه مطلع شـوقى :

اختلاف النهـار والليل ينسى فاذكرا لى الصبا وايام أنس

وان كنا لا ندرى بمن يستنجد وقد نسى ايام صباه ورحم الله ابن الأحنف اذ يقول :

نزف البكاء دموع عينيك فاستعر عينا لغيرك دمعهـا مدرارا
من ذا يعيرك عينه تبـكى بهـا أرأيت عينا للدموع تعـار

ويذكرون ان لورد كرومر حضر عرسا مصريا وسمع المغنى يقول:

« حبيبى غاب ، هاتوه لى ياناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على مدلوله قال « ان المصرى لكسول وانه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه الغائب » وكذلك يطلب شوقى من يحدثه عن أيام الأنس فى عهد الشباب وانه لمطلب عجيب !

بين البحترى وشوقى

ولقد أخذ البحترى : بعد مقدمته الوجيـزة يتكلم عن إيوان كسرى : ويتحدث عن بنائه ويعرض بسكان القفار من الاعراب فيقول:

أنسـلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل سـاسان درس
ذكرتنيهم الخطـوب التـوالى ولقد تذكر الخطـوب وتنسى
وهمو خافضون فى ظل عـال مشرف يحسر العيون ويخسى
مغلق بابه على جبل القبـ ـق الى دارتى خلاط ومكس
حلل لم تكن كأطلال سعدى فى قفار من البسـابس ملس

ومســاع لولا المحــاباة منى لم تطقها مسعاة عنس وعبس
نقل الدهر عهــدهن من الجــد ة حتى غــدون انضــاء لبس
فكأن الجرماز من عدم الأنس واخــــلاقه بنيـــة رمس
لو تراه علمت أن الليــــالى جعلت فيه مأتمــا بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قــوم لا يشاب البيان فيهــم بلبس

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما فى الايوان من النقوش والتهاويل ، ولنا اليه عودة فلنلاحظ الآن أن البحترى يتحبس وهــو يبين على أثر الايوان فى نفسه ، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق ، وترجع هذه الحبسة الى اتقاء الفتنة ، وكبح مايجمح عن هذه المقارنة من شهوة التنافر واثارة الأحقاد ، ولهذا يقول فى هــدوء :

حلل لم تكن كاطــلال ســعدى فى قفار من البســـابس ملس
ومســـاع لولا المحــاباة منى لم تطقها مسعاة عنس وعبس

وقد صدق ، وان جرح الايوان ، والا فما هى اطلال ســعدى ، ورسوم ليلى وثوى عفراء ؛ ولم يجد شوقى ما يضطره الى مثل هــذه المواربه ، اذا كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب فى بلاد اســـلامية مجسوعة الاهواء ، ومن هنا نراه يقول فى وضوح وجلاء :

رب ليل سريت والبرق طرفى وبساط طويت والريح عنسى
انظم الشرق فى (الجزيرة) بالغر ب واطوى البلاد حــزنا لدهس
فى ديار من الخــلائف درس ومنــار من الطــوائف طمس
وربا كالجنان فى كنف الزيتو ن خضر وفى ذرا الكرم طلس
لم يرعنى سوى ثرى قرطبى لمست فيه عبرة الدهر خمسى
ياوقى الله ما أصبح منـــه وسقى صفوة الحيا ما أمسى
قرية لا تعد فى الأرض كانت تمسك الارض أن تميد وترسى
غشيت ساحل المحيط وغطت لجة الروم من شراع وقلس

ركب الدهر خاطرى فى ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس
نتجلت لى القصور ومن فيهـ ـا من العز فى منازل قعس
ما ضفت قط فى الملوك على نذ ل المعالى ولا تردت بنجس

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك ونحن نستجيد قول البحترى :

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى

ولعجز هذا البيت مغزى بديع ، ونستجيد كذلك قوله :

نقل الدهر عهدهن من الجد ة حتى غدون أنضاء لبس
فكأن الجرماز من عدم الأنس وإخلاقه بنية رمس

وفى هذين البيتين دقة وخيال وللقارىء أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل :

«أنضاء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه « بينة رمس » فأما قوله :

لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتما بعد عرس

فهو غاية الغايات فى بكاء المغانى ، يتحكم فيها البلى ، وتبطش بها أيدى العفاء .

ونستجيد قول شوقى :

لم يرعنى سوى ثرى قرطبى لمست فيه عبرة الدهر خمس

ولمس العبرة من المعانى الدقيقة وقد بلغ غاية الرفق وهو يقول فى تحية هذا الثرى :

ياوقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسى

ونستجيد كذلك قوله :

ركب الدهر خاطرى فى ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس

يصف تلك البقعة بالدروس ويذكر انه ضل ولم يهتد الا بعد أن ركب خاطره الدهر ومع هذا لم يصل الا بعد توهم وحدس وتلك وثبة ومن وثبات الخيال .

ثم أخذ البحترى يصف ما فى الايوان من صور المعارك فقال :

فاذا ما رأيت صورة انطا كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على أصفر يختال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بترس
تصف العين انهم جد أحيا ء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهمو يداى بلمس

وهذه القطعة من أدق ما قيل فى الوصف ، يذكر أنه شهد فى الايوان صورة كسرى وهو يحاصر انطاكية وانك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة الفرس على الروم وكيف يرتاع المرء وهو يشاهد صورة على الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن فهو يذكر انك حين ترى هذه الصورة لا يخطر ببالك انها صورة وانما تحسب لصدق التصوير أنك فى ميدان القتال والمنايا موائل امامك وانوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء . ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب وما هم عليه من ايثار الخفوت ، بين مشيح بالرمح ، ومليح بالسنان وانظر كيف يقول :

تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهمو يداى بلمس

فهو يراهم جد أحياء وان لم يسمع لهم صوت ، لأن فى سماتهم ما يدل على اكتفائهم بالاشارة كما يكتفي الخرس ، ثم يعود الى نفسه

فيذكر انه أمام صورة ؛ ثم يغلب على حسه فيرتاب فيما يراه فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيـال ؟ والمصور الحاذق هـو الذى يسبغ على صوره أثواب الحياة ٠ولقد أذكر أنى شـهدت فى أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة ولم أكد أملأ منهـا عينى حتى خلتها تتقلب ٠ وكذلك يسحر الفن الجميل ٠

ولقد نحا شـوقى منحى البحترى فى الوصـف وان اختلف الموصوف ، فقال وقد تجلت له تلك القصور :

وكأنى بلغت للعـلم بيتـا ... فيه مال العقول من كل درس
قدسا فى البلاد شرقا وغربا ... حجـه القوم من فقيـه وقس
وعلى الجمعة الجلالة (والنـا ... صر) نور الخميس تحت الدرفس
ينزل التاج عن مفـارق (دون) ... ويحلى به جبين (البرنس)
سنة من كرى وطيف أمـان ... وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الـدار ما بهـا من انيس ... واذا القوم ما لهـم من محس
ورقيق من البيـوت عتيـق ... جاوز الألف غير مذموم حرس
أثر من (محمـد) وتراث ... صار (للروح) ذى الولاء الامس
بلغ النجم ذروة وتنـاهى ... بين(ثهلان) فى الأساس و (قدس)
مرمر تسبح النـواظر فيـه ... ويطـول المدى عليها فترسى
وسوار كأنهـا فى استـواء ... ألفات الوزير فى عـرض طرس
فترة الدهر قد كست سـطربها ... ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
ويحهـا كـم تزينت لعليـم ... واحد الدهر واستعدت لخمس
وكأن الرفيف فى مسرح العيـ ... ـن مـلاء مدنرات الدمقس
وكأن الآيات فى جانبيـه ... يتنزلن من معـارج قـدس
منبر تحت (منـذر) من جلال ... لم يزل يكتسـيه أو تحت قس
ومكان الكتـاب يغريك ريا ... ورده غائبـا فتـدنو للمس

وهذه القطعة على طولها لا تسمو الى ما وصلت اليه تلك النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان ، ولعل السر فى هذا أن البحترى وجد فى الايوان صورة للحرب بين الفرس والروم وصورة الحرب تهز النفس وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة ، أما شوقى فقد وجد بالقصر آيات من القرآن لم يذكر أكانت فى وصف الجنة أم فى الدعوة الى القتال ؟ والفن الذى يستمد قوته من الأصول الدينية الوادعة الهادئة لا يصلح الا للكهول والويل للأمم اذا لم تغلب عليها الفروسية ولم يستبد بها مافى الشباب من نشاط وجنون •

وما أبعد الفرق بين قول البحترى :

والمنايا موائل وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

وبين قول شوقى :

وعلى الجمعة الجلالة والنا صر نور الخميس تحت الدرفس

وشوقى يصف ما رآه فلا لوم عليه ولا تثريب وصدق من قال :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

وقد لانجد فى هذا العصر من يسمح بأن توضع فى المساجد والمعابد صور المعارك والحروب ولم يظلم أحد أهل الشرق ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية الى الآخرة، كما بينا ذلك فى كتاب «الاخلاق عند الغزالى» وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب • وحيا الله اولئك الشياطين فهم ملائكة هذا الجيل وان رزائل القوة لخير من فضائل الضعف لو يعلم الشرقيون • ولشوقى ان يذكر ان جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك ، ولم تكن صورة رسمية يستبق اليها طلاب الرزق وللرزق ابواب ، يدل على هذا قوله :

سنة من كرى وطيف أمانى وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار ما بها من أنيس واذا القوم ما لهم من محس

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك ومافيه من آثار العقول ليس الا سنة من الكرى وطيفا من الامانى .

ويعجبنى قوله فى وصف القصر :

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كانها فى استواء ألفات الوزير فى عرض طرس

وان كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شىء من الضعف ، اذ كان جمال الخط لايتعدى الحسن الى الجلال والفرق بعيد بين الحسن الفاتن والجمال الرائع فجمال النهر فى الليالى المقمرة فيه حسن وفتنة وفيه أيام السرار روعة وجلال .

وقول شوقى :

ومكان الكتاب يغريك ريا ورده غائبا فتدنو المس

مأخوذ من قول البحترى :

يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهمو يداى بلمس

وبيت البحترى أجود فى معناه وهو كذلك يقتضيه السياق ،اما بيت شوقى فهو فى مكانه غريب وقول شوقى بعد ذلك الوصف :

صنعة (الداخل) المبارك فى الغرب وآل له ميامين شمس

فيه ضعف وكأنه لم يقله الا على سبيل التكملة وما أغنى الشعر عن مثل هذا التذييل !!

الفصل بين البحترى وشوقي

رأينا كيف وصف البحترى ما رآه فى الايوان من رسم الموقعة بين الفرس والروم ونذكر الآن انه انتقل من ذلك الوصف الى الحديث عن تلك الكأس الروية التى اصطبح بها فى الايوان فقال :

قد سقانى ولم يصرد أبو الغو　　ث على العسكرين شربة خلس
من مدام تقولها هى نجم　　أضوأ الليل أو مجاجة شمس
وتراها اذا أجدت سرورا　　وارتياحا للشارب المتحسى
أفرغت فى الزجاج من كل قلب　　نهى محبوبة الى كل نفس
وتوهمت ان كسرى ابرويز　　معاطى والبلهبذ أنسى
حلم مطبق على الشك عينى　　أم امان غيرن ظنى وحدسى

وهذه القطعة لاتجد ما يقابلها فى سينية شوقى لأن صاحب الشوقيات لم يزر اطلال الحمراء ليغرق همومه هناك فى اكواب الشمول كما فعل البحترى وهو يزور الايوان فكان لنا ان ندرس هذه الابيات على سبيل الاستطراد اذ لاتقتضيها الموازنة ولا يدعو اليها التفصيل ونحن نستملح قوله :

من مدام تقولها هى نجم　　أضواء الليل أو مجاجة شمس

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال وعجز هذا البيت يشفع لصدره •

وقد تدخل اللفظة فى شفاعة اللفظات ، ويمر البيت فى خلال الأبيات ، كما يقول صاحب زهر الآداب ، وكذلك نستجيد قوله فى وصف تلك الصهباء :

وتراها اذا أجدت سرورا　　وارتياحا للشارب المتحسى
أفرغت فى الزجاج من كل قلب　　فهى محبوبة الى كل نفس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسى الى المدام ، ثم يخالها افرغت فى الزجاج من كل قلب • ولا تنسى انه يقول (من كل قلب) وانها

لذلك (محبوبة الى كل نفس) فان لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعانى • وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحترى فتوهم ــ ومن ذا الذى لا يتوهم وهو فى مثل حاله ــ ان كسرى ندبمه ، والبلهبذ أنيســه ، وكيف ثاب الى رشده وأخذ يفكر أهو فى حلم أطبق عينيه على الشك ، أم هى أمان غيرن ظنه وحدسه • وفى هذا الترديد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب فى رأس المتعقــل النشــوان •

ثم عاد الى وصف الايوان فقــال :

وكأن الايوان من عجب الصــــنعة جـوب فى جنب أرعن جلس
يتظنى من الكآبة ان يبـــدو لعينى مصـبح أو ممسى
مزعجا بالفراق عن أنس ألف عز أو مرهقــا بتطليق عرس
عكست حظه الليالى وبات المشــــترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجـلدا وعليــه كلكل من كلاكل الدهر مرسى
لم يعبــه أن بز من بسط الديبــاج واستل من ستور الدمقس
مشمخر تعــلو له شرفــات رفعت فى رءوس رضوى وقدس
لابسات من البيــاض فمــا تبصــر منهــا الا فلائل برس
ليس يدرى أصنع انس لجــن سكنوه أم صــنع جن لانس
غير انى أراه يشـــهد ان لــم يك بانيه فى الملوك بنــكس

وفى هذه القطعة نجد البحترى يتمثل الايوان فى صورة المحب أترعت الليــالى كأسه بأنس أليفه ، ثم أزعجته بالفراق ، والعــروس أصفاه الدهر حلاوة الوصــل ، ثم أرهقه بالطلاق ، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعينى من يطالعه عند الصباح أو عند المساء ، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليــالى ، فأصبح مثار الشجى ، مبعث الأسى ، بعد أن كان من مرابع الغزلان ، وملاعب الحور الحسان!!
وانظر كيف يقــول :

فهـــو يبـــدى تجـلدا وعليـــه
كلـــكل من كلاكل الدهـــر مرسى

وفى هذا البيت صورة رائعة لذلك الايوان الذى صوره البحترى (كائنا حيا « أناخ الدهر عليه بكلكله وأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز وكيف يكون العدم بعد الوجود . وللشاعر فى الديار الخالية وقمات تبعث ميت الوجد ، وتثير دفين الاحساس فان كنت فى ريب من ذلك فحدثنى أى شيطان أو أى ملاك أوحى الى البحترى : ان الايوان أصبح ـ وقد استلت منه ستور الدمقس وبسط الدييـــاج ـشبيها بالغادة الحسناء نزع عنها البـؤس ما كانت تملك من الثيـاب فأضحت متجردة تدعوك الى الرحمة حينا وتغريك بالفتون أحيانا؟

ونحن نعيذ القارىء أن يرمينا بالغلو والاسراف فهذا والله ما نفهمه من قول البحترى :

لم يعبه أن بز من بسط الديبـا ج واستل من ستور الدمقس

وكذلك نزع الدهر ما كان بالايوان من عارض التهاويل ، وخلاه كالغادة المتجردة لا تدرى أكان تجردها من قسوه الفقر أم من سكر الدلال ..

وما نريد أن نزيد ؛ وللقارىء أن يتأمل حسن الأداء فى قوله :

عكست حظه الليالى وبات المشترى فيه وهو كوكب نحس

فانه لم يقل (بات المشترى فيه كوكب نحس) وانما قال (بات المشترى فيه وهو كوكب نحس) وكلمة وهو لها ما لها من الفضل فى تأكيد المعنى وتقريره عند علماء المعانى وكذلك قوله فيما صارت اليه شرفات الايوان :

لابسات من البياض فما تبصر منهـا الا فلائل برس

فان كلمة (من) لها هنا موقع جميل وهى أدل على التقليل من التنوين .. أما قوله

ليس يدرى أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس

فهو من عيون هذه القصيدة ، والعرب ينسبون الى الجن صنع كل عجيب ، وهى خرافة قديمة تزخر بها الأساطير وهى كذلك مورد من موارد الخيال — وكان من المستهجن أن يعقب البحترى على هذا البيت الفرد بقوله :

غير انى أراه يشهد أن لم يك بانيه فى الملوك بنكس

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد .. وقد عاد الى وصف ما فى الايوان فقال :

فكأنى أرى المراتب والقو م اذا ما بلغت آخر حسى
وكأن الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وكأن القيان وسط المقا صير يرجحن بين حو ولعس
وكأن اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس
وكأن الذى يريد اتباعا طامع فى لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهرا وصارت للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع موقفات على الصبابة حبس

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد البحترى فى اعطاف الايوان والبحترى بهذا الوصف فنان يقول على علم ويعرف ما يعنى ولك أن تتأمل كلمة كأن وموقعها الجميل فى قوله : وكأن الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس وقوله .

وكأن القيان وسط المقا صير يرجحن بين حو ولعس

وقوله :

وكأن اللقـــاء أول من أمـــ س ووشك الفراق أول أمس

وقد دللت القارئ على مواطن الحسن فى هذه القصيدة فلينهل بعد ذلك من رحيقها كما يشـــاء .

نفثة شـــوقى

أما شوقى فقد أخذ يبكى الحمراء بعد وصفها فقال :

من لحمــراء جللت بغبـــار الدهـــــــــر كالجرح من برء ونكس
كسنا البرق لو محا الضوء لحظا لمحتهـــا العيون من طول قبس
حصن غرناطة ودار بنى الأحمـــــــــــر من غافل ويقظـــان نـــدس
جلل الثلج دونها رأس شيرى فبدا منه فى عصائب برس
سرمد شـــيبه ولم أر شيبا قبــله يرجىء البقـــاء وينسى
مشت الحادثات فى غرف الحمرا ء مشى النعى فى دار عـــرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنهـــا واستراحت من احتراس وعس
ومغان على الليـــالى وضاء لم تجـــد للعشى تكرار مس
لاترى غير وافدين على التـــــــــاريخ ساعين فى خشوع ونكس
نقـــلوا الطرف فى نضارة آس من نقوش وفى عصـــارة ورس
وقباب من لا زورد وتبـــر كالربا الشم بين ظل وشمس
وخطـــوط تكفلت للمعـــانى ولألفاظهـــــــا بأزين لبس
وترى مجلس السباع خـــلاء مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جـــوارى الثـــريا يتنـــــزلن فيه أقمـــار أنس
مرمر قامت الاســـود عليـــه كلة الظفـــر لينـــات المجس
تنثر الماء فى الحياض جمانا يتنـــــزى على ترائب ملس

وفى هذه الكلمة نرى شوقى يتمثل الحمراء ، وهى مجللة بغبار الـدهر وهذا خيـال رائع ، ولكنه ليس بكثير على شوقى فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان الحوادث والافصاح عن عسف الخطوب ويكاد يستنطق الموت وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق .. وانظر كيف يذكر ان الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس وهذا أصدق تصوير لذلك الاثر الذى يحج اليه احفاد بناته فيعدونه ويمنونه لوتنفع الامانى او تصدق الوعود ومن ذا الذى لم يفكر فى نكبة الحمراء ، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد ؟ ولكن أين فتوة العرب وأين شباب الزمان ؟ وللقارىء أن يتصور كيف مشت الحادثات فى غرف الحمراء مشى النعى فى دار عرس فهذا أيضا خيال رائع وهو مأخوذ من قول ابى نواس :

فتمشت فى مفاصـــلهم كتمشى البـــرء فى الســقم

مالنا ولهذا التكلف ؟ فقد ذكر النقاد ان ابانواس كذلك مسبوق على ان تشبيه هتك الحوادث لاستار الحمراء بهتك النعى لدار العرس اروع من تشبيه أثر الخمر فى مفاصل الندامى بأثر البرء فى جسم السقيم وقول شوقى :

مشت الحادثات فى غرف الحمـــراء مشى النعى فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سـدة الباب من سمير وأنس

فيه روعة وفيه جلال فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان .. اما قوله :

وترى مجلس السباع خلاء مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جـوارى الثريا يتنزلن فيـه أقمـار أنس

فهو وصف انفرد به ولم يعرض لمثله البحترى وكان عجبا ان يغفل عن ايراده فان القصور الخالية تذكر الانسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب من كل ممشوقة القد • مجدولة الخلق ، مصقولة الجبين •

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقى كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ولا أعير بغير ذلك فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلى الفردوس ويرونه حسبهم من نعيم الآخرة والأولى ، ولقد نظر شوقى الى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال :

آخـر العهد بالجـزيرة كانت ... بعـد عرك من الزمان وضرس
فتراها تقـول : رايـة جيش ... بـاد بالأمس بين أسر وحس
ومفاتيحهـا مقـاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القـوم فى كتائب صم ... عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشـا وكانت ... تحت آبائهم هى العرش أمس
رب بان لهـادم وجمـوع ... لمشـت ومحسـن لمخس
أمره الناس همه لا تـأتى ... لجبـان ولا تسـنى لجبس
واذا ما أصاب بنيان قـوم ... وهى خـلق فانه وهى أس

ومع أن شوقى أشار كماترى فى هذه الأبيات الى أن ضعف العرب فى أخريات أيامهم كان السبب فى خروجهم من تلك البلاد ، اذ كانت امرة الناس لا تتسنى لجبس ولا تتأتى لجبان ، فقد اشار كذلك برفق الى ان عهدهم لم ينقض الا بعد عرك من الزمان وضرس • والحق ان فتح العرب للاندلس كان من الأحداث الخطيرة وكان من الطبيعى ان تدور عليهم الدائرة وان يحل بهم ماحل بالفرس والروم ولا اذكر ماشب فى صدورهم من نار العداوة والبغضاء ، ولا ماشجر بينهم على الملك من

الخلاف ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ولكن أذكر انهم كانوا يحتلون بلادا لايزال اهلها يفكرون فى الحرية ويحلمون بالاستقلال والامة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة ابد الآبدين كما يتوهم الفاتحون وانما يظل ضعفها يفتك بالغاصبين فى خفاء كما تفتك على ضعفها الجراثيم ثم ينفض هذا الضعف فجأة فاذا هو جارفة قوية تسقط من بأسها الممالك وتطيح من هولها العروش ، فان كنت فى ريب من ذلك فحدثنى ماذا صنع العرب بالشعوب التى ملكوها باسم الدين ألم تثأر تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوساوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لاتصلح لزينة ولاستر ولا وقاية ؟ اسمع ياصاح .

القوة هى كل شىء فى هذا الوجود ، والقوة فوق الحق فان أردت أن تحيا فتسلح لهذه الحياة القوة هى السلاح . ومن قال بغير ذلك فهو فى حاجة الى استشارة الطبيب .

وكذلك كان العرب فقد ركبوا البحر وهم أقوياء فكان عرشا وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشا ، وماتغير البحر ولكن تغير الناس ركبوه أول مرة وهم فاتحون ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار .

ثم قال شوقى فى توديع تلك الديار :

يا ديارا نزلت كالخلد ظلا ... وجنى دانيا وسلسال أنس
محسنات الفصول لا ناجر فيها ... بقيظ ولا جمادى بقرس
لا تحس العيون فوق رباها ... غير حور حو المراشف العس
كسيت أفرخى بظلك ريشا ... وربا فى رباك واشتد غرسى
هم بنو مصر لا الجميل لديهم ... بمضاع ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنائك وقف ... وجنان على ولائك حبس

حسبهم هــذه الطلول عظــات   من جديد على الدهور ودرس
واذا فاتك التفــات الى الما   ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

وما أريد الخوض فى تحليل هذه الأبيات فقد طال الحديث انما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقى فى الأندلس وغنمنا معها «قطعة خشب» من قصرالحمراء تجدها فى متحف الشاب المهذب حسين شوقى ويا ليتنا نحرص على ما بقى فى أيدينا من ملك العرب والمسلمين.

وسيذكر القارىء بعد هذا كله انى أوازن بين البحترى وشوقى وسيسأل أيهما أشعر وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء .. أما أنا فقد حكمت والسلام (١) .

---

(١) بمناسبة سينية البحترى يحسن أن نشير الى أن الشاعر محمد الهراوى وضع قصيدة سينية عن أبى الهول كان فيها معنى المعارضــة للبحترى وان لم يقل ذلـك وهى قصيدة جيدة نختار منها قوله :

نبىء الناس ابا الهول انا
امة كالحديد صلب المجس
لم يعبنا انا بلتنا شعوب
وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من سادنا اذقناه سوءا
بيــد الله كل كاس بكــاس
فاسالوا الروم ما دها الروم فينا
واسالوا الفرس عن مصاب الفرس
امم تلك ذات ناب وضرس
قد مضغنا ما بين ناب وضرس
فنيت كلهــا ونحن بقينا
من حمى الله فى حظيرة قدس

وللهراوى قصيدة أخرى سينية هى بلا شك من وحى البحترى وهى قصيدته التى وقف بها على دار الشيخ محمد عبده فى عين شمس وكان من الحتم أن يشير الى ذلك ليبين كيف سرت أنفاس البحترى الى شعراء هذا الجيل .

البوصيرى وشوقى

للبوصيرى قصيدة مشهورة تسمى « البردة » عارضها شـوقى بقصيدة سماها نهج البردة . وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيرى وشوقى من العلم بأسرار الاسلام فقد عنى هذان الشاعران بدرس الشريعة لاظهار مافيها من المحاسن ودرء مايوجه اليها من الشبهات ، وسيكون موقفنا فى درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ . وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص . وحسبنا أن ندل القارىء على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة اسلاميـة ، وللقارىء بعد ذلك رأيه فان شاء مضى فى البحث والتنقيب ، وان شاء رضى واكتفى بما عليه عامة الناس ، والله يهدى من يشـاء الى صراط مستقيم .

حياة البوصيرى

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج كان أحد أبويه من (أبوصير) والأخرين (دلاص) فركبت له منهما نسبة وقيـل : (الدلاصيرى) لكنه اشتهر بالبوصيرى .. وكان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلبيس (١) .

(١) توفى البوصيرى سنة ٦٨٥ هـ . ، وله قبر مشهور فى الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية .

والبوصيرى شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع تجرى فى شعره النكت المستملحة وله فى شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء ، وفى شعره وصف للحالة الاجتماعية فى عصره وأحسبه من الصادقين فهو يذكر ان الموظفين كانوا يسرقون الغلال وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمور ، وان من الكتاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت وتأكل مال الايتام .

ومن شعر البوصيرى فيما يجرى مجرى الدعابة قوله فى الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أهوى والمشيب قد حال دونه   والتصابى بعد المشيب رعونه
أبت النفس أن تطيع وقالت   ان حبى لا يدخل القنينه
كيف أعصى الهوى وطينة قلبى   بالهوى قبل آدم معجونه
سلبته الرقاد بيضة خدر   ذات حسن كالدرة المكنونه
سمتها قبلة تسر بها النفس فقالت كذا أكون حزينه
قلت لا بد أن تسيرى الى الدا   ر فقالت عسى ! أنا مجنونه !
قلت سيرى فاننى لك خير   من أب راحم وأم حنونه
أنا نعم القرين ان كنت تبغـ   ـين حلالا وأنت نعم القرينه
قالت اضرب عن وصل مثلى صفحا   واضرب الخل أو يصير طحينه
لا ارى ان تمسنى يد شيخ   كيف أرضى به لطشتى مشينه
قلت انى كثير مال فقالت   هبك أنت المبارز القمارونه

وهذا شعر ضعيف ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا الشيخ رضى الله عنه وأرضاه .

وأظرف من هذه القطعة أبياته التى بعث بها الى ناظر الشرقية وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته فكتب على لسانها اليه:

يا أيها السيد الذى شـــهدت أخـلاقه لى بأنه فاضـــــل
ما كــــان ظنى يبيعنى أحـد قط ولكن صــاحبى جــاهل
لو جرسوه على من ســفه لقلت غيظـا عليه يستاهل
أقصى مرادى لو كنت فى بلدى أرعى بها فى جـوانب الساحل
وبعد هـذا فمـا يحـل لـكم أخذى لأنى من سيدى حامل

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات ورد اليه الحمارة ولم يـكن فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التى بعث بها الى أحد الوزراء فى شكوى حاله وهى قصيدة طريفة يذكر فيهـــا أنه فقير وأن أبنــاءه لا يجدون ما يأكلون وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد .. وان امرأته زارت اختها وشكت اليها سوء الحال فأشــارت عليها بضربه ونتف ذقنه شعرة شعرة ، وفى تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير :

اليـك نشكو حالنـا اننـا حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكـــن لنـا عائلة فى غـــاية الكثـره
أحدث المولى الحديث الـذى جرى لهم بالخيط والابـــره
صـــاموا مع الناس ولكنهم كانوا لمن أبصرهم عـــبره
ان شربوا فالبئـر زير لهـم ما برحت والشربة الجـــره
لهم من الخبيز مســـلوقة فى كل يوم تشـــبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حـــولها تنزهـوا فى المـــاء والخضره
وأقبل العيد ومـا عنـــدهم قمح ولا خبز ولا فطـــره
فارحمهمو ان عاينوا كعكـة فى كف طفل أو رأوا تمـره
تشخص أبصـارهمو نحـوها بشـــهقة تتبعهـــا زفـــره
كم قائل يا ابتــا منهمـــو قطعت عنا الخبـز فى كـره
ما صرت تأتينـــا بفلس ولا بدرهم ورق ولا نقـــره

وأنت في خدمة قوم فهل تخدمهم يا أبت سخره
ويوم زارت أمهم أختها والاخت في الغيرة كالضره
وأقبلت تشكو لها حالها وصبرها مني على العشره
قالت لها كيف تكون النسا كذا مع الأزواج ياعره !
قومي اطلبي حقك منه بلا تخلف منك ولا فتره
وان تأبي نخذي ذقنه أو انتفيها شعرة شعره
قالت لها ما هكذا عادتي فان زوجي عنده ضجره
أخاف ان كلمته كلمة طلقني قالت لها بعره
وهونت قدري في نفسها فجاءت الزوجة مجتره
فقاتلتني فتهددتها فاستقبلت رأسي بآجره
وحق من حالته هذه أن ينظر المولى له أمره

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ولا تزال بقاياها موجودة في بلبيس (١) •

قصيدة البرده

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيمة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء ، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيدة فان قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر منه المولدون • وقد مدح الرسول في حياته، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا الا أغن غضيض الطرف مكحول

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل مافي كتاب المدائح النبوية في الأدب العربي •• » •

ومدحه الأعشى بداليته التي يقـول فيهـا :

فأقسمت لا أرثى لها من كلالة ... ولا من وجى حتى تلاقى محمدا
نبى يرى ما لاترون وذكـره ... أغـار لعمرى فى البلاد وأنجدا

ويرتاب الدكتور طه حسين فى قصيدة الأعشى ويظنها من وضع الرواة ، وهى على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية .. وكذلك بانت سعاد لأن المدح الذى جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئا عن غيره من المدح الذى جرى فى ذلك العهد موجها الى الملوك، أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شمائل النبى وسرد ما فى الرسالة من المحاسن الباقية . ودفع ما وصم به الرسول من النقائص والعيـوب وهى فوق هذا كله تقال وتنشد تقربا الى الله وهى عند الصـوفية من جملة الأوراد .

البردة

وقد حدثنا البوصيرى عن سبب وضعه للبردة فقال : « كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ماكان اقترحه على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج أبطل نصفى ففكرت فى عمل قصيدتى هذه فعملتها واستشفعت بها الى الله تعالى فى أن يعافينى وكررت انشادها ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فمسح عى وجهى بيده المباركة وألقى على بردة فانتبهت ووجدت فى نهضة فقمت وخرجت من بيتى ولم أكن أعلمت بذلك أحدا فلقينى بعض الفقراء فقال لى: أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت أيها ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك وذكر أولهـا فقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة فأعطيته اياها وذكر الفقير ذلك وشاع المنـام » .

وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى فهو رجـل فيه طيبة وسذاجة وكأكثر الصوفية فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها أو قصيدة ينشدها كما يرى البوصيرى بقصيدته ولو مرض مفتى الديار المصرية ــ لا سمح الله ــ ما استغنى بالبردة عن الطبيب. ولعل حكاية البوصيرى هذه هى سبب ما سـار بجانب البـــردة من الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون . وهذا النوع من الغفلة قديم فقد كان لزمخشرى يذكر شيئا من مثل هذا عن سـور القرآن .. ونلاحظ كذلك أن البوصيرى كرر عبارة «صلى الله عليه وسلم» خمس مرات فى هذه الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبى كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين وقد زاد البوصيرى على ذلك فى القصيدة المصرية . فهو يدعو الله أن يصـلى على النبى وشيعته وصـحبه عدد الحصى والثرى والمدر وعدد نجم السماء ونبات الأرض وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر ..وما حوت الأشجار من ورق وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطـير والأسماك والأنعام وعدد الجن والانس والأملاك وعدد الذر والنمل والحبـوب والشعر والصوف والريش والوبر .. وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر . وعدد نعم الله على الخلائق ومذ كانوا ومذ حشروا وعدد ما كان فى الأكوان وما يكون الى يوم البعث وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد :

فى كل طـرفة عين يطـرفون بهـا
أهل السموات والأرضـين أو يذروا
ملء السـموات والأرضين مع جبـل
والفرش والعرش والكرسى وما حصروا
ما أعدم الله موجودا وأوجد معـ ـدوما صلاة دواما ليس تنحصر
تسـتغرق العد مع جمع الدهو ر كما تحيط بالحد لاتبقى ولا تذر

وهذا النمط من الصلاة على النبى لم يكن معروفا فى صدر الاسلام وانما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب دلائل الخيرات ..

والبردة بعد هذا كله مشهورة فى جميع الأقطار الاسلامية وقد كانت جزءا من الهدية التى قدمها ابن خلدون الى تيمورلنك ولهذه الهدية قيمتها فى تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين ..

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقى تذكارا لحج الخديو السابق سنة ١٣٢٧ هـ وقدمها اليه بكلمة صغيرة ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشرى شرحا وجيزا بينا قال فى نهايته (ولو أن الكاتب عمد الى كل بيت ففسر غريبه وفصل مجمله وأفشى معناه ونزل عند مغازيه وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه وأرسل الاشارة الى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التى يومأ اليها فيه . ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام وغير ذلك مما يجرى فى شرح الكلام ويدخل فى أبواب نقده وتفسيره أطال القول وتجاوز القصد » .

وكنا نسمع فى مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشرى لم يشرح نهج البردة وانما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشرى وهذا كلام نقوله لأهميته فى تاريخ الآداب فان شاء الشيخ عبد العزيز ايده وان شاء نفاه (١) . ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد

---

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز البشرى من هذا الكلام ، وساجلناه فى جريدة البلاغ وهو يؤكد ان اباه رحمه الله هو صاحب الشرح ولحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذى كتب ذلك الشرح وكان الشيخ سليم رحمه الله غنيا بفضله الحق عن مثل هذا الفضل المفتعل ولكن هذا ما وقع وليت شعرى كيف نطمئن الى الأخبار الأدبية اذا عز علينا أن نحقق خبرا قامت الشواهد على صحته ونحن شهود العصر الذى وقع فيه .

بك المويلحى وهى مقدمة تتناسب مع ما كتبت له . فقد حقق فيها ان الشعر باب من أبواب الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبحه كقبح الكلام. وأتعب نفسه فى التفرقة بين الشعر وبين القرآن ، ووصل الى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر فى شىء وأين هو من الشعر ؟ والشعر انما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن وأين التقفية واين المعانى التى ينتجها الشعراء من معانيه واين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه ، ثم قال :

« فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعراء اذا حققت » وكان الظن يصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام فى تحريم الشعر وباحته مما ينبو عنه الذوق فى القرن العشرين .

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيدا للموازنة بين البردة ونهج البردة وانا لنرجو أن يكون فى هذا التمهيد بعض الغناء .

بين البوصيرى وشوقى والبارودى

ابتدأ البوصيرى قصيدته بالتشبيب ونحا شوقى منحاه وتلك عادة عربية قديمة لم يفكر الشعراء فى تركها الا فى هـــدا الجيل وان كان من قدمائهم من نالها بملام كالمتنبى اذ يقــول :

اذا كان مدح فالنسيب المقــدم   أكل فصيح قال شــعرا متيم ؟

وكان للصوفية شىء من الغزل المستملح المقبول فكان مريدوهم يؤولونه ويرونه موجها الى الذات الالهية أو الحضرة النبوية ولهــم فى ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين ، فليرجع اليها من شــاء فى كتب التوحيد ليقف على شىء من تصورات أولئك الناس فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم من المجون وجعلوه نوعا من الرمز والتمثيل وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية وألحقوا مــا يجرى بين عشاق الأرواح بما يجرى بين عشاق الأشباح الى آخر مالهم فى هذا الباب من لطف الاحتيال .

وهذا كله اثر تلك العادة : وهى افتتاح الشعر بالنسيب وهى عادة لم يقلع عنها شوقى واظرف ما وقع له فى هذا المسلك قصيدته فى مشروع ملنر ، فقد افتتحها بهذه الأبيات :

اثن عنان القلب واسلم بـه | من ربرب الـرمل ومن سربه
ومن تثنى الغيـد عن بانـه | مرتجة الارداف عن كثبـه
ظباؤه المنكسرات الظبـا | يغلبن ذا اللب على لبـه
بيض رقاق الحسن فى لمحة | من ناعم الدر ومن رطبـه
ذوابل النـرجس فى أصله | يوانع الورد على قضبـه
زن على الأرض سماء الدجى | وزدن فى الحسن على شهبه
يمشين أسرابا على هينـة | مشى القطا الآمن فى سـربه
من كل وسنان بغير الـكرى | تنتبـه الآجال من هدبـه

وهى قصيدة طويلة ثلثها فى النسيب ويذكر شوقى انه قالها كارها ولا يبعد على هذا ان يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءا من المنحة التى اجتداها انصار المشروع اذ ذاك ، وقد رأيت من شـعراء العصر من يعجب من الحملة التى وجهها النقاد الى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعا من الرياضة لقرائح الشعراء واذكر انى رأيت فى كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى فقد كان منهم من يرى التوفيق الى اجـادة التشبيب بابا للتوفيق الى الاجادة فى سائر القصيد ، ومهما يكن من شىء فقد سار البوصيرى وشوقى على أثر من تقدمهم من الشـعراء ولا تقل كان الادب يقضى بتجنب هذا المنهج فى المدائح النبوية فقـد شبب كعب بن زهير بمحبوبته وهو فى حضرة الرسول فما لامه النبى ولا أنكرها عليه اصحابه ولا أخذه بها مؤرخو الآداب .

ولنا ان نلاحظ أن البوصيرى جرى فى تشبيبه مجرى المحـاكاة والتقليد فانا نراه يقول فى مطلع البردة :

أمن تذكر جـيران بذى سـلم | مزجت دمعا جـرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة | وأومض البرق فى الظلماء من اضم

وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب فى أرض بنى البكاء على طريق البصرة الى مكة كما ذكر ياقوت وفيه يقول كثير :

أمن آل سلمى دمنة بالذنائب   الى الميث من ريعان ذات المطارب
يلوح بأطراف الأجدة رسمها   بذى سلم أطلالها كالذواهب

وكاظمة جو على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، وفيه يقول بعض الشعراء :

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة   يسعى على قصران المرخ والعشر
لله در بيوت كان يعشقها   قلبى ويألفها ان طيبت بصرى
فقدتها فقد ظمآن اداوته   والقيظ يقذف وجه الأرض بالشرر
أمنية النفس أن تزدار ثانية   وحالنا والأمانى حلوة الثمر

واضم واد بجبال تهامة وهو الوادى الذى فيه المدينة وفيه يقول سلامة ابن جندل :

يا دار أسماء بالعلياء من اضم   بين الدكادك من قو فمعصوب
كانت لها مرة دارا فغيرها   مر الرياح بسافى الترب مجلوب

وذكر البوصيرى لهذه المواطن وشغفه بها وحنينه اليها ينافى مصريته وكان له أن يتشوق الى أحبابه فى بلبيس أو فاقوس ، كما يتشوق بعض الناس الى احبابه فى سنتريس واسيوط ولكن يظهر ان المعانى العربية كانت احتلت رءوس الشعراء فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد وسلع واروند ، وان لم يكن لهم بهذه المواطن هوى ، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق ولذلك نجد التكلف ظاهرا فى حديث البوصيرى عن جيرانه بذى سلم ونحسبه اختارها للقافية كما اختار «اضم» لهذا الغرض وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن اروند ببغداد :

وقالت نساء الحى أين ابن اختنا   ألا خبرونا عنه حييتمو وفدا
رعاه ضمان الله هل فى بلادكم   أخو كرم يرعى لذى حسب عهدا
فان الذى خلفتموه بأرضكم   فتى ملأ الاحشاء هجرانه وجدا

أبغداد كم تنسيه أرولد مربعـا ... ألاخاب من يشرى ببغداد أروندا
فدتهن نفسى ؛ لو سمعن بما أرى ... رمى كل جيد من تنهده عقـدا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق الى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا اليـه من انه يتغزل محاكاة وتقليدا ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية وحن الى مغنى من مغانى النيل (١) • ولم يتقيد شوقى بهذا القيد حين قـال :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وانما أطلق نفسه من ربقة التقليد فلم يتحدث عن نجد ولا عن تهامة وان غلبت عليه بعض الأخيلة العربية فان سفك الدم فى الاشهر الحرم بقية من خيال الاعراب فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السـيوف ويظلون لا عاصم لهم من فتك العيون •

ولم يوفق البوصيرى الى حسن الأداء حين قال :

أمن تذكر جيران بذى سـلم ... مزجت دمعا جرى من مقـلة بدم

فان قوله « جرى من مقلة » حشو لا قيمة له ، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من ان ذلك تأكيد فانه لم يشك احد فى أن الدم يجرى من العـين •

ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة «على القاع» فى قول شوقى

« ريم على القـاع بين البان والعلم »

أما قـوله :

« أحل سفك دمى فى الأشهر الحـرم »

---

(١) فى كتاب « المدائح النبوية » توجيه لكلام البصيرى فارجع اليه هناك •

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع وفيه براعة استهلال وهو كذلك غاية فى حسن الأداء ، وقول البوصيرى :

فما لعينيك ان قلت اكففاهمتا وما لقلبك ان قلت استفق يهم

فيه ضعف وابتذال وهو غير موصول بسابقبه وقد انتقل قبل أن يتم المعنى فقال :

أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

وقد حار الشراح فى ربط هذه الأبيات :

وقد يستجاد قوله :

فكيف تنكر حبا بعد ماشهدت به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى مثل البهار على خديك والعنم

وشوقى أبرع من البوصيرى فى الحديث عن طيف الخيال فانا نجد البوصرى يقول :

نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى
والحب يعترض اللذات بالألم

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى . أما شوقى فقد أفصح عن مراده حين قال :

يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبدا
أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم
افديك الفا ولا آلو الخيال فدم
أغراك بالبخل من أغراه بالكرم
سرى فصادف جرحا داميا فأسا
ورب فضل على العشاق للحلم

والفرق بين قول البوصيرى :

« نعم سرى طيف من أهــوى فأرقنى »

وبين قول شــوقى :

« سرى فصادف جرحا داميا فأســا »

وشوقى يجيد هذا النوع من الترتيب وهو صاحب هــذا البيت البـــديع :

نظرة فابتسامة فســـلام   فكلام فموعــد فلقــاء (١)

وقول شوقى « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قــول البوصيرى :

« والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقى :

يا ناعس الطــرف لا ذقت الهــوى أبــدا
أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

فهو عندى أغزل بيت قاله المحدثون .. وفى قوله :

أفديك الفــــا ولا آلو الخيـــال فدى
أغراك بالبخل من أغــراه بالـــكرم

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب فهو يغرى المحبوب بالبخل ويغرى طيفه بالجــود ، وسماحة الطيف باب الى اضطرام الفؤاد .

ويقول البوصيرى فى مدافعة اللائمين :

يا لائمى فى الهــوى العذرى معذرة
منى اليك ولو أنصفت لم تــلم

---

(١) نقدنا هذا البيت فى بعض مؤلفاتنا فقلنــا انه نظرة سينمائية ، ولكن قد يتفق أحيانا أن تتلاقى القلوب باسرع من ذلك ، وللقلوب وثبات أسرع من البرق .

ويقول شوقى :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر   لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

وبيت شوقى أجمل وقوله « الهوى قدر » من أبدع ما قيل فى دفع العذل والملام (١)

اما قوله « لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم ». فهو اجود فى معناه من قول الشريف الرضى :

أقول للائم المهدى ملامته   ذق الهوى وان اسطعت الملام لم

ومن قول ابن الفارض :

دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى   فاذا عشقت فبعد ذلك عنف

ولكن البوصيرى كان أرق ، وهو يحاور اللائم بقوله :

عدتك حالى لاسرى بمستتر   عن الوشاة ولا دائى بمنحسم

اما شوقى فقد غلبت عليه الحكمة وهو يقول فى حوار لائمة :

لقد أنلتك أذنا غير واعية   ورب منتصت والقلب فى صمم

وشوقى يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة ، وتلك احدى سماته ولكنها قد تزحزحه عن اصابة الغرض فى بعض الأحيان ، على ان من الحق ان نذكر ان شوقى يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل اذنا غير واعية وقلبا غير سميع . ولا كذلك البوصيرى فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة ووصف لائمه بنصح الحبيب حين قال :

محضتنى النصح لكن لست أسمعه
ان المحب عن العذال فى صمم

---

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال ان هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية : « وعد ومكتوب على ومقدر عالجبين » ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقى : « والهوى قدر » .

الى هنا فرغ البوصيرى من النسيب فلنقف قليلا عند المعانى الى انفرد بها شوقى وانا لنستجيد قوله :

رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

وهذا معنى قديم والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمى به القضاء فهو لا يذكر ان الجؤذر رماه .. وانما يذكر ان القضاء رماه بعينى جؤذر والقضاء خبير بأنواع النصال !

وقد بلغ غاية الرفق فى قوله :

لما رنا حدثتنى النفس قائلة ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى جرح الأحبة عندى غير ذى ألم
رزقت أسمح مافى الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر فى الشيم

والبيت الأخير يمت الى ما قبله بصلة ضعيفة ، لأن النظرة الفاتنة أعز وامنع من أن تعد من جملة الذنوب والذى يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية فما هذا المن على الجمال !

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبى :

ان كان سركمو ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكمو ألم

ثم أخذ شوقى يصف هذا السراب الذى صحب حبيبته فقال :

من الموائس بانا بالربا وقنا اللاعبات بروحى السافحات دمى
السافرات كأمثال البدور ضحى يغرن شمس الضحى بالحلى والعصم
القاتلات بأجفان بها سقم وللمنية أسباب من السقم
العاثرات بألباب الرجال وما أقلن من عثرات الدل فى الرسم
المضرمات خدودا أسفرت وجلت عن فتنة تسلم الاكباد للضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفا أشكاله وهو فرد غير منقسم

من كل بيضاء أو سمراء زينتا للعين والحسن فى الآرام كالعصم
يرعن للبصر السامى ومن عجب اذا أشرن أسرن الليث بالعنم
وضعت خدى وقسمت الفؤاد ربا يرتعن فى كنس منه وفى أكم

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، واستملح منها قوله :

العاثرات بألباب الرجال وما أقلن من عثرات الدل فى الرسم

فقد جعلهن يمشين على القلوب فيعثرن بقلب بعد قلب وان لم يسلمن من عثرات الدلال وهن يتخطرن فى الضحى وعند الأصيل ..

واستجيد كذلك قوله :

يرعى للبصر السامى ومن عجب اذا أشرن أسرن الليث بالعنم

فقد وصفهن بالخفر والحياء وذكر انهن يرعن حين تسمو اليهن العين والسحر كل السحر فى الحسن الحذر الهيوب .. وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفرات الليث إذا أشرن اليه بالبنان المخضوب .. وما اروع قوله بعد ذلك فى خطاب محبوبته .

يا بنت ذى اللبد المحمى جانبه ألقاك فى الغاب أم ألقاك فى الأطم
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه أن المنى والمنايا مضرب الخيم

من أنبت الغصن من صمصامة ذكر
وأخرج الريم من ضرغامة قرم
بينى وبينك من سمر القنا حجب
ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك الا فى غضون كرى
مغناك أبعد للمشتاق من ارم

وفى هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذى تحـوكه الطبيعة ، وانها لصناع ! ومن ذا الذى لم يفكر فى الرجـل يقطر من جوانبه البأس ، وتعيس الدنيا حين يعبس ويثور الوجود حين يثور ، وفى بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظبية تتثى أو غصـنا يميـد ..

وفوق شوقى :

ما كنت أعـلم حتى عن مسـكنه
ان المنى والمنـايا مضرب الخيـم

من آنبت الغصـن من صمصامة ذكر
واخـرج الريم من ضرغامة قـرم

أجود فى معناه من قول الطغرائى :

انى آريـد طـروق الحى من اضـم
وقـد حمـاه رماة من بنى ثعـل

يحمـون بالبيض والسـمر اللدان به
سود الغدائر حمـر الحلى والحـلل

وانما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التى سجل بها شوقى عجبه من آن ينبت الغصن من السيف الذكر ويخـرج الريم من الضرغامة القـرم !

وقول شـوقى :

بينى وبينك من سمر القنا حجب ... ومثلها عفـة عـذرية العصـم
لم أغش مغناك الا فى غضون كرى ... مغنـاك أبعد للمشـتاق من ارم

أصرح فى معنــاه وأجود من قول الطغرائى :

تؤم ناشئة بالجزع قد ســقيت نصالها بمياه الغنج والكحل(١)
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ما بالكرائم من جبن ومن بخــل
تبيت نار الهوى منهن فى كبد حرى ونار القرى منهم على القلل
يقتلن أنضاء حب لا حــراك بهم وينحرون كرام الخيل والابــل

---

(١) الغنج : حلاوة العينين .

قصيدة البارودى

ونريد أن نلم المامة قصيرة بقصيدة البارودى التى سماها (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة» وهى ميمية طويلة ضمنها سيرة النبى عليه الصلاة والسلام من حين مولده الى يوم انتقاله الى جوار ربه ، وبناها كما قال على سيرة ابن هشام . والبارودى شاعر فحل يعتز به تاريخ الأدب فى مصر وقد نوازن بينه وبين ابى فراس ، ولم نفكر فى الموازنة بينه وبين البوصيرى لأنا لم نتأكد من أنه رمى الى معارضته ، ولكن رأينـا من الواجب أن نقدم للقارىء نماذج من قصيدة (كشف الغمة) فى المواطن التى يعرض لمثلها البوصيرى وشوقى ليكون الموضوع أوفى .. وليجد القارىء فى تعدد الصور الشعرية مجـالا للنقد والتمييز فلنذكر الآن ما بدأ به البارودى قصيدته من النسيب قال :

يا رائد البرق يمم دارة العـلم ... واحد الغمام الى حى بذى سلم

وان مررت على الروحاء فامر لها ... اخلاف سـارية هتـانة الـديم

من الغـزار اللواتى فى حوالبها ... رى النواهل من زرع ومن نعم

اذا استهلت بأرض نمنمت يدها ... بردا من النور يكسو عارى الأكم

ترى النبات بها خضرا سـنابله ... يختال فى حلة موشية العلم

أدعو الى الدار بالسقيا وبى ظمأ ... أحق بالرى لكنى أخـو كرم

منـــازل لهـــواها بين جانحتى وديعـــة سرها لم يتصـــل بفمى
اذا تنسمت منهـــا نفحـــة لعبت بى الصبابة لعب الريح بالعـــلم
أدر على السمع ذكراها فان لها فى القلب منزلة مرعية الـــذمم
عهد تولى وأبقى فى الفـــؤاد له شوقا يفل شـــباة الرأى والهمم
اذا تذكرته لاحت مخـــايله للعين حتى كأنى منه فى حلم
فما على الدهر لورقت شـــمائله فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم
تكاءدتنى خطوب لو رميت بها مناكب الأرض لم تثبت على قدم
فى بلدة مثل جوف العير لست أرى فيها سوى أمم تحنو على صنم
لا أستقر بها الا على قـــلق ولا ألذ بهـــا الا على ألـــم
اذا تلفت حولى لم أجـــد أثرا الا خيالى ولم أسمع سوى كلمى
فمن يرد عـــلى نفسى لبانتهـــا أو من يجير فؤادى من يد السقم

وهذا شعر جزل رصين تغلب عليه سمة الجـــاهلية فى المنحى وفى الأسلوب ، فهو يستسقى للروحاء وما اليها من المغانى العربية ويجمـــع بين شتى الاغراض فى الموضوع الواحد • ويعرض له المعنى تبعا فيتحول اليه حتى لتحسبه نسى المعنى الأصيل ، ألا ترى كيف استسقى للروحاء وهذا هو الغرض الاول ثم مضى فى وصف السارية الهتانة الديم فقال:

من الغزار اللواتى فى حوالبهـــا رى النواهل من زرع ومن نعم
اذا استهلت بأرض نمنمت يدها بردا من النوريكسو عارى الأكم
ترى النبات بها خضرا ســـنابله يختـــال فى حلة موشـــية العلم

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم فانتقل من هذا الغرض الى وصف ما تكاءده من الخطوب وما منى به من الاقامة فى بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام •• لا يستقر به الا على قلق •• ولا يلذ به الا على ألم ، اذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير أصداء ••

وهذا بحث مجمل ، نرجو أن نعود اليه فى الكلمة الآتية بشىء من التفصيل •

اسلوب البارودى

قلت فى الكلمة الماضية : ان شعر البـــارودى تغلب عليه سمة الجاهلية فى المنحى وفى الأسلوب ، وذكرت فى تأييـــد ذلك انه قد يتحول الى المعنى الطارىء حتى لنحسبه نسى المعنى الاصيل ، وهـــذا الاسلوب معروف فى أشعار الجاهليين والمخضرمين ومن نحا نحـــوهم من شعراء الأعصر الخالية فانا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين ثم يترك المشبه ويمضى فى الحديث عن المشبه به فيقول:

كأن حمـــول المالكية غـــدوة　　خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أومن ســــفين بن يامن　　يجور بها الملاح طورا ويهتـــدى
يشق عبـــاب الماء حيزومها بها　　كما قسم التـــرب المفائل باليد

وتراه يهم بالحديث عن نفسه فيقول :

وانى لامضى الهم عنـــد احتضاره　　بهـــوجاء مرقال تروح وتغتـــدى

ثم يندفع فى وصف الناقة حتى لا يشك القارىء فى أنه قال من أجلها هذه القصيدة ، اذ يصفها فى أكثر من ثلاثين بيتا • ثم يعود بعـــد لأى الى الحديث عن نفسه فيقول :

ولست بحلال التـــلاع مخـــافة　　ولكن متى يسترفد القوم أرفـــد

وكذلك نجد كعب بن زهير يقول فى ثغر محبوبته سعاد :

تجلوعوارض ذىظلم اذا ابتسمت　　كأنه منهـــل بالـــراح معلول

ثم يمضى فى وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول :

شجت بذى شبم من ماء محنية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمون

تنفى الرياح القــذى عنــه وأفــرطه
من صـــوب سارية بيض يعـــاليل

وتراه يقــول فى بعد محبوته :

أمست ســعاد بأرض لا يبلغهـــا
الا العتــاق النجيبات المراســيل

وكان هذا كافيا فى الابانة عن بعد الشقة ولكنه وصف النـــاقة التى تبلغه تلك الأرض بنحو عشرين بيتا . ثم عاد بعد هذا كله الى ما رمى اليه من استعطاف الرسول فقال :

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهمو — انك ياابن أبى سـلمى لمقتول
وقال كل خليــل كنت آمـله — لا ألهينك انى عنـك مشـغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكمـو — فكل ما قدر الرحمن مفعــول
كل ابن أنثى وان طالت سـلامته — يوما على آلة حـدباء محمول
انبئت ان رسول الله اوعــدنى — والعفو عند رسول الله مأمول
مهــلا هــداك الذى أعطـاك نافلة القــرآن فيها مواعيظ وتزتيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم — أذنب وان كثرت فى الأقاويل

وقد سلك البارودى هذا المسلك فى قصيدته (كشف الغمــة) فقد رأينا كيف أفاض فى وصف السحب وهو يستسقى للروحاء وكيف انتقل من الحديث عن وجده الى الحديث عن غربته ولنــذكر الآن شاهدا آخر نؤيد به اختياره لهذا الأسلوب :

وصف الغــار

وصف القرآن الغار الذى آوى اليه النبى صلى الله عليه وسـلم مع الصديق وصفا لا زخرف فيه اذ قال « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصـاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » .

ووصفه آبو بكر رضى الله عنه على هذا النحو فقال « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين قلت يا رسول الله : لو أن احدهم رفع قدمه رآنا قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما » •

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت : « ولما كان ليلة بات النبى صلى الله عليه فى الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت فى وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار • واتى المشركون من كل بطن حتى اذا كانوا من النبى صلى الله عليه وسلم على قدر اربعين ذراعا معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار فقال لأصحابه : ليس فى الغار شىء رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد وقال رجل آخر : الغار ؛ فقال امية بن خلف: ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد » •

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة « هى أن النبى كان معه رفيقه فى الغار، وان الله انزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وصفت هذه الحقيقة فى القرآن وفى كلام الصديق وصفا يرجع فى جوهره الى الاشادة بفضل الله ورحمته ••

ووصفت فى كلام عائشة وصفا فيه شىء من الزخرف والخيال: اذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت ــ ولنا فى حديث عائشة رأى لا يسمح به ظرف الزمان ــ فلنذكر كيف تناول ــ البوصيرى وشوقى والبارودى الحادثة وكيف نحا البارودى فى وصفها منحى شعراء الجاهلية •

---

(١) راجع وضع النهج •

أما البوصيرى فقد قال :

فالصدق فى الغـار والصديق لم يرما
وهم يقولون ما فى الغـار من أرم (١)

ظنـوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسـج ولم تحـم

وقـاية الله أغنت عن مضـاعفة
من الدروع وعن عـال من الأطـم

وهذا الوصف لم يخرج عما فى القرآن من وقاية الله لنبيه وانزاله السكينة عليه ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسـج العنكبوت ..

أما شـوقى فقد قـال :

سـل عصبة الشرك حول الغاز حائمة
لولا مطاردة المختـار لم تحـم

هل أبصروا الأثر الوضـاء أم سـمعوا
همس التسابيح والقـرآن من أمم (٢)

وهل تمثل نسج العنـكبوت لهـم
كالغاب والحـائمات الزغب كالرخـم

فأدبروا ووجـوه الأرض تلعنهم
كبـاطل من جلال الحـق منهـزم

اولا يد الله بالجـارين ما سـلما
وعينه حـول ركن الدين لم يقـم

تواريا بجنـاح الله واسـتترا
ومن يضم جنـاح الله لا يضـم

---

(١) أى لا أثر فيه ..
(٢) من قرب .

وفى هذه القطعة يسخر شوقى من المشركين ، ويهزأ بهم ويمثل ضلالهم واخفاقهم تمثيلا بشعا مخيفا يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف الجحود ، وللقارىء أن يتأمل قوله :

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم

فانه من أجمل ما شبه فيه المحسوس بالمعقول . أما البارودى فقد قال :

وجاءه الوحى ايذانا بهجرته ... فيمم الغار بالصديق فى الغسم(١)
فما استقر به حتى تبوأه ... من الحمائم زوج بارع الرنم
بنى به عشه واحتله سكنا ... يأوى اليه غداة الريح والرهم
الفان ما جمع المقدار بينهما ... الا لسر بصدر الغار مكتتم
كلاهما ديدبان فوق مربأة ... يرعى المسالك من بعد ولم ينم
ان حن هذا غراما أو دعا طربا ... باسم الهديل أجابت تلك بالنغم
يخالها من يراها وهى جاثمة ... فى وكرها كرة ملساء من أدم(٢)
ان رفرفت سكنت ظلا وان هبطت ... روت غليل الصدى من حائر شبم
مرقومة الجيد من مسك وغالية ... مخضوبة الساق والكفين بالعنم
كأنما شرعت فى قانىء سرب ... من أدمعى فغدت محمرة القدم
وسجف العنكبوت الغار مختفيا ... بخيمة حاكها من أبدع الخيم
قدشدأطرافها فاستحكمت ورست ... بالأرض لكنها قامت بلا دعم
كأنها سابرى حاكه لبق ... بأرض سابور فى بحبوحة العجم
وارت فم الغار عن عين تلم به ... فصار يحكى خفاء وجه ملتثم
فياله من ستار دونه قمر ... يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم

(١) فى الظلام .
(٢) من جلد .

فظل فيـــه رســـول الله معتـــكفا
كالدر في البحر أو كالشـــمس في النسم
حتى اذ سكن الارجاف واحترقت اكباد قـــوم بنار اليأس والوغم
اوحى الرسول باعداد الرحيل الى من عنده السر من خل ومن حشم
وسار بعـــد ثلاث من مباءته يؤم طيبة مأوى كل معتصـــم

وفي هذه القطعة انتقل البارودى من سرد القصـــة النبوية الى الافاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت فتحـــدث عن بناء العش والغرض من سكناه • وتكلم عن حراسة الحمامتين ورعايتهما للمسالك البعيدة وهجرهما النوم وتغنيهما باسم الهديل ، وذكـــر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين ، وكيف كانت مرقومة الجيد وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء ، وتكلم عن الخيمة التي شد أطنابها العنكبوت ووصفها بجودة النسيج حتى ليحســبها الرائي حلة سابرية الى آخر ما قال •

وهذا كله خروج عن الموضوع واستسلام الى الخيال وكذلك كان يفعل الأقدمون •

النظم في قصيدة البارودى

وتمتاز قصيدة البارودى بالترتيب لأنهساير الحوادث وفقا لما قصه ابن هشـــام ولا كذلك شوقي والبوصيرى فقد أطاعا الخواطر الطارئة وقدما بعض الحوادث على بعض وتكلما عن النبى صـــلى الله عليه وسلم وعن معجزاته مثلا قبل أن يذكر الميلاد •

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودى كانت بابا لفقـــد الشعر في أكثر القصيدة فأصبحت بذلك منظومة كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون ، والى القارىء انموذجا يرى به غلبة النظم في ميميـــة البارودى اذ قال :

وآم طيبة مســرورا بعــــودته   يطوى المنازل بالوخادة الرســم
ثم استهلت وفود الناس قاطبــة   الى حماة فلاقت وافــر الــكرم
فكان عام وفود كلما انصــرفت   عصابة أقبلت أخرى على قــدم
وأرسل الرسل تترى للملوك بما   فيه بلاغ لأهل الذكر والفـــهم
وآم غالب أكناف الكــديد الى   بنى الملوح فاستولى على النعــم
وحين خانت جــذام فل شوكتها   زيد بجمع لرهط الشرك مقتشــم
وسار منتحيا وادى القرى فمحا   بنى فزارة أصــل اللؤم والقزم
وام خيبر عبــد الله فى نفــر   الى اليســـير فأرداه بلا أتــم
ويمم ابن أنيس عرض نخــلة اذ   طغا ابن ثور فأصماه ولم يخــم
ثم استقل ابن حصن فاحتوت يده   على بنى العنبر الطرار والشــجم
وسار عمرو الىذات السلاسلفى   جمع لهام لجيش الشرك مصطلم
وغزوتان لعبد الله واحــدة   الى رفاعة والأخرى الى اضــم

وهذ؛ الأسلوب ظاهر غالب فى هذه القصيدة ، وقد يصل احيانا الى الغموض ولا يرجع الشاعرية الى البارودى الا حين يذكر نفســه وبلواه وانظر كيفـيقول وهو يتحدث عنرجائه فى نصرة النبى له يوم المعـــاد :

انى وان مال بى [illegible]   ضيم أشاط على جمر النوىادمى
لثابت العهد لم يحلل قوى أملى   يأس ولم تخط بى فىسلوة قدمى
لم يترك الدهر لى ما أستعين به   على التجمل الا ســاعدى وفمى
هذا يحبر مدحى فى الرسول وذا   يتلو علىالناس ماأزجيه منكلمى

وفى هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير أولهما مملوء بالحرارة لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث فى صدر الشاعر وثانيهما فيه ضعف وفتور لأنه عاد الى القصص من جديد ولعل أغرب ما وقع له من النظم اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب اذ قال فى تقديمها للرسول :

فهاكها يا رسول الله زاهرة ... تهدى الى النفس ريا الآس والبرم
وسمتها باسمك العالى فألبسها ... ثوبا من الفخر لايبلى على القدم
غريبة فى اسار البين لو انست ... بنظرة منك لاستغنت عن النسم
لم ألتزم نظم حبات البديع بها ... اذ كان صوغ المعانى الغر ملتزمى
وانما هى ابيات رجوت بها ... نيل المنى يوم تحيا بذة الرمم
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت ... أحسن بمنتثر فيها ومنتظم
صدرتها بنسيب شف باطنه ... عن عفة لم يشنها قول متهم
لم أتخذه جزافا بل سلكت به ... فى القول مسلك أقوام ذوى قدم
تابعت كعبا وحسانا ولى بهما ... فى القول أسوة بر غير متهم
والشعر معرض ألباب يروج به ... ما نمقته يد الآداب والحكم
فلا يلمنى على التشبيب ذوعنت ... فبلبل الروض مطبوع على النغم

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودى يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند مناجاة الوجدان ..

سميك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيرى والبارودى وشوقى فى التسمى باسم النبى عليه الصلاة والسلام وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمى باسمه فنجد البوصيرى يقول :

ان آت ذنبا فما عهدى بمنتقض ... من النبى ولا حبلى بمنصرم
فان لى ذمة منه بتسميتى ... محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

ونجد شوقى يقول :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى ... وكيف لايتسامى بالرسول سمى

ونجد البارودى يقول :

خدمته بمديحى فاعتليت على
هام السماك وصار السعد من خدمى

وكيف أرهب ضيما بعد خدمته   وخادم السادة الأجواد لم يضم
أم كيف يخذلنى من بعد تسميتى   باسم له فى سماء العرش محترم

والبوصيرى هو صاحب الفكرة وقد تبعه البارودى ، ولحقهما شوقى وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون :

التخلص والاقتضاب فى شعر البوصيرى وشوقى والبارودى

التخنص هو انتقال الشاعر من فن الى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الاقتضاب ويكثر التخلص فى شعر المحدثين كما يكثر الاقتصاب فى شعر القدماء . قال ابن رشيق وأولى الشعر بأن يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر من معنى الى معنى ، ثم عاد الى الأول وأخذ فى غيره ثم رجع الى ما كان فيه كقول النابغة الذبيانى فى آخر قصيدة اعتذر بها الى النعمان بن المنذر :

وكفكفت منى عبرة فرددتها ... الى النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع

ثم تخلص الى الاعتذار فقال :

ولكن هما دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع(١)
وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عند ما سمع ذلك فقال :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع
يسهد فى ليل التمام سليمها (٢) ... لحلى النساء فى يديه قعاقع

(١) الشغاف : هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب .
(٢) السليم : هو الملدوغ ، سمى بذلك تفاؤلا بسلامته كما قيل فى الصحراء مفازه .

تناذرها الراقــون من سوءسمها ... تطلقه طــورا وطورا تراجــــع

فوصف الحية والسليم الذى شبه به نفسه ما شاء ، ثم تخلص الى الاعتذار الذى كان فيه فقال :

أتانى أبيت اللعن(١)«أنك» لمتنى ... وتلك التى تستك منها المسامع

ثم اطرد ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة ..

وقد يقع من هذا النوع شىء يعترض فى وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ، ثم يعود بعد ذلك الى ما كان فيه من النسيب ثم يرجع الى المدح كما فعل أبو تمام ، وان أتى بمدحه الذى نمادى فيه منقطعا وذلك قوله فى وسط النسيب من قصــيدة له مشهورة :

ظلمتــك ظالمة البرىء ظــلوم ... والظلم من ذى قدرة مذموم
زعمت هواك عفا الغداة كما عفت ... منها طلول باللوى ورســوم
لا والذى هو عالم أن النــوى ... أجل وان أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولاغدت ... نفسى على الف سواك تحــوم

ثم قال بعــد ذلك :

لمحمد بن الهيثــم بن شــبابة ... مجد الى جنب السماك مقيــم

ويسمى هذا النوع الالمام ، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب فى الخروج الى المدح بل يقولون عند فراغهم فى نعت الابل وذكر القفار وما هم بسبيله : دع ذا ، وعد عن ذا ، ويأخذون فيما يريدون ، أو يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه فاذا لم يكن خــروج الشاعر الى المدح ، متصلا بما قبله ، ولا منفصلا بقوله : (دع ذا) و (عد عن ذا) ونحو ذلك سمى طفرا وانقطاعا ، وكان البحترى كثيرا ما يأتى به نحو قوله :

---

(١) تحية جاهلية عاشت حينا ثم ماتت وكانت فى الأغلب مما يخاطب به الملوك ، ولو خاطبت بها اليوم أحدا من ملوك عصرك لاتهموك بقلة الذوق .

لولا الرجاء لمت من ألم الهـوى ‏ لـكن قلبى بالرجـاء موكـــل
ان الرعية لم تزل فى سـيرة ‏ عمرية مـذ ساسها المتـــوكل

فلننظر بعـــد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثـــلاثة من التخلص والاقتضاب •

أما اليوصيرى فقد آثر التخلص اذ قال فى محاورة العذول •

انى اتهمت نصيح الشيب فى عذل ‏ والشيب أبعد فى نصح عن التهم
فان أمارتى بالسـوء ما اتعظت ‏ من جهلها بنذير الشيب والهـرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ‏ ضيف ألم برأسى غير محتشـــم
لو كنت أعـلم أنى ما أوقـــره ‏ كتمت سرا بدا لى منه بالكتـــم
من لى برد جماح من غوايتهــا ‏ كما يرد جماح الخيل باللجـــم
فلا ترم بالمعـاصى كسر شهوتها ‏ ان الطعـام يقوى شهوة النهـم
والنفس كالطفل ان تهمـله شـب على
حب الرضاع وان تفطمه ينفطـــم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ‏ ان الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سـائمة ‏ وان هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمـرء قاتـلة ‏ من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ‏ فـــرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عـين قد امتـلأت
من المحـارم والـزم حمية النـــدم
وخالف النفس والشيطان واعصـهما
وان هما محضـــاك النصـح فاتهم
ولا تطع منهمـــا خصـما ولا حكما
فأنت تعرف كيد الخصم والحـكم
أستغفر الله من قـول بلا عمـــل
لقــــد نسبت به نسـلا لذى عقـم

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة
ولم أصل سوى فرض ولم أصم
ظلمت سنة من أحيا الظلام الى
أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وهذا النوع من التخلص غير مقبول ، اذا لاحظنا انه تخلص من النسيب الى المدح ، أما اذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب الى حساب النفس ، ثم الى مدح الرسول فانا نغفر له هذه الاطالة ، لأنها فى غرض من أغراضه الاساسية وهو الدعوة الى تهذيب النفس وتطهير الوجدان .

ومن الخير أن نذكر أن البوصيرى لا يفعل ذلك فى جميع قصائده فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة فى همزيته فيقول :

كيف ترقى رقيك الأنبياء　　يا سماء ماطاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا　　ل سنا منك دونهم وسناء
انما مثلوا صفاتك للنا　　س كما مثل النجوم الماء

وكأنما جاراه شوقى فى افتتاح همزيته فقال :

ولد الهدى فالكائنات ضياء　　وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله　　للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى　　والمنتهى والسدرة العصماء

ولكن أين ابتداء شوقى من ابتداء البوصيرى ؟؟ ان الفرق بينهما لبعيد .. وان كان فى تعبير البوصيرى شىء من الجفاء فى حق الأنبياء .

وأعود فأذكر أني أستملح قول البوصيرى فى رياضة النفس :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخمصة شر من التخم

وجمال هذا البيت يرجع الى ما فيه من صدق الدعوة : فان النفس يضر بها الزهد كما يطغيها الترف كالجسم ترديه المسغبة كما تضره البطنة .

وأستجيد كذلك قوله :

أمرتك الخير لكن ماائتمرت به   وما استقمت فما قولى لك استقم

وحسن هذا البيت يرجع الى سماحة الشاعر ورفقه وخلوص دعوته من شوائب الصلف والكبرياء ، وهذا أدب يحتاج الى مثله أطباء النفوس .

وقد آثر البارودى أيضا حسن التخلص اذ قال :

ليت القطا حين سارت غدوة حملت
عنى رسائل أشواقى الى اضم
مرت علينا خماصا وهى قاربة
مر العواصف لا تلوى على ارم
لا تدرك العين منها حين تلمحها
الا مثالا كلمح البرق فى الظلم
كأنها أحرف برقية نبضت
بالسلك فانتشرت فى السهل والعلم
لا شىء يسبقها الا اذا اعتقلت
بنانتى فى مديح المصطفى قلمى

وهذا تخلص مستملح مقبول ، ومضى الشاعر فى وصف القطاة ايثار للأسلوب القديم الذى نوهنا به فى الكلمة الماضية ونريد أن نقرر

أن هذا الأسلوب جزء من الفن الشعرى عند الجاهليين والمخضرمين ومن سايرهم من المحدثين وبيان ذلك ان الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفا يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعا من الاستقلال وتكون لهذا الوصف قيمة أى قيمة حين يراد تأكيد معنى من المعانى المقصودة ومن أمثلة ذلك قول أبى صعترة البولانى :

فما نطفة من حب مزن تقاذفت ... به جنبتاالجودى والليل دامس(١)

فلما أقرته اللصاب تنفست ... شمال بأعلى مائه فهو قارس (٢)

بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ... ولكننى فيما ترى العين فارس

فان للشاعر من المبالغة فى وصف ماء المزن غرضا خاصا هوالاشادة بعذوبة ذلك الثغر الشهى المذاق ، ويماثل هذا قول عاتكة المرية ، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها :

وما طعم ماء أى ماء تقوله ... تحدر عن غر طوال الذوائب

بمنعرج من بطن واد تقابلت ... عليه رياح الصيف من كل جانب

نفت جرية الماء القذى عن متونه

فما ان به عيب تراه لشارب

بأطيب ممن يقصر الطرف دونه ... تقى الله واستحياء بعض العواقب

فان لها من وصف الماء فى عذوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب اليه غرضا خاصا هو الاشادة بجمال الحياء وطيب العفاف .

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد :

وما وجد أعرابية قذفت بها ... صروف النوى من حيث لم تك ظنت

تمنت أحاليب الرعاء وخيمة ... بنجد فلم يقدر لها ما تمنت

اذا ذكرت ماء العضاه وطيبه ... وبرد الحصى من نحو نجد أرنت

---

(١) الجودى : الجبل .

(٢) اللصاب : الشعب الصغيرة فى الجبل .

بأوجد من وجد بريا وجـــدته ... غداة غدونا غــدوة واطمأنت
فان يك هذا عهد ريا وأهلهـــا ... فهـذا الذى كنـا ظننا وظنت

وأروع من هذا قــول الأبيوردى (١) :

وما أم ساجى الطرف مال به الكرى ... على عذبات الجزع تحسبه قلبـا
تراعى باحدى مقلتيها كناسها ... وترمى بأخرى نحوه نظرا غربا
فلاح لها من جانب الرمل مرتـع ... كأن الربيع الطلق ألبســه عصبا
فمالت اليه والحريص اذا غــدت ... به سورة الاطماع لم يحمد العقبى
وآنسها المرعى الخصيب فصادفت ... مدى العين فى أرجائه بلدا خصبا
فلما قضت منــه اللبانة راجعت ... طلاها فألفته قضى بعــدها نحبا
أتيح له عارى السواعد لم يزل ... يخوض الى أوطاره مطلبا صعبا
فولت على ذعر وبالنفس ما بها ... من الكرب لاقيت فى حادث كربا
بأوجد منى يوم عجت ركابهـا ... لبين فلم تترك لذى صبوة لبـا

وكان يكفى أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يغتال رشأها الذئب ، ولكن هذه الصورة الشعرية التى وضعها للغزالة المروعة الملتــاعة جعلت المعنى أوقع فى النفس وأملك للقلب وأروع للوجـدان .

ولننتقل بعد ذلك الى شوقى وانا لنراه صــدف عن التخلص وآثر الاقتضـاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسيب الموثق المشرق الى الحـديث عما تضمر الدنيا من المبكيات ، وما تجن من ظلمات الخطوب وتــدرج من هذا الى الحديث عن غفلة النفس وفقرها الى الاخلاق وكذلك يقول:

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية ... وان بدالك منها حسن مبتسم
فضى بتقواك فاها كلما ضحكت ... كما يفض أذى الرقشاء بالثــرم
مخطوبة منــذ كان الناس خاطبة ... من أول الدهر لم ترمل ولم تئم

(١) تجد تفصيل هذه المعانى فى كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن « الطبيعة فى النفس الشعراء » .

يفنى الزمان ويبقى من اساءتها   جرح بآدم يبكى منه فى الأدم
لا تحفلى بجناها أو جنايتها   الموت بالزهر مثل الموت بالفحم
كم نائم لا يراها وهى ساهرة   لولا الأمانى والأحلام لم ينم
طورا تمدك فى نعمى وعافية   وتارة فى قرار البؤس والوصم
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته   ان يلق صابا يرد أو علقما يسم
ياويلتاه لنفسى راعها ودها   مسودة الصحف فى مبيضة اللمم
ركضتها فى مريع المعصيات وما   أخذت من حمية الطاعات للتخم
هامت على أثر اللذات تطلبها   والنفس ان يدعها داعى الصبا تهم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها فى خير عافية   والنفس من شرها فى مرتع وخم
تطغى اذا مكنت من لذة وهوى   طغى الجياد اذا عضت على الشكم
ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل   فى الله يجعلنى فى خير معتصم
ألقى رجائى اذا عز المجير على   مفرج الكرب فى الدارين والغمم
اذا خفضت جناح الذل أسأله   عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وان تقدم ذو تقوى بصالحة   قدمت بين يديه عبرة الندم
لزمت باب أمير الأنبياء ومن   يمسك بمفتاح حبل الله يغتنم

وهذه قطعة مختارة ، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله فى كلام البوصيرى وان قول شوقى :

لا تحفلى بجناها أو جنايتها   الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

لأشرف معنى وأسمى خيالا من قول البوصيرى :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع   فرب مخمصة شر من التخم

ولك أن تلاحظ أن البوصيرى وقف موقف الناصح الأمين فلما وصل الى نفسه ذكر أنه لم يصل ولم يصم سوى الفرض ، وانه يأسى على ان لم يتزود نافلة قبل الموت وانه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتى

تورمت قدماه ومن هنـا لم تكن الفرصة سانحة ليذرف شـوقى من الدمع وأين شوقى من البوصيرى ؟ لقد كان البوصـيرى من أئمة الصوفية ، أما شوقى فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البـلاط وكان يحسن أن يقول :

رمضـان ولى هاتهـا ياسـاقى   مشتاقة تسـعى الى مشـتاق

ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ويرمى بذلك الندم الموجع الذى يذيب لفائف القلوب وانظر كيف يقول :

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل   فى الله يجعلنى فى خـير معتصم

وكان شوقى أوفر الناس احساسا بخطر ذنبه وكرم ربه حين قال :

وان تقدم ذو تقوى بصـالحة   قدمت بين يديه عبرة النـدم

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » •

المعجزات

لنا فى المعجزات رأى خاص ، لا يسمح به ظرف الزمان ، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرضا لما يحيط بها من الحقائق والفروض وقد يثير هذا فتنة نحن عنهـا أغنيـاء (١) ، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيرى وشوقى والبارودى من معجزات النبى عليه الصلاة والسلام ولنذكر قبل ذلك ان القرآن يفيض بالتذمر من الحاح المعاندين ولجاجتهم فى طلب المعجزات اذ كان النبى يدعو الى تحكيم العقل وكان أولئك الكفار يأبون الا ان تكون الرسالة مصحوبة بالعاب بهلوانية تنفر منها القلوب ، وتأباها العقول ، وتنبو عنها الاذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبـارك اسمه فى سـورة الاسراء (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • ولقد صرفنا للناس فى هـذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا • وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيـل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا

---

(١) ومع ذلك سمح الزمان وأبدينا بعض الآراء بصراحة فى كتاب « المدائح النبوية » حين حللنا بردة البوصيرى ، وحين نقدنا قصة المولد النبوى • وقد بدأ الناس يفهمون أن الاسلام فى غنى بجماله الحق عن زخرف الأباطيل •

كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) .

وهذه الآيات صريحة فى أن النبى لا يملك لنفسه شيئا وان الأمر كله لله وان فى القرآن هدى وتبصرة لقوم يعقلون ، وأصرح من هذا قوله تعالى فى سورة العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) معنى هذه الآيات ان معجزة النبى الباقية هى القرآن وفى تأييد ذلك يقول البوصيرى :

آيات حق من الرحمن محدثة   قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم يقترن بزمان وهى تخبرنا   عن المعاد وعن عاد وعن ارم
دامت لدينا فقامت كل معجزة   من النبيين اذ جاءت ولم تدم

وتبعه شوقى فقال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت   وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد   يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد فى لفظة منه مشرفة   يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

ويمكن بعد هذا ان نقرر ان شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة فى المعجزات ، وان كان شوقى على شىء من الحرص ويليه البوصيرى ، اما البارودى فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل وقد اشترك البوصيرى والبارودى فى الحديث عن سجود الأشجار وسعيها الى الرسول فقال البوصيرى :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة   تمشى اليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرا لما كتبت   فروعها من بديع الخط باللقم

وقال البارودى :

اتلك أم حين نادى سرحة فأتت اليه منشور الأغصـــان كالجمم
حنت عليه حنو الأم من شفق ورفرفت فوق ذاك الحسن من رخم
جاءته طوعا وعادت حين قال لها عودى ولوخليت للشوق لم ترم

وانفرد البارودى بالحديث عن شق صدر النبى وهو غلام فقال :

فبينما هو يرعى البهم طاف به شخصان من ملكوت الله ذى العظم
فأضـــجعاه وشـــقا صدره بيـــد رفيقـــة لم يبت منهـــا على ألم
وبعد ما قضيا من قلبـــه وطـــرا توليا غســـله بالسلسل الشبم
ماعالجـــا قلبه الا ليخلص من شوب الهوى ويعى قدسية الحكم
فيالها نعمة لله خص بهـــــا حبيبه وهو طفل غير محتـــــلم

وشق الملائكة لصدر النبى وغســـلهم اياه السلسبيل ليس من المعجزات لأن المعجزة تكون للاقناع وهو لم يدع الى ربه فى طفولته حتى يكون للاقناع مجال .. وانمـــا هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس ، والله يختص برحمته من يشـــــاء ، وقد مر البارودى بهذه الســـطور مر الطيف فلم يعرض لهـــا بنقد ولم يتناولها بتحليل ، ونحن نكتفى هنا بأن نقرر أنها فى حاجة الى تحقيق ثم نلتفت الى ما فيها من روعة الخيال ، فقد صور النبى فيها صورة رائعة وتمثل فيها لطف الله به واحسانه اليه وتكريمه اياه ، وهى صورة شـــعرية نحب أن نمتع بها القارىء ليرى كيف ابتدأ القصـــص فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام .

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل ان النبى صـــــلى الله عليه وسلم قال :

« وكنت مسترضعا فى بنى سعد بن بكر . فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان اذا أنا برهط ثلاثة

معهم طست برهرهة من الذهب ملآن ثلجا ، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق أصحابي هرابا حتى انتهوا الى شفير الوادي ، ثم أقبلوا على الرهط وقالوا : ما أربكم من هذا الغلام ؟ فانه ليس منا ، هـــذا ابن سيد قريش وهو مسترضع فينا ، غلام يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فان كنتم لابد قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحيرون جوابا انطلقوا مسرعين الى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، قال فعمد أحدهم فأضجعني الى الأرض اضجاعا رفيقا ثم شق بطني ما بين مفرق صدري الى عانتي، وأنا أنظر اليه ، ولم أجد لذلك مسا ، ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم اعادها الى مكانها ، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه : تنح عنه فنحاه عني ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر اليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغه سوداء فرمى بها ثم أمر يده يمنة منه ، وكأنه يتناول شيئا فاذا بخـاتم من نور في يده يحـــار الناظرون اليه فختم به قلبي فامتلأ نورا . وذلك نور النبوة والحكمة. ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرا ، ثم قال الثالث : تنح عنه فنحاه عني فأمر يده على مفرق صـــدري الى منتهى عانتي ، فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى ، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني انهاضا لطيفا . ثم قال الأول الذي شق بطني : زنه بعشرين من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال : دعه فوالله لو وزنته بأمته لرجحهم . قال : ثم ضموني الى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا : لا ترع فانك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت به عيناك قال : فبينما نحن كذلك اذ أقبل الحي بحذافيرهم فاذا ظئري أمام الحي تهتف بأعلى صوتها وتقول واضـــعيفاه فانكبوا على وضـــموني الى

صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ــ يعني الملائكة وقالوا حبذا أنت من وحيد ، وما أنت بوحيد ، ان الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ثم قالت ظئرى ، وايتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك قال فانكبوا على وضمونى الى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى ــ يعني الملائكة ــ وقالوا : حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله ، لو تعلم مايراد بك من الخير لقرت به عيناك . فوصل الحى الى شفير الوادى فلما أبصرتنى أمى ــ وهى ظئرى ــ قالت : لا أراك الا حيــا بعد ، فجاءت ثم انكبت على ثم ضمتنى الى صــدرها فوالذى نفسي بيده انى لفى حجرها قد ضمتنى اليها وان يدى لفى يد بعض الملائكة وجعل القوم لا يرونهم قال : فقال بعض القوم ان هذا الغلام قد أصابه لمم أو طائف من الجن فانطلقوا به الى كاهننا حتى ينظر اليه ويداويه ، فقلت يا هــذا ما بى شيء مما تذكرون ان آرابى لسليمة وفؤادى صحيح .. ليست لى فلتة فقال أبى ــ وهو زوج ظئرى ــ آلا ترون كلامه كلام فصيح ؟ انى لارجو أن لا يكون بابنى بأس فاتفقوا على أن يذهبوا بى الى الكاهن فلما انصرفوا بى قصــوا عليه قصتى فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام فانه هو أعلم بأمره منكم فسألنى فقصصت عليه القصة وأمرى من أوله الى آخره فوثب الى وضمنى الى صدره ثم نادى بأعلى صوته : ياللعرب اقتلوا هــذا الغلام واقتلونى معه .. فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينــكم .. وليسـفهن عقولكم وعقول آبائكم . وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله ، قال : فعمدت ظئرى اليه فانتزعتنى من حجره وقالت : لأنت أعته وأجن .. ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به فاطلب لنفسك من يقتلك ، فانا غير قاتلى هذا الغلام ، ثم احتملونى وأدونى الى أهلهم وأصبحت مفزعا مما فعل بى وأصبح أثر الشق ما بين صدرى الى منتهى عانتى كأنه الشراك » (١) .

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء .

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكن القارىء من نقده وتمييزه ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه ، ان شاء ، أما نحن فتريبنا فيه عبارته اذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو الى ما فى صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير ويريبنا بنوع خاص مفتتح الحديث فان طريقة القصص التى سلكها قد تدل على انه موضوع وذلك قوله « روى شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس مع النبى صلى الله عليه وسلم اذ أقبل شيخ من بنى عامر وهو مدره قومه ، يتوكأ على عصاه فمثل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه الى جده ، فقال : يا بن عبد المطلب انى أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس ، وان الله تعالى ارسلك بما أرسل به ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء ألا وانك تفوهت بعظيم .. انما كانت الانبياء والخلفاء فى بيتين من بنى اسرائيل . وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان فمالك والنبوة لكن لكل حق حقيقة فأنبئنى بحقيقة قولك .. وبدو شأنك قال : فأعجب النبى بمسألته ، ثم قال : يا أخا بنى عامر ان لهذا الحديث الذى سألتنى عنه نبأ عظيما ومجلسا كريما الخ » .

فان القارىء يرتاب على الأقل فى صحة هذه الجملة : « انى أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس » فان كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن يزعم أنه رسول وعبارة فأنبئنى بحقيقة قولك وبدو شأنك. «عبارة مولدة لاريب فى ذلك وما أظن النبى يقول « ان لهذا الحديث الذى سألتنى عنه نبأ عظيما . ومجلسا كريما » فان هذا أيضا من تعابير المولدين ولكل عصر أسلوب .

أكتفى بهذا فى نقد هذه الأقصوصة وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها الى محكمة التعديل والتجريح وأنتقل الى ما ذكروه

من العجائب عند ميلاد الرسول ، كانصداع ايوان كسرى وخمود نار الفرس ، ونضوب بحيرة ساوة وما الى ذلك من خوارق العادات ..

قال البوصيرى فى البردة :

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا حسن مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف ... عليه والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... ورد واردها بالغيظ حين ظمى
كأن بالنار ما بالماء من بلل ... حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فاعلان البشائر لم ... تسمع وبارقة الانذار لم تشم
من بعد ما أخبر الاقوام كاهنهم ... بأن دينهم المعوج لم يقم
وبعد ماعاينوا فى الافق من شهب ... منقضةوفق ما فىالأرض منصنم
حتى غدا عن طريق الحق منهزم ... من الشياطين يقفو اثر منهزم

وقال فى الهمزية :

وتداعى ايوان كسرى ولولا ... آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه ... كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ... ن لنيرانهم بها اطفاء

ويقول شوقى فى نهج البردة :

وخل كسرى وايوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم

ويقول فى الهمزية :

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم ... خمدت ذوائبها وغاض الماء
والآى تترى والخوارق جمة ... جبريل رواح بها غداء

ويرى القارىء أن البوصيرى أكثر من شوقى اشادة بتلك الخوارق وشعره فيها يفيض بالحياة ، أما شوقى فقد آثر الحيطة وهو يتكلم عن هذه الموضوعات فكان شعره فيها أضعف من شعره فى سائر أغراض القصيدة وسترى تحليله لفريضة الجهاد فى الكلمة الآتية :

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيرى أروع من شعر شوقى فى وصف الحوارق والمعجزات وان شوقى أبعد نظرا من البوصيرى فى نقد الأخبار والآثار ، فان انصداع الايوان ، وخمود نار الفرس ، ونضوب بحيرة ساوة وانقضاض الشهب على الأصنام : كل هذه الحوادث فيها نظر وكلها فى حاجة الى تمحيص ولكن أكثر الناس لا يعلمون •

وصف القرآن

لم يعن البارودي بوصف القرآن كما عنى به البوصيرى وشوقى أما البوصيرى فقد قال :

دعني ووصـــفي آيات له ظهرت ظهور نار القـرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهـو منتظم وليس ينقص قـدرا غير منتظم
فمـا تطـاول آمال المديح الى ما فيه من كرم الأخلاق والشـيم

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السذاجة وعبارة « دعنى ووصفى آيات له ظهرت » عبارة عامية وقوله :

فالدر يزداد حسنا وهـو منتظم وليس ينقص قـدرا غير منتظـم

غير واضح المدلول لأن الدر الذى يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن ، لأنه لا يهم بنظم القرآن ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن • اذ لم تسبق ذلك اشارة ولم يتقدمه دليل فلم يبق الا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع ، فقيدها فى ذلك البيت وهو فى ذاته بيت جميل ، أما قوله :

فمـا تطـاول آمال المديح الى ما فيه من كرم الأخلاق والشـم

فهو بيت يمدح به شخص ولا يقرظ به كتاب وقد كان الشاعر يرمى الى وصف القرآن بأنه دعوة الى محاسن الشيم ، ومكارم الأخلاق ولكنه لم يوفق الى حسن الأداء ..

وقوله بعد ذلك :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهى تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن ارم

فيه اشارة الى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه وهى اشارة مبهمة لا تغنى فى دفع ولا تأييد ، والبيت الثانى غير جيد المعنى لأن أخبار القرآن عن عاد وعن ارم ليس حجة الا عند المسلمين أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار بعد آمن اللبس والتزوير .

أما قوله :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين اذ جاءت ولم تدم

فهو بيت القصيد اذ كان القرآن هو المعجزة الباقية وكان هو المرجع حين يجد الخلاف ، وهو أيضا المعجزة الصريحة التى يعتز بها العقل ويصبح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين أما نبع الماء من بين يدى الرسول وتظليل الغمام اياه ، وسجود الأشجار له وما الى ذلك من المعجزات فهى مسائل يحتاج عرضها الى مخاطرة وهى مخشية الضر قبل أن تكون مرجوة النفع ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

وقوله :

ماحوربت قط الا عاد من حرب أعدى الأعادى اليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها رد الغيور يد الجانى عن الحرم

كلمة صدق ويكفى أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه

الحقيقة ، فالقرآن كتاب خطر رهيب يحمل عدوه على الايمان به والخشوع لديه ، ولوصحت — لاصحت — أراجيف الملحدين من أن القرآن من انشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون • بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » •

وما أصدق قول البوصيرى فى آيات الكتاب العزيز :

لها معان كموج البحر فى مدد — وفوق جوهرة فى الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها — ولا تسام على الاكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له — لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
ان تتلها خيفة من حر نار لظى — أطفأت نار لظى من وردها الشبم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها — تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال وهو غاية فى تقريع المكابرين •

أما شوقى فقد قال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت — وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد — يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد فى لفظة منه مشرفة — يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

وهذا الوصف على ايجازه جميل ، وكنت أود أن لا يكتفى شوقى فى وصف القرآن بهذه الأبيات •• ، وقد انتقل الى الاشادة بحديث النبى فقال :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة — حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليت من عطل جيد البيان به — فى كل منتثر فى حسن منتظم
بكل قول كريم أنت قائله — تحيى القلوب وتحيى ميت الهمم

وقول شوقى :

آياته كلما طـال المدى جـــدد يزينهن جـــلال العتق والقــدم

أروع من قول البوصيرى :

فما تعـد ولا تحصى عجائبهـــا ولا تسام على الاكثار بالســـأم

وقول البوصيرى :

ان تتلهـا خيفة من حر نار لظى اطفأت نار لظى من وردها الشبم

فيه ضعف لأنه ينقل القرآن من الغرض الذى أنزل لأجله وهـو تهذيب النفوس وتثقيف العقول الى غرض ضئيل هو اتخاذه وردا من أوراد الصباح أو المساء كما فعل المتأخرون ٠

وقوله :

حليت من عطل جيد البيـان به فى كل منتشر فى حسـن منتظم

غير جيد المعنى وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة البيان وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع الى ما فيه من الشمول وجودة الوصف لا تتم الا بتحديد الموصوف ٠

« وصف الهيجاء »

عنى العرب كثيرا بوصف الحرب فأفاض شعراؤهم فى الاشادة بذكر الغزاة والتمدح بآثار المجاهدين وهذا كتاب (الحماسة) شاهد عدل على تلك النزعة الحربية التى سيطرت على نفوس العرب زمنا غير قليل فقـد اختار أبو تمام قطعا قليلة فى الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق وفعل مثل ذلك فى الفكاهات والملح والنسيب ثم ملا كتابه بالحمـاسة والهجاء والمديح ٠ وهى الفنون التى تترجم النفس العربية وتكشف عما فيها من مطوى النوازع ومكنون الميول وكذلك مهدت السبيل لشعرائنا

الذين أرادوا التنويه بما خاض النبى من المعارك وما اقتحم من الحروب وان اختلفت مناحيهم فى وصف الهيجاء .

أما البوصيرى فقد تحدث عن الحـرب بطريقة مجملة ولم يميز بعض الغزوات عن بعض وهو يتكلم عن أخبار القتال فوصفه للحـرب وصف فضفاض يصلح لبوسا لكل موصوف . وانظر كيف يقول :

راعت قلوب العـدا أنباء بعثتـه — كنبأة أجفلت غفـلا من الغنـم
ما زال يلقاهمو فى كـل معترك — حتى حكوا بالقنا لحما على وضم
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به — أشلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضى الليالى ولا يدرون عدتها — مالم تكن من ليالى الأشهر الحرم
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم — بكل قرم الى لحم العـدا قـرم
يجر بحر خميس فـوق سابحـة — يرمى بموج من الأبطال ملتطـم
من كل منتـدب لله محتسـب — يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الاسلام وهى بهم — من بعد غربتها موصولة الرحـم

وانه ليحسن أن نسجل اعجابنا بقوله فى وصف المجـاهدين من أصحاب الرسول :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم — ماذا رأى منهمو فى كل مصطدم
وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا — فصول حتف لهم أدهى من الوخم
المصدرى البيض حمرا بعدما وردت — من العدا كل مسـود من اللمم
والكاتبين بسمر الخط ما تركت — أقلامهم حرف جسم غير منعجـم
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم — والورد يمتاز بالسيما من السلم
تهدى اليك رياح النصر نشرهمو — فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى

وقد يستضعف قوله :

كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا — من شدة الحزم لا من شدة الحزم
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا — فما تفرق بين البهـم والبهـم

أما البارودى ــ جعل الله له لسان صدق فى الآخرين ــ فقد وصف الحرب وصفا حيا صارخا يبعث ميت العزم ويثير مدفون الصيال ، وما ظنك بجندى سفاح نشأ فى أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح الشوامخ ليبلغوا أسباب السموات وليحاربوا المقتدر القهار ، وانه لضلال أجمل من الهدى وغى اهدى من الرشاد •

ولننظر كيف يقول :

قام النبى لنصر الحق معتزما — بجحفل لجموع الشرك مخترم
تبدو به البيض والقسطال منتشر — كالشهب فى الليل أو كالنار فى الفحم
لمع السيوف وتصهال الخيول به — كالبرق والرعد فى مغدودق هزم
عرمرم ينسف الأرض الفضاء اذا — سرى بها ويدك الهضب من خيم
فيه الكماة التى ذلت لعزتها — معاطس لم تزلل قبل بالخطم
من كل معتزم بالصبر محتزم — للقرن ملتزم فى البأس مهتزم
طالت بهم همم نالوا السماك بها — عن قدرة وعلو النفس بالهمم
بيض أساورة غلب قساورة — شكس لدى الحرب مطعامون فى الأزم
طابت نفوسهم بالموت اذ علموا — ان الحياة التى يبغون فى العدم
ساسوا الجياد فظلت فى أعنتها — طوع البنانة فى كر ومقتحم
تكاد تفقه لحن القول من أدب — وتسبق الوحى والايماء من فهم
كأن أذنابها فى الكر ألوية — على سفين لأمر الريح مرتسم
من كل منجرد يهوى بصاحبه — بين العجاج هوى الأجدل اللحم
والبيض ترجف فى الاغماد من ظمأ — والسمر ترعد فى الايمان من قرم
من كل مطرد لولا علائقه — لسابق الموت نحو القرن من ضرم
كأنه أرقم فى رأسه حمة — يستل كيد الأعادى بابنة الرقم
فلم يزل سائرا حتى أناف على — أرباض مكة بالفرسان والبهم
ولفهم بخميس لو يشد على — أركان رضوى لأضحى مائل الدعم

فأقبلوا يسأنون الصفح حين رأوا ... أن اللجاجة مدعاة الى النـدم
ريعوا فذلوا ولو طاشوا لوقرهم ... ضرب يفرق منهم مجمع اللمم

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال وانك لتعجب حين ترى البارودى يفتن فى تصوير الحرب وهو يتحدث عن الغزوات غزوة غزوة وانظر كيف يقول مثلاً فى يوم بدر :

يوم تبسم فيـه الدين وانهملت ... على الضلال عيون الشرك بالسجم
أبلى على به خـير البـلاء بما ... حباه ذو العرش من بأس ومن همم
وجال حمزة بالصمصام يكسؤهم ... كسأ يفرق منهم كـل مزدحـم
وغادر الصحب والأنصار جمعهمو ... وليس فيه كمى غـير منهـزم
تقسـمتهم يد الهيجاء عـادلة ... فالهـام للبيض والأبدان للرخم
كأنما البيض بالأيدى صوالجة ... يلعبن فى ساحة الهيجاء بالقـمم
لم يبق منهم كمى غـير منجدل ... على الرغام وعضو غـير منحطم
فما مضت ساعة والحرب مسعرة ... حتى غدا جمعهم نهبا لمقتسـم
قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة ... بالمشرفية والمـران كالرجـم
فأين ما كان من زهو ومن صلف ... وأين ما كان من فخر ومن شمم
جاءوا وللشر وسم فى معاطسهم ... فأرغموا والردى فى هذه السيم
من عارض الحق لم تسلم مقاتله ... ومن تعرض للأخطار لم ينـم

أما شوقى فقد وصف النبى فى الحرب وصفا رقيقا لا يلائم ما تقضى به الحرب من غلبة الغضب وشسول العبوس ولننظر كيف يقول :

البدر دونك فى حسن وفى شرف ... والبحر دونك فى خير وفى كرم
شم الجبال اذا طاولتها انخفضت ... والأنجم الزهر ما أوسمتها تسم
والليث دونك بأسـا عند وثبته ... اذا مشيت الى شاكى السلاح كمى
تهفـو اليك وان أدميت حبتها ... فى الحرب أفئدة الأبطال والبهم
محبة الله ألقـاها وهيبتـه ... على ابن آمنـة فى كل مصطدم
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى ... يضىء ملتثما أو غـير ملتثـم

بدر تطلع فى بدر فغرته ... كغرة النصر تجلو داجى الظلم

وهذا شعر جميل لكنه أرق من أن يوصف به ذوو البأس وهم يقارعون الهول فى ميدان الجلاد ، ويعجبنى قوله فى وصف الغزاة :

مهما دعيت الى الهيجاء قمت لها ... ترمى بأسد ويرمى الله بالرجم
على لوائك منهم كل منتقم ... لله مستقتل فى الله معتزم
مسبح للقاء الله مضطرم ... شوقا على سابح كالبرق مضطرم
لو صادف الدهر يبغى نقلة فرمى ... بعزمه فى رحال الدهر لم يرم
بيض مفاليل من فعل الحروب بهم ... من أسيف الله لا الهندية الخزم
كم فى التراب اذا فتشت عن رجل ... من مات بالعهد أو من مات بالقسم
لولا مواهب فى بعض الأنام لما ... تفاوت الناس فى الأقدار والقيم

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيرى عن السر فى مشروعية القتال ، وأشار اليها البارودى اشارة خفيفة حين قال :

ذاقوا الردى جرعا فاستسلموا جزعا
للصلح والحرب مرقاة الى السلم

أما شوقى فقد أبان عن حكمة الجهاد وأفصح عنها افصاحا يرضى المنصف ، ويكبح جهل المعاند الكنود ، ولننظر كيف يقول :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية فقد كانت دين سلام واخاء ولكنها لم تقم الا بالسيف وفى هذا يقول :

سل المسيحية الغـراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغلم
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها في كل حين قتالا ساطع الحدم
لولا حماة لها هبـوا لنصرتها بالسيف ماانتفعت بالرفق والرحم

ثم عاد الى تأكيد فضيلة الجهاد فقال :

علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم
لولاه لم نر للدولات في زمن ما طال من عمد أوقر من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة فيالأعصر الغر لا في الاعصر الدهم
بالأمس مالت عروش واعتلت سرر لولا القذائف، لم تثلم ولم تصم

المدنية الاسلامية

وقد انفرد شوقي بالافصاح عن جلال المدنية الاسلامية .. وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان وفي ذلك يقول :

دع عنك روما وآتينا وما حوتا كل اليواقيت في بغداد والتوم
وخل كسرى وايوانا يدل به هوى على أثر النيران والايم
واترك رعمسيس ان الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بيانا عند ملتأم ولا حكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين اذا سارت كتائبهم تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون الى علم ومعرفة فلا يدانون في عقل ولا فهم
يطأطيء العلماء الهام أن نبسوا من هيبة العلم لا من هيبة الحكم

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الاسلام وما كان لهم من الأثر في حياطة الدين .، ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله :

واترك رعمسيس ان الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

فانه من فرائد الأمثال .. ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيرى سما فى المدائح النبوية سموا لم يوفق الى معشـــاره فى سائر شعره وهذا أثر لصدق العاطفة بخلاف صاحبيه فان شعرهما فى هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ وصدق شـــوقى حـــين قال :

المادحون وأرباب الهـــوى تبع   لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

مديحه فيـــك حب خالص وهـــوى
وصادق الحب يملى صـــادق الـــكلم

بين شوقي وابن زيدون

نحن مقبلون فى هذا البحث على واد ظليل من أودية البيان (١) : مقبلون على الموازنة بين نونية شوقى ونونية ابن زيدون • مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية ومراجعة قصيدتين شغلت احداهما الناس تسعة قرون وشغفت الثانية ألوف القلوب •

وابن زيدون صاحب النونية شخصية تمتاز بميزة ظاهرة ، فهو رجل خلقته الدسائس فى الحب والملك ولا يمكن أن نعرف فضل الشر الا اذا تمثلنا مصير ابن زيدون فالدسائس من ألوان الشر الوضيع ولا يعتصم بالدسائس الا الضعاف العجزة من صغار الناس ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير فى أكثر الأحيان فلولا الدسائس فى الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التى تسطع من أدبه الرفيع ••

ومن عجائب ما يقع فى الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان فى دنيا الحب والمجد فالرجل حين يحرم تنفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٣٤٠ •

من نعيم الراحة الروحية والدنيوية والمجد الأدبى متاع ليس بالقليل ، وهو جدير بأن يوضع فى الميزان ولا يغض من قيمة هذه الغنيمة مانعرف ويعرف الناس من أن العبقريين لا يحسون أثر هذا العوض ولا يرضون عن زمانهم ، وان بلغت شهرتهم آفاق السماء ، هذا لا يغض من قيمة تلك الغنيمة ، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنسا مكنونا بظفرها فى عالم الفكر والبيان .

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته ببليتين لا يبتلى بهما رجل كريم الا عرف كيف يكون العز والذل ، والشـــهد والعلقم والنعيم والجحيم .

أما البلية الأولى فهى الحب ، وأما البلية الثانية فهى المجد وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق .

ولا يهمنا فى هذا المقام أن نشير الى منزلة ابن زيدون الوزير ، وانما يهمنا أن نشير الى منزلة ابن زيدون العاشق فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد الى يد ، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب الى جيب أما الحب فنفحة روحانية لا يعبق طيبها الا فى كرام القلوب .

الحب هو الذى فجر العبقرية فى صدر ابن زيدون ولكن أى حب؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء .

والحسن منحة الهية يزفها الله الى من يشاء ، وهو خليق بأن يصنع ما يصنع ، فيعز ويذل ويرفع ويضع ويكرم ويهين ، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب ، انما يسيطر ويستطيل حين يجد رفيقا ، من خفة الروح ومن لطف الذكاء .

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حـــلاوة الشمائل ولطف الوجدان ، وهذا النوع نادر الوجود ، والمرأة حين تمنح الجمال والذكاء تحارب بسيفين مرهفين ، وتحول الدنيـــا الى مآتم

وأفراح ، والشاعر الذى يحب امرأة جميلة ذكية يصبح احساسه كالوقود الذى يقدم الى النار ، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميد .

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون ؟

ان لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة ، وهو يتشوق الى تلك المحبوبة التى ملكت قلبه واستأثرت بنهاه :

هل راكب ذاهب عنهم يحيينى ... اذا كتاب يوافينى فيحيينى
قد مت الا ذماء فى يمسكه ... أن الفؤاد بلقياهم يرجينى
ما سرح الدمع من عينى أطلقه ... الا اعتياد أسى فى القلب مسجون
صبرا لعل الذى بالبعد أمرضنى ... بالقرب يوما يداوينى فيشفينى
كيف اصطبارى وفى كانون فارقنى ... قلبى وها نحن فى أعقاب تشرين
شخص يذكرنى فاه وغرته ... شمس النهار وأنفاس الرياحين
لئن عطشت الى ذاك الرضاب لكم ... قد بات منه يسقينى فيروينى
وان أفاض دموعى نوح باكية ... فكم أراه يغنينى فيشجينى
وان بعدت وأضنتنى الهموم لقد ... عهدته وهو يدنينى فيسلينى
أوحل عقد عزائى نأيه فلكم ... حللت عن خصره عقد الثمانين
يا حسن اشراق ساعات الدنو بدت ... كواكبا فى ليالى بعده الجون
والله ما فارقونى باختيارهم ... وانما الدهر بالمكروه يرمينى
وما تبدلت حبا غير حبهم ... اذا تبدلت دين الكفر من دينى
أفدى الحبيب الذى لو كان مقتدرا ... اكان بالنفس والأهلين يفدينى

ولنسارع فنذكر ان هذه المحبوبة هى ولادة بنت المستكفى التى يقول فيها ابن خاقان :

« كانت من الأدب والظرف وتتييم المسمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب »

كانت ولادة فاتنة الجمال وكانت أديبة تنظم الشعر البارع

وتدك أسرار الكلام البليغ والشاعر الذى يهوى فتاة أديبة ينعم مرتين، ينعم بالحب وينعم بالشعر والشعر لا يقوى وينضج الا اذا عرف المحب أنه يوجه انغامه الى اذن تسمع وقلب يذوق ..

واليكم هذا القصيد فى خطاب تلك الأديبة الحسناء :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا   والأفق طلق ومرأى الأرض قدراقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله   كأنه رق لى فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم   كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت   بتنا لها حين نام الدهر سراقا
تلهو بما يستميل العين من زهر   جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقى   بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
ورد تألق فى ضاحى منابته   فازداد منه الضحى فى العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق   وسنان نبه منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا   اليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لاسكن الله قلبا عن ذكركم   فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملى نسيم الصبح حين سرى   وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
لو كان وفى المنى فى جمعنا بكم   لكان من أكرم الأيام أخلاقا

كان التجارى بمحض الود من زمن   ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم   سلوتم وبقينا نحن عشاقا

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون وانما أردنا أن نمهد لتلك النونية البديعة التى نفحنا بها ذلك الغرام الطريف ..

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء فى جميع البلاد العربية وهى فى الشعر العربى تذكر بليالى ميسيه فى الشعر الفرنسى فكما أن الفرنسيين جميعا يعرفون ليالى ميسيه فالعرب يعرفون جميعا نونية ابن زيدون ، فان كان فى القراء من يجهل هذه

القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته فانه لا يليق بشـــاب مثقف يجهل نونية ابن زيدون التى سارت مسير الامثال ..

وقد يكون فى القراء من يقول انها قصيدة فى الحب ، وما هــو الحب ، والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذى لا يعــرف غير قلوب الفحول من الرجال وانما نشير الى أن رواية الاديب الحــق الذى يصدر عن صدق المشاعر والقلوب هى فى ذاتها متعــة ذوقية لا يصدف عنها الا الغــافلون ..

والى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء (١) :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينـــا
ألا وقد حان صبح البين صبحنا ... حين فقام بنا للحين ناعينـــا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهـــم ... حزنا مع الدهر لا يبــلى ويبلينا
أن الزمان الذى مازال يضحكنا ... أنسا بقربهم قد عـــاد يبكينـــا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينـــا
فانحل ما كان معقــودا بأنفسنا ... وانبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنـــا ... فاليــوم نحن وما يرجى تلاقينا

يا ليت شعرى ولم نعتب أعاديكم ... هل نال حظا من العتبى أعادينـــا
لم نعتقد بعــدكم الا الوفاء لكم ... رأيـــا ولم نتقلــد غيره دينـــا
ما حقنا أن تقروا عين ذى حسد ... بنا ولا أن تسروا كاشحا فينـــا

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليــأس يغــرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنـــا ... شوقا اليــكم ولا جفت مآقينا
نكاد حـــين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأســينا
حالت لفقدكم أيامنا فغــدت ... سودا وكانت بكم بيضــا ليالينا

(١) رأينا أن تسوق هذه النونية كاملة لأنها فى عرض واحد لا يظهر جماله ، الا وهى مؤلفة الشمل ولا كذلك لونية شوقى فانها مختلفة الأغراض . وستكشف الموازنة عن تنقل شوقى من فن الى فن ونفاذه من مسلك الى مسلك .

اذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا
واذ صهرنا فنون الوصل دانية ... قطوفه فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا الا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... اذ طالما غير اليأس المحبينا
والله ما طلبت أرواحنا بدلا ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

يساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كل صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا ... الفا تذكره أمسى يعنينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيا كان يحيينا
فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة ... منه وان لم يكن غبا تقاضينا

ربيب ملك كأن الله أنشأه ... مسكا وقدر انشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه ... من ناصع التبر ابداعا وتحسينا
اذا تأود آدته رفاهية ... توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته ... بل ما تجلى لها الا أحايينا
كأنما أثبتت فى صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر ان لم نكن اكفاءه شرفا ... وفى المودة كاف من تكافينا

يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته ... فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميك اجلالا وتكرمة ... فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
اذا انفردت وما شوركت فى صفة ... فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يشفينا

لاغرو فيأن ذكرنا الحب حين نهت عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
انا قرأنا الأسى يوم النوى سورا مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينـــا
أما هواك فلم نعدل بمنهـــله شربا وان كان يروينـــا فيظمينا
لم نجف أفق جمال انت كوكبـه سالين عنه ولم نهجره قالينـــا
ولا اختيـــارا تجنبناه عن كثب لكن عدتنا على كـــره عوادينا
نأسى عليـــك اذا حثت مشعشعة فينا الشمول وغنـــانا مغنينـــا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينـــا
دومى على العهد ما دمنا محافظة فالحر من دان انصافا كما دينـــا
فما استعضنا خليلا منك يحبسنا ولا استفدنا حبيبا عنـــك يثنينا
ولو صبا نحـــونا من علو مطلعه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
أبلى وفاء وان لم تبـــذلى صلة فالطيف يقنعنا والذكر يكفينـــا
وفى الجواب متاع ان شفعت به بيض الأيادى التى مازلت تولينا

تلكم هى النونية التى شغلت الناس تسعة قرون .

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك الحسناء هيهات فلا يمكن أن يكون لمثله هوى واحد، وكيف وهـــو رجل طامح القلب مرهف الاحساس ..

ولكن التاريخ لم يتحدث الا عن تلك المليحة الحسناء ولو أنه دون جميع ما طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيـــات .

ودع الصـــبر محب ودعـــك ذائع من سره ما اســـتودعك
يقرع السن على ان لم يـــــكن زاد فى تلك الخطى اذ شـــيعك
يا أخا البــــدر ســـناء وســـنا رحـــم الله زمانا أطلعـــك
ان يطل بعـــــدك ليـــلى فلكم بت أشـــكو قصر الليل معـــك

الموازنة بين القصيدتين

عرفنا ابن زيدون العاشق الذى يحسن التحدث عن مآسى القلوب ويكاد يعرف أسرار النفوس فماذا نقول عن شوقى ؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر فى فصول هذا الكتاب ونخشى أن يتحيف حقوق من عرضنا لهم من الشعراء ولكن كيف نستكثر القول فى شوقى وقد بذ ابن زيدون ؟ ان نونية شوقى أعجوبة من الأعاجيب وقد أرسلها من الأندلس فى أعقاب الحرب العالمية فضج لها شعراء مصر .. وأجابه اسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم وعبد الحليم المصرى ولكنهم عجزوا جميعا عن الجرى فى ميدانه ولم يؤثر لهم فى معارضته شىء ذو بال بالقياس الى نونية أمير الشعراء .

ابتدأ ابن زيدون بشكوى البين والأعداء والزمان وكانت الأبيات السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبها ما وشيت به من الزخرف ولكن أين هى من بداية شوقى حين خاطب الطائر الحزين فاندفع يقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا ... قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ... أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا ... سهما وسل عليك البين سكينا
اذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع ... من الجناحين عى لا يلبينا
فان يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا ... ان المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحنانا ولا ظمأ ... ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ذيلا الى فنن ... وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم ... فمن لروحك بالنطس المداوينا

والشاعر فى هذه الأبيات حيران يجعل الطائر فى حالين حال المغترب وحال المقيم .. فما تدرى أيبكى من الغربة أم ينوح من فقد

الأليف ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غـاية الرفق حين قال :

تجـر من فنن ذيلا الى فنن   وتسحب الذيل ترتاد المؤاسـنا

وهى حال نشهدها فى الطائر المحزون ، فقد نرى الطائر ينتقل على غير هدى من أيك الى أيك ، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه ، ولكن أين من يواسى الطائر الحزين . ان شوقى نفسه أخطأ حين قال :

اساة جسمك شتى حـين تطلبهم   فمن لروحك بالنطس المـداوينا

فان الطائر لا يجد من يأسو جسمه وانما يجد من يذبحه ويشويه والناس ألأم من أن يطبوا لطائر جريح .

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان الى معاتبة حبيبته فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد الا الوفاء ، أما شوقى فقد انتقل من خطاب الطائر الى بكاء الأندلس والحنين الى مصر فقال :

واها لنـا نازحى أيك بأندلس   وان حللنا رفيقا من روابينـا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له   نجيش بالدمع والاجـلال يثنينا
لفتية لا تنـال الأرض أدمعهم   ولا مفـارقهم الا مصـلينا
لو لم يسـودوا بدين فيه منبهة   للناس كانت لهم أخلاقهم دينـا
لم نسر من حرم الا الى حـرم   كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلد نابت عنه نسـخته   تماثل الورد خيريا ونسرينـا
نسقى ثراهم ثنـاء كلما نثـرت   دموعنا نظمت منها مراثينـا ..
كادت عيون قوافينا تحـركه   وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

وللقارىء أن يتأمل الحسن فى هذه الأبيات فالشاعر يغلبه الدمع وهو يتذكر ملوك الأندلس ولكن الاجلال يثنيه عن البكاء لأنه فى ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم الا عند السجود فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله وذلك من أبعد الغايات فى الثنـاء .

ويأبى شوقى الا أن يحرص على المعانى الشعرية فهو فى الاندلس لا يسرى من حرم الا الى حرم ولكن كيف ؟ كالخمر سارت من بابل الى دارين وقدسية الخمر لا تجوز فى غير مذاهب الشعراء ..

ثم قال فى الحنين الى وطن النيـــل :

لكن مصر وان أغضت على مقة   عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنـــا   وحــول حافاتها قامت رواقينـــا

وهذا معنى قديم سبقه اليه من قال :

احب بلاد الله ما بين منعــــج   الى وسلمى لو يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمــــائمى   وأول أرض مس جسمى ترابها

والبكر هو قول شــوقى :

ملاعب مــــرحت فيهـــا مآربنا   وأربع أنســـــت فيهـــا أمانينا

وانما كان هذا معنى بكرا لما فيه من طرافة الخيال ، أرأيتم كيف تمرح المآرب وكيف تأنس الأمانى ؟

لقد رأيت شوقى أول ما رأيته سنة ١٩٢١ وكان دعانى للغـــداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الاكرمين مصطفى القشاشى وســـعيد عبده وأحمد علام فعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر وسألت نفسى كيف كان ذلك الملاك فى صباه .

ان حنين شوقى الى مصر حنين عميق وانما كان كذلك لأن الشاعر شهد فى مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها الا الأقلون ودنيا شوقى لم تكن مثل دنيا الناس فى هذا الزمان ، كانت الدنيا فى شباب شوقى تفيض بالبشر والايناس وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مضمخة بالسحر والفتون وكان للجمال قدسية وكان للصبا سلطان . وكانت خطوب الزمن لا تهد النفوس كما تفعل فى هذه الأيام .

ومن البكر أيضا قول شوقى :

بنا فلم نخل من روح يراوحنا ... من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا ... وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

يريد أن يقول ان مصر لم تلقه فى يم المنفى الا خوفا عليه من كيد فرعون .. فرعون القرن العشرين المستر جون بول !!

تذكروا قول ابن زيدون :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا
الفا تذكره أمسى يعنينا

وهذا شعر جميل ولكن انظروا كيف عارضه شوقى فقال :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دما ... هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم نهتك دياجيه ... على نيام ولم نهتف بسالينا
والنجم لم يرنا الا على قدم ... قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة فى سماء الليل حائرة ... مما نردد فيه حين يضوينا
بالله ان جبت ظلماء العباب على ... نجائب النور محدوا (بجبرينا)(١)
ترد عنك يداه كل عادية ... انسا يعثن فسادا او شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية ... على الغيوث وان كانت ميامينا
وأحرزتك شفوف اللازورد على ... وشى الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مؤرجة ... ربت خمائل واهتزت بساتينا
فقف الى النيل واهتف فى خمائله ... وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس ما بات يذوى من منازلنا ... بالحادثات ويضوى من مغانينا

(١) جبرين : لغة فى جبريل .

انظروا ابن زيدون يسأل البرق أن يسقى القصر ، وشوقى يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية والمغانى الضاوية ، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقى أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق الى أفــق ، وانحداره من أرض الى أرض وأعطى صورا من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق الا شاعرا ودع دنياه حين ودع النيل ..

وقال ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنــــا   من لو على البعد حيا كان يحيينا

عارضه شوقى فقــال :

ويا معطرة الوادى سرت ســحرا   فطاب كل طــروح من مرامينــا
ذكية الذيل لو خلنــا غلالتهــا   قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا   بالورد كتبا وبالريا عنـــــاوينا
فلو جزينــاك بالأرواح غاليــة   عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مســـكى نحمله   غرائب الشوق وشيا من أمالينــا
الى الذين وجدنا ود غيرهمــو   دنيا وودهم الصافى هو الدينــا

ان ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يا نسيم الصبا » وهــو تعبير ورد فى مئات القصائد ، أما شوقى فراح يفتن افتنانا يدل على قدرة الشاعرية وبراعة الخيال فوصف النسمة بأنهــا معطرة الوادى ، وأنها سارت فى السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق ، وأنها ذكية الذيل كأنها قميص يوسف . وانها جشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسما فى رسائل وأتت بالريا ممثلة فى عناوين وشكر لهـــا النعمى فقال :

فلو جزينــاك بالأرواح غاليـــة   عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا

وان ابن زيدون يقول « بلغ تحيتنا » وهى عبارة جافية لأنهــا وردت فى صورة الأمر ، أما شوقى فيترفق ويقول :

هل من ذيولك مســـكى نحمله   غرائب الشوق وشيا من أمالينــا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على احيائه لو أسعفوه بتحية. وشوقى يحمل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا . أما هوى أحبابه الذين يتشوق اليهم فهو فى صفاء الدين ..

ولا تنكر أن بعض أخيلة شوقى مقتبس من ابن زيدون فقول شوقى :

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا   بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا

اختلس برفق وحذق من قول ابن زيدون :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

والمعنى الذى عرضه ابن زيدون فى ثلاثة أبيات بسطه شوقى فى ثمانية عشر بيتا وانما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون فكان لابد له من توشية بارعة تعفى على النظرة الفطرية فى أبيات ابن زيدون ولابن زيدون فضل السبق ولشوقى فضل البراعة فى تلوين الصورة الشعرية وهو فضل ليس بالقليل ..

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال :

حالت لفقدكمو أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا   ومربع اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا فنون الوصل دانية   قطوفه فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما   كنتم لأرواحنا الا رياحينا

وهذا شعر صافى الديباجة رائع المعانى ولكن انظروا كيف عارضه شوقى فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سقيا لعهد كأكناف الربا رفة (١)   أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
اذ الزمان بنا غيناء زاهية   ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية   والسعد حاشية والدهر ماشينا

(١) رفة : النضرة .

والشمس تختال فى العقيـــان تحسبها
بلقيس ترفـــل فى وشى اليمـــانينا
والنيـــل يقبـــل كالدنيـــا اذا احتفلت
لـــو كـــان فيهـــا وفـــاء للمصـــافينا
والسعد لو دام والدنيـــا لو اطـــردت
والسـيل لو عف والمقـــدار لودينـــا
ألقى عـــلى الأرض حتى ردهـــا ذهبـــا
ماء لمســـنا به الاكســـير أو طينـــا
أعداه من يمنـــه (التـــابوت) وارتسمت
على جـــوانبه الأنـــوار من ســـينا
له مبـــالغ ما فى الخـــلق من كـــرم
عهـــد الـــكرام وميثـــاق الوفيينا

لم يجر للدهـــر اعذار ولا عرس الا بأيامنا أو فى ليالينـــا (١)
ولا حوى السعد أطغى فى أعنته منا جيـــادا ولا أرخى ميـــادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيـــد التشتيت غالينـــا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق .. اذا تلون كالحـــرباء شـــانينا

والقارىء حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدرى أيهما أجـــود لأن ابن زيدون على قصر نفسه فى هذا الشوط بلغ غاية الرشـــاقة حين قـــال :

واذ هصرنا فنون الأنس دانيـــة قطوفه فجنينـــا منـــه ماشينا

وبلغ غاية الدقة حين قال :

اذ جـــانب العيش طلق من تألفنـــا
ومورد اللهـــو صـــاف من تصافينا

والدقة فى هذا البيت تؤخـــذ من صدق التعليل فالعيش لم تتسع

---

(١) الاعذار : طعام يتخذ لأيام السرور .

جوانبه الا بفضل التألف ، تألف القلبين واللهو لم يصف مورده الا بفضل التصافى تصافى الحبيبين والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء وانما تصفو حين تصفو النفوس وتقسو حين تقسو القلوب فالزهر ، الذى يبسم لك لا يبسم لك وحدك وانما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صفت لك، وقد يراه غيرك فى ابتسامه صورة من صور العبوس والنهر الذى تنظر اليه فى الليالى المقمرة فتراه عاشقا يغازل القمر ويتلقى دعابته فى حنان ، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك الا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مرح وحس طروب وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب ..

ويروقنا قول شوقى :

سقيا لعهد كأكناف الربا رفة	أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
اذ الزمان بنا غيناء زاهية	ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية	والسعد حاشية والدهر ماشينا
والنيل يقبل كالدنيا اذا احتفلت	لو كان فيها وفاء للمصافينا

يروقنا هذا الشعر لأن الشاعر جعل عهده فى نضرة الزهر الذى يتفتح فى أكناف الربوات، ولأنه رأى اللين فى أيام الأنس شبيها باللين فى أعطاف الصبا ، وأعطاف الصبا جوهر نبيل لا يعرف طيب لينها الا شاعر أمكنته من أعطاف الصبا سورة الصبوات . ويروقنا أيضا لطرافة هذا الخيال ..

« ترف اوقاتنا فيها رياحينا »

ورفيف الأوقات معنى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن فى أرجوحة اللهو الجموح . ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى اقبال النيل كالدنيا حين تحتفل وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك ..

« لو كان فيها وفاء للمصافينا »

ولكن هذه الطرافة فى أخيلة شوقى لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شىء حين قال :

يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من نضارته ... فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا

ان لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة فى الهتاف بالروضة التى (طالما أجنت لواحظنا وردا جلاه الصبا) تأملوا عبارة « أجنت لواحظنا » انظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه الى مناعم الروضة وانما تهجم الروضة عليه فعلمه كيف يهصر الافنان وكيف يجنى القطوف وعبارة « جلاه الصبا » ما رأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ ؟؟

ثم ما هذا التعبير الطريف :

« منى ضروبا ولذات أفانينا »

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوان وللذات أفانين ؟ ان هذا خيال شاعر غرق مرة فى كوثر الوصال ..

وانظروا هذا البيت :

ويا نعيما خطرنا من نضارته ... فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا

أتحسون قوة هذا المعنى ؟ ألا يريكم الخيال صورة فنان منعم يسحب ذيل النعيم ؟ ان ابن زيدون فى هذه الابيات أقوى من شوقى فى التحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود .

واشترك شوقى وابن زيدون فى التفجع والحنين اما ابن زيدون فيقول :

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا — والدهر قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا — حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لا غرو انا ذكرنا الحب حين نهت — عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
انا قرأنا الأسى يوم النوى سورا — مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله — شربا وان كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه — سالين عنه ولن نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كثب — لكن عدتنا على كرة عوادنا

والشاعر فى هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف • ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد الى الزقوم والغسلين •، ويرى ورد الهوى القديم شربا لا يعدله شرب • وان كان يرويه فيظميه ونعيم الوصل يرهف الحس فيزيد القلب ظمأ والتياعا الى التياع ، وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود وانما أكرهته العوادى •

ويروقنا هذا التعبير الموفق :

« لم تجف أفق جمال أنت كوكبه »

فكأن الدنيا كانت لعهده من المفاتن •• وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول بانداء الفتون •

هذا جزء من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون وعارضه شوقى فقال يصف قسوة الليل وقسوة الفراق :

ونابغى كأن الحشر آخره — تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه بجرح من فراقكمو — يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
اذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا — حتى يزول ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه — حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا — للشامتين ويأسوه تأسينا

وهذا من الشعر الرفيع ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف والا فكيف نصل الى بيان الفتنة فى هذا البيت :

نطوى دجاة بجرح من فراقكمو   يكاد فى غلس الأسحار يطوينا

أترون كيف يطوى الدجى بالجرح ؟ اترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليـــل ؟؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسى الشاعر بطء الكواكب • ثم ينظر فيراها ابتليت به فباتت تقاسيه وهى حسرى لواغب ؟ والشـــاعر قد يعظم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه••

وكان الشعراء الاقدمون يرون النهار يبدد الاشجان بفضل ما فيه من الشواغل أما شوقى فيرى اشجانه لا تهدأ نهارا الا بفضل التـــأسى والتجلد الشامتين •

بقى النظر فيما تفرد به الشـــاعران •

ونحن نرى أن ابن زيدون تفرد بهذين البيتين فى خطاب حبيبته التى أقصاه عنهـــا الزمان :

نأسى عليـــك اذا حثت مشعشعة   فينا الشـــمول وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا   سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

وهذا من ادق المعانى النفسية فالشراب والغناء يهيجان العـــواطف الغافية ويبعثان الوجد الدفين ، وللشوق فى أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر المشبوب ، وأين الجمر بجانب ما يثور فى القلب عند الشراب والسماع ؟؟ ان هذه لحظات تكشف المقنع من سرائر النفوس وتصنع ما تصنع الحمى العاتيه حين تنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منـــذ سنين •

وقول ابن زيدون :

ولو صبا نحونا من علو مطلعه   بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

هو اصل المعنى الذى ساقه شوقى فى السينية :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

وهو أخذ رفيق لا يحاسب على مثله الشعراء :

وتفرد شوقى بالفخر بنفسه وبأمجاد النيل فقال :

لم يجر للدهر اعذار ولا عرس   الا بايامنا أو فى ليالينا
ولا حوى السعد أطغى فى أعنته   منا جيادا ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا   ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق   اذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميدانا ولا صعدت   فى ملكها الضخم عرشا مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته ورأت   عليه أبناءها الغر الميامينا
ان غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا   خمائل السندس الموشية الغينا(١)
وبات كل مجاج الواد من شجر   لوافظ القز بالخيطان ترمينا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع وهل عبد المصريون الشمس الا لأنهم عرفوا فضل الشمس ؟ وما الدنيا بدون الشمس الا وجود تافه سخيف ..

وشوقى لم يعن الا نفسه حين قال :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا   ولم يهن بيد التشتيت غالينا

وقد صدق .. فقد قامت فى وجه الرجل أحداث تهد الجبال وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه واحساسه وشاعريته يصعب هدمه وان تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين ..

وتفرد شوقى بالحديث عن الأهرام فقال :

وهذه الأرض من سهل ومن جبل   قبل القياصير دناها فراعينا

---

(١) الغين : جمع اغين ، وهو الأخضر ، والمؤنث غيناء .

ولم يضع حجـرا بان على حجر | فى الأرض الا على آثار بانينـا
كأن أهرام مصر حائط نهضـت | به يـد الدهر لا بنيـان بانينا
ايوانه الفخـم من عليا مقاصره | يفنى الملوك ولايبقى الأواوينا(١)
كأنها ورمالا حـولها التطمت | سـفينة غرقت الا أسـاطينا
كأنها تحت لألاء الضـحى ذهبـا | كنـوز فرعون غطين المـوازينا

وللقارىء أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر فى هذا البيت :

ولم يضع حجرا بان على حجـر | فى الأرض الا عـلى آثار بانينـا

وله أن يعجب من روعة الخيال فى هذا البيت :

كأن أهرام مصر حائط نهضت | به يد الدهـر لا بنيـان بانينـا

وله أن يتأمل دقة التشبيه فى هذا البيت :

كأنهـا ورمالا حولها التطمت | سفينة غرقت الا أسـاطينا

وذلك شوقى وتلك آياته البينات .

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الانسانى وتفرد شوقى بوصف الجمال الطبيعى ، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هى تحفة فى الصور الانسانية وأعطى شوقى مفاتن النيل صورة هى غرة فى الصور الطبيعية أما صور النيل فقد رآها القارىء من قبل .. وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات :

ربيب ملك كأن الله أنشـأه | مسكا وقدر انشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضـا وتوجـه | من ناصع التبر ابداعا وتحسـينا
اذا تأود آدتـه رفاهيـة | توم العقود وآدته البرى لينـا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته | بل ما تجلى لهـا الا أحايينـا
كأنما أثبتت فى صـحن وجنته | زهر الكواكب تعويذا وتزيينـا
ما ضر أن لم نكن أكفـاءه شرفا | وفى المودة كاف من تكافينـا

---

(١) الأواوين : جمع ايوان .

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة . وفى الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون فى علم الجمال ، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم . والزهر النضير الذى يضاحك الشمس فى حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسى الذى يتفتح وهو مهجور فى ربوة قاصيه لا يعرفها غير الذئاب ان جواهر الجمال تختلف أشـــد الاختلاف ولكل لون من ألوان الجمال المحجب شبيها بما يوحيه الجمال المباح ؟ ان الطبيعة قد يبدو لها أحيانا أن تكايد النـــاس فتنشىء من الحسن فى حى بولاق ما تغيظ به الناعمين فى حى القصر العالى (١) . ولكنها لا تفلح ، فالجمال الذى ينبت فى البيئات السوقية يظل شوقى الشمائل والنوازع أما الجمال الذى يتفتح فى البيئات المنعمة فيظـــل ملحوظ المشارب والميول .

فمعشوقة ابن زيدون ربيبة ملك وربيبة الملك تألف الســيطرة منذ أيام المهد ويظل دلالها طول الحياة دلالا سماويا يأخذ فيضه من قوة الطبع لا من لؤم التمنع ، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الريحان وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك . ويرى الناس ماعداها خلقوا من طين . وكلمة (طين) وقعت قبيحة فى شعر ابن زيدون الا أن يكون أراد الاشارة الى بعض الناس . والمرء حين يغضب يرى الناس خلقوا من طين . وان كان الطين أشرف من بعض من نرى من المخلوقات . والطين تربة يحيا بها الزهر ويتغـــذى منها الشوك وفوته تتخطر الظباء ، وعليه تزحف الأفاعى والصلال .

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال :

اذا تأود آدتـــه رفـــــاهية   توم العقود وأدمته البرى لينـــا

والجمال الذى تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غض رقيق يشبه فى رقته نواظر العيون ولفائف القلوب وهذا الجمـــال منثور فى المدائن نثر الزهر واللؤلؤ ، ولولا وجوده فى هذه الدنيـــا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة نعمة البصر والحس والذوق ، لولا

الجمال المنعم المصون الذى لا يطمع فى تفيىء ظـلاله غبى ولا لئيم لأقفرت الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة وانفاس الشعراء..

لولا الجمال المنعم المصون الذى لا يطمع فى تفيىء ظلاله غبى ولا لئيم لما استطاب شاعر سهر الليل وألم الجفون وهل يعنى القلب فى سـبيل الجمال المبتذل .. الذى ترنو اليـه جميع العيون ؟ ان الجمال المبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذى لا تألم من النظر اليه عين رمداء أما الجمال المصون فشبيه بالشمس لا يقوى على النظر اليه الا الفحول من الشعراء والأقطاب من الكتاب ، هو الجمال الفرد ولا يصاوله الا الرجل الفرد : وان كان يتواضع فيقول :

ما ضر ان لم نكن أكفاءه شرفا   وفى المودة كـاف من تكافينـا

هذا تواضع فان جوهر الحب فى قلب الشاعر أنفس من جوهـر الحسن فى وجه الجميل وهل تعربد معانى الصباحة فى الوجه المليح كما تعربد عرائس الشعر فى قلب الشـاعر الذى يلقى الأنوار والظلمات وحوله جيش من الهوى المتمرد والوجد المشبوب ؟

ان قلب الشاعر جوهر نفيس ولولا فضله على الدنيا ما عـرف أحد جمال الصبح المشرق ولا تنبه مخلوق الى لمح الـكواكب ولألاء النجوم . ولا تلفت باحث الى شعر ابن زيدون وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون .

ثم ماذا ؟.. بقى أن نشرب صبابة الكأس من نونية شوقى ، وكل صبابة فى الكأس صاب ، بقى أن نتوجع لبلواه وهو يتشوق الى مصر فيقـــول :

أرض الأبوة والميـلاد طيبهـــا	مر الصبا فى ذيول من تصـابينا
كانت محجـــلة فيها مواقفنـا	غرا مسلسلة المجرى قوافينـــا
فآب من كرة الأيام لاعبنـــا	وثاب من سنة الأحـلام لاهينا
ولم ندع لليالى صـافيا فدعت	(بأن نغص فقال الدهر آمينـا)

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة والبر نـار وغى والبحر غسلينا
سعيا الى مصر نقضى حق ذاكرنا فيها اذا نسى الوافى وباكينـا

أرأيتم هذا الشعر ؟ ارأيتم الخيال فى هذا البيت :

فآب من كـرة الأيام لاعبنا وثاب من سنة الاحلام لاهينـا

أرأيتم صورة الهول المقتحم فى هذا البيت :

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة والبر نـار وغى والبحر غسلينا

ثم ماذا ؟ بقى ختام القصيدة وهى أبيات ما قرأتها الا بكيت على أمى يرحمها الله ..

وانظروا كيف هفا قلب الشاعر الى أمه فى حلوان :

كنز بحلوان عند الله نطلبـه خير الودائع من خـير المـؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنـا لم يأته الشـوق الا من نواحينا
اذا حملنـا لمصر أو له شـجنا لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

طيب الله ثراك أيها الشاعر .. ورحم والدى ووالديك فالدعاء فى أعقاب شعرك كالدعاء فى أعقاب الصلوات .

الموازنة بين عبقرية وعبقرية

نعيش الآن مع صفحات منقولة من كتاب «الموازنة بين الشعراء» لأنهـــا من ناحية تتحدث عن ماهية الناقد ومن ناحية ثانية هى نقــد لشعر شوقى كما براه بعض النقاد وكما يراه زكى مبارك •••

يقول زكى مبارك : (١)

« ان الناقد انمـــا يوازن بين عبقرية وعبقرية •• ويفاضـــل بين بصيرة وبصيرة ويقارن بين ادراك وادراك ، بغض النظر عن الفروق الموضعية التى يقضى بها اختـــلاف الاقاليم ، والفوارق الزمنية التى يوجبها اختلاف العصـــور وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة ، ولكنها ضرورية : يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته ، وأن يفنى فى شخصية الشاعر الذى يدرسه بحيث يبصر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويفقه بقلبه ، ليسبر كما قلت أغوار نفسه ، وليرى مبلغ شعوره بمـــا وصفه من الأشياء » •

ثم يقول زكى مبارك : (٢)

« على الناقد أن يتبين العهد الذى عاش فيه الشاعر ، وأن يعنى

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٢٤ •

(٢) نفس المرجع صفحة ٢٠ •

فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر فى أذواق الشعراء •

فقد أنكروا على شوقى قوله :

ارفعى الستر وحيى بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفى الهودج فينا ساعة نقتبس من نور أم المحسنين
واتركى فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الأمين

مع ان أم المحسنين انما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض ، ولكن هكذا بقى الهودج فى ذهن شوقى ، لامعانه فى دراسة الشعر القديم ••

وانكروا عليه قوله فى سيارة الدكتور محجوب :

لكم فى الخط سيارة حديث الجار والجاره

واستخفوا كلمة « حديث الجار والجاره » وفاتهم ان الدكتور محجوب يسكن فى حى قد لا يعرف أهله غير الخيل والبغال والحمير ••

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم :

أمشى يرنحنى الأسى والبؤس ترنيح الشراب

لأن اليتيم البائس لا يعرف كيف يترنح السكران ، ولكن حافظ يرى هذه المناظر فى الصباح والمساء •

واستضعفوا قول مطران فى رثاء اسماعيل صبرى :

شهب تبين فما تؤوب فكأنها حبب يذوب
أرأيت فى كأس الطلا دررا وقد صعدت تصوب
هو ذاك فى لج الدجى طفو الدرارى والرسوب
لا فرق بين كبيرها وصغيرها فيما ينوب

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبب والكأس ، وليس لك ان تشبه الشهاب حين يغيب بالحبب حين يذوب ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران لنعرف قيمة هذا التشبيه فى نفسه المراح .

وكذلك نقول فى توجيه كلمة شوقى فى رثاء محمد تيمور :

ضربوا القباب على الشباب وثووا الى يوم الحساب
همدوا وكل محرك يوما سيسكن فى التراب
نزلوا على ذئب البلى فتضيفوا شر الذئاب
وكأنهم صرعى كرى بالقاع أو صرعى شراب
فاذا صحوا وتنبهوا فالله أعلم بالمآب

فان تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال ، وانما يشير بطرف خفى الى ما لحياته من شتى الألوان ، كما أفصح شعره عن ألوان حياته فى قوله من كلمة ثانية .

ما أنت يا دنيا أرؤيا نائم ؟ أم ليل عرس ؟ أم بساط سلاف
نعماؤك الريحان الا انه مست حواشيه نقيع زعاف

وقال أحد أنصار ابن الرومى يلومه : لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال انشدنى من قوله الذى استعجزتنى عن مثله . فأنشده قوله فى الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدنى فأنشده :

كأن آزريونها غب سماء هاميه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح : واغوثاه . لا يكلف الله نفسا الا وسعها . ذلك انما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر اذا وصفت أين يقع قولى من الناس ، فهل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا
من الجو دكنا والحواشى على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر اثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح المبصر
ما بين رؤيتهــا فى كفه كــرة وبين رؤيتهـا قوراء كالقمـر
الا بمقدار ما تنــداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجـر

فليس لك أن تقـدم ابن المعتز على ابن الرومى لأنه اسـتطاع تشبيه الاريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية ، وليس لك ان تقدم ابن الرومى على ابن المعتز لأنه اجاد وصف الخباز ، وهو يدحو الرقاق ، فان السبق هنا وهناك يرجع الى الظروف التى اتيحت لكل من الشاعرين ومهدت السبيل الى الوصف الدقيق ، وانمـا يجب عليك أن تعتمد الى الشـاعر وتسبر أغـوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء ، فقد يكون ابن الرومى فى وصـف الرقاق أشعر من ابن المعتز فى وصف الهلال .

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصـاف الحضرية على الأوصاف اليدوية لأن الحضارة فى ذوقك أنضر من البداوة ، فقد يكون البدوى فى بدونه أشعر من الحضرى فى حضارته ، كما قال أستاذنا المهدى ، ومعنى ذلك أن البدوى قد يكون شعوره بالريح المسموم فى مجاهل البيداء أقوى من شعور الحضرى بالنسيم العليل فى الروضة الغناء .

فليس قول خزيمة بن نهد فى ريق محبوبته :

فتاة كأن رضـاب العبـير بفيهـا يعـل به الزنجبيل

بأقل من قول الشريف الرضى :

يبسمن عن برد الغمـــام وبرده ريان يغبق بالمدام ويصـــبح

ولا يفضلهما من قال : « كأنى ألتقط من فيها حب الرمان » • لأن الأمر فى ذلك يرجع الى قوة ادراك الشاعر ، بغض النظر عن تفــاوت الأوصاف ، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تعطر به الافواه فى البادية كما تكون الخمر ، أو حب الرمان ، أحلى ما تعطر به الثنــايا فى الحاضرة ولكل شعب وجهة فى تناول الأشياء •

ألم تر الى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم فى مدحه :

أنت كالكلب فى حفــاظك للود وكالتيس فى قراع الخطــوب

لقد طرب المتوكل لهذا الشـــعر ، وان كان جافى اللفظ بادى الخيال ، لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية ، وهى روح البيان ، ثم أسكنه قصرا من قصور بغداد ، واستدعاه بعد ذلك ، وقد صــقلته الحضارة • فأنشده تلك الرائية البديعة التى يقول فى أولها :

عيـــون المهـــا بين الرصـــافة والجسر
جلبن الهـــوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدن لى الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمر
سلمن وأسلمن القلوب كأنمــا تشك بأطراف المثقفة السمر (١)
خليلى ما أحلى الهـــوى وأمره وأعرفنى بالحـــلو منه وبالمر
بمــا بيننـــا من حرمة هـــل علمتما
أرق من الشـــكوى وأقسى من الهجـــر

---

(١) المثقفة السمر : هى الرماح •

أحمد شوقى وزكى مبارك

كانت الأيام قد جمعت بين أحمد شوقى وزكى مبارك فتوثقت بينهما الصلة ثم عادت الأيام وفرقت بينهما ، ولم يعد زكى مبارك يزور أحمد شوقى ولم يعد أحمد شوقى يسأل عن زكى مبارك •

ولم يكتف أحمد شوقى بعدم السؤال عن زكى مبارك ! ولـكن كيف ؟

فى سنة ١٩٢٧ يرى اصدار عدد خاص من السياسة الأسبوعية « لتكريم أحمد شوقى » ، ويدعى للاشتراك فى تحرير هـــذا العدد الخاص رجال كان فيهم زكى مبارك ، ويرى شوقى ان من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان من بينها مقــال زكى مبارك ••

وتدور الأيام وينتقل أحمد شوقى الى عالم الخلود فماذا نرى ؟

نرى زكى مبارك يكتب ويكتب عن أحمد شوقى ••

صحيح أن زكى مبارك قال : ان شوقى الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقى الذى يعرفه الناس كانسان اجتماعى يخطىء ويصيب بين الحق والواجب •

ولكن زكي مبارك قال أيضا : لم أسيء يوما الى شوقى الشاعر ، والحمد لله وان كنت بعت حظى في شوقى الصديق ..

ويقول زكي مبارك : شوقي شاعر مصر ، وهـــو على جحوده أستاذ الأساتذة فى ميدان القصيد ..

ثم انظر كيف يتحدث زكى مبارك الى شوقى فيقول له : طيب الله ثراك أيها الشاعر ، ورحم والدى والديك ، فالدعاء فى أعقـاب شعرك كالدعاء فى أعقاب الصلوات .. والآن مع بعض مقالات للأديب الناقد الفنان الدكتور زكى مبارك بعضها نشر فى حياة الشاعر أحمـد شوقى وبعضها نشر بعد رحيل الشاعر أحمد شوقى الى عالم الخلود .

مقاصد الشعراء (١)

نريد من مقاصد الشعراء الغايات النبيلة التى يسعون اليهـا فى الحياة ، وبعبارة أوضح الصـــور الجميلة التى تتمثلها أرواحهم كلما هموا بضرب الأمثال للناس ولست أريد فى هـــذه الكلمة أن أنتزع صورة للشاعرية الحقة من بين ما قرأت من شعر العرب والفرنجة فان ذلك وان صح أن يكون هاديا لبعض العقول ، فانه كثير فى الكتب المختارة من دواوين ومجاميع ، وهو على الجملة فى مقدور كثير من أهل العلم والبيان .

لم يعرف العلماء ولا الأدباء الا قليلا منهم ـ معنى الشـــعر فى القرآن أو ما يقصد العرب من وصف النبى بأنه شاعر ، أو الصورة التى تمثلوها حينما ظنوا القرآن قصيدة طويلة ، وأحسوا أن النبى شاعر مطيل ، ويخطيء من يظن أنهم هازئون فى وصف النبى بالشاعرية فان الشعر كان عندهم فى منزلة فوق الاعزاز والاجلال ولكنهم ارادو أن

---

(١) جريدة المحروسة ـ ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٠ .

يصفوه بالعبقرية وأن يجعلوا رسالته في وصف الأماني العالية • •
التي لا يتخيلها الا الشعراء وان يجعلوا لأنفسهم عذرا في التخلف
اذا رأوا في الشريعة تكليفا فوق الوسع ، ثم استحبوا العمى على
الهدى ، فما يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس وأريد أن أقول :
انهم يرون في الشعر شرعة خاصة يلزم باتباعها من سمت نفسه الى
ادراك ما يوحى به الى الشاعر المجيد ، فهم يشيرون على النبي بأن
يبحث عن طائفة من الناس تفهم كما يفهم ويكون مرأى الحياة في ادراكها
كمرآها في ادراكه ويلذ لها من التكاليف العصبية ما يلذ له أما هم
فانهم بفضل سلامتهم من جنون الشعراء — والنبوغ نوع من الجنون —
غير مكلفين باتباع ما يبدع الشعر وأهله من أنظمة الحياة العالية
وكذلك يرون التشريع الخاص غير التشريع العام ويرون شريعة النبي
دقه تسمو بها الى الشرائع النظرية ، وتبعدها عن الشرائع العملية ،
وانهم لفي ضلال مبين •

الشعر في نظر العرب يدعو الى شريف الخلال ، وكريم الخصال ،
أو يبدع صورا للذائذ الحسية والمعنوية فالحق العالي الصرح والباطل
الواهي الأساس والفضيلة العالية والرذيلة السافلة ، كل أولئك مما
يقع تحت حس الشاعر المبدع فهو فاضل ان دعا الى الفضيلة ، وناقص
ان زين الرذيلة ، وهو على كل حال معروف بالقدرة على وصف
ما يدعو اليه العقل ، أو يرنو له القلب ، وللناس فيما يعشقون مذاهب •

وأقول ذلك لئلا يحسب واهم أني أجعل الشعراء في درجة
الأنبياء ولكن كذلك ارجو أن لا يختلف عني بعض القراء فيما فهمناه
معا من أن الشعر انما يضع الأمثلة العالية ، أو يصف الأمثلة العالية ،
فالشاعر أما واضع قادر أو واصف ماهر والناس مختلفون في اتباعه
فمنهم من يتبعه أحسن أم أساء ، لأن الحياة عندهم ذات ألوان •
والشاعر يصف ألوانها الذميمة والوسيمة وهم يريدون أن يتذوقوا كل

مظاهر الحياة ومنهم من يتبعه ان أخطأ ويصدف عنه لن أصـــاب •
وهؤلاء هم المخلدون الى الحياة الوادعة ، والصادفون عن الحيـــاة
الخاملة ، وهم لا يقرأون كل شعر كالصنف الأول ليقفوا على أنواع
المدركات من حق واضح أو باطل فاضح ولكنهم يعكفون على طائفة من
الشعر الذى انفصمت عراه ، وتفككت أوصـــاله ، ليتم التناسب بين
ما تعمل أيديهم وما تقرأ السنتهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم
يعلمون •

ومن الناس من يتبع الشعر الداعى الى الحق ، ويرى فيه نفحة
من نفحـــات النبوة وعلامة من علائم الرسالة ، والشعراء عنـــده
لا يتفاوتون بما يتفاوتون به غيره من الرغبة فى الفضيلة أو الميـــل
الى الرذيلة ، ولكنهم يتفاضـــلون بتقديرهم للفضـــائل ، وتصويرهم
للمحامد ، فهو يفضل بعض الشعراء على بعض ، كما فضـــل بعض
الأنبياء على بعض وهؤلاء الشعراء وتابعوهم من بناة المجد هم الذين
عناهم أبو تمام حين قال :

ولولا خـــلال سـنها الشعر ما درى
بنـــاة المعـــالى كيف تؤتى المكارم

ولا يتوهمن قارىء أن اختلاف الشـــعراء فى مذاهبهم الخلقية
مما يؤثر عليه فى الحكل من الناحية اللغوية فان أبا نواس فى خمرياته
أصح من أبى العتاهية فى زهدياته ، لكن هناك وجها آخر للمفاضلة :
وهو أن للغـــواية درجات ، كما أن للهـــداية درجات فالمثل العـــالى
للخلاعة انما يدركه الخلعاء والمثل الأعلى للنبالة انما يدركه الشـــعراء
النبلاء ولكل شعر موضع ، ولكل مقام مقال، فليس للشاعر أن يلبس روح
الخليع حينما يريد أن يكون قدوة فى المكارم وليس له أن يلبس روح
النبيل حينما يرغب أن يكون عمدة فى المآثم وانما يلبس لكل حال
لباسها من جد وهزل ، فيتعالى فى الجد حتى يقال نبى مرســـل ، أو

حكيم موفق ، ويتراجع فى الهزل ، حتى يقال ماجن مازح ، أو ذو نشوة خليع ..

اذا جد حين البأس أغناك جده
وذو باطل ان شئت أرضاك باطله

وليس يخفى على القارىء انى هنا انما أحكم على أنواع الشعر وطوائف الشعراء ولست أدعو الى مذهب خاص أو طريقة معينة فان لذلك بحثا غير هذا البحث وأريد أن أسأل القارىء بعد ما سلف من البيان :

هل الشعر فى مشروع اتفاق ملنر من الجد أو الهزل ؟ وهل الشعراء فيه من الخلفاء أو الحكماء ؟

وفى المقال الثانى وهو تتمة للمقال الأول يقول الأديب الناقد زكى مبارك : (٢) عن قصيدة شوقى فى مشروع ملنر :

قرأنا للشاعر المجيد أحمد بك شوقى قصيدة فى هذه الاتفاقية . كان نصفها الأول النسيب ، وهو يتطلب الاسراف فى الخلاعة ، فلذلك راقنا منه أن يذكر ان قلبه لم يقلع عن الغواية وهو أشيب ، وان سرب الغوانى لعب بلبه فأضله عن سواء السبيل ، راقنا ذلك كله : لأنا نستملح كل ما يأتى عن طريق القلب ولأن النسيب من الاشيب عنوان ظرفه ولأن هذا المثل مما يتأسى به المسرفون فى الصبابة وهم أحداث ولا ننكر أن هذا مقبول ولو انصافا للفن واذ كنا نود لو وصف شوقى نفسه بما وصف به ابن الصمة أخاه اذ قال :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للباطل ابعد

---

(٢) جريدة المحروسة ـ ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠

وكان النصف الثانى بيانا لرأيه فى مشروع الاتفاق ولا يستطيع من قرظ قصيدة شوقى تلك بكلمة موجزة أن يدعى ان الحكم على هذا المشروع مما يدخل فى طائفة الحكم على عتق الخمر وصفاء الكأس وحلاوة العين ، وجمـــال الأنفس ، ورشاقة القد ، الى غير ذلك من الأوصاف الظاهرة لمحاسن النساء أو الأشجار أو الأنهار أو الجبـال وانما هو حكم على آمال أمة تختلف أطماعها السياسية باختلاف عقول أبنائها البررة من علماء وحكماء وشعراء وباختلاف الآمال ضعفا وقوة يوصف الرجل بأنه قوى أو ضعيف ولئن كان الشاعر حرا فى اختيار النوع الذى يحيه من الحياة فانه غير حر أو غير مقتدى به فى الدعوة الى نوع من الحياة لا يتلاءم مع الشعب الذى ولد فيه والوطن الذى درج منه ، وهو عرضة لأن يوصف بضعف العزيمة وخمود النفس وركود الطبع ، وأهل لأن ينكر عليه ماضيه الأعز ، وسابقه المخجل ، وأقـل ما يجد الناقد فيه من العيوب . ان شعره ليس شريعة عامة للشعب .

وانه بدلا من أن يتعالى الى أبكار الأمانى فهو ينسفل الى ثنيات النوازع ، فهو يدعو الناهضين الى السقوط ولا يحض الساقطين على النهوض ، وهل أوجب للعتب من أن يختص شوقى بك بتلك القصيدة التى لا تسوغ الا لدى النفوس الضعيفة ولا يبسم لها الا من يئس من روح الله ؟ انه لا يصح لمثلى أن يلفت نظر شوقى الى آمال المتنبى فهو أعلم بفضله وأعرف ، ولكن ألا يصح أن نرسل دمعة واحـدة فى توديع الآداب العربية ؟

لقد بلغ ضـعف النفوس مبلغا لا يسـتهان به حتى لقـد كتب (شاعر) يعرفنى وأعرفه قطعـة فى مدح المشروع ولم يجـرؤ على التصريح باسمه ولكنى عرفته بسيما شعره وسأعاتبه بعـد حين فأين هذا المحتجب من الذى قال :

الخيـــل والليـل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

انكم لا تجهلون فضل المثال الأكمل في رؤوس الوطنيين كما لم يجهل العرب فضل المثل الأعلى في الشعر الذي حسبوا القرآن نوعا منه فهل يهديكم الله من بعد كما هداهم من قبل ؟

شوقى (١)

كلمة صدق فى توديع أمير الشعراء

كان فى مصر رجلان يقال لهما حافظ وشـوقى ، وكان لذينك الرجلين ولوع بالحديث عن الموت ، وكان حافظ ينعى نفسه فى كل مناسبة ، ويرحب بالراحة الأبدية ، أما شوقى فكان يقف دائما وقفة المتطلع ، ويتمنى لو حدثه الأموات عما بعد الموت ، حتى كاد حديثه عما بعد الموت يعد من احدى لوازمه فى قصائد الرثاء .

وكان القدماء يرون ان الدنيا لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول أبى نواس :

اذا امتحن الدنيـــا لبيب تكشـفت
له عن عـدو فى ثيـــاب صـــديق

ونحن نرى أن الحياة لو سئلت وصف نفسها لما عدت قـــول شوقى :

كم فى الحيـــاة من الصحراء من شبه
كلتاهما فى مفـــاجأة الفتى شـــرع

(١) البلاغ ــ ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

وراء كل سبيل فيهما قدر
لا تعلم النفس ما يأتى وما يدع
فلست تدرى وان كنت الحريص متى
تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئة
من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدرى وان قدرت مجتهدا
متى تحط رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى
أن الدليل وان أرداك متبع

أو قوله :

لبنان ردتنى اليك من النوى
أقدار سير للحياة دراك
جمعت نزيلى ظهرها من فرقة
كرة وراء صوالج الأفلاك
نمشى عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك

والذى يقرأ ما سطره الكتاب فى رثاء شوقى يراهم جميعا وقفوا يتحدثون عن الموت وعما بعد الموت ، كأن ذلك الرجل الذى طال وقوفه بباب الأقدار ألهمهم ما يقولون فى التطلع الى ما سيكون بعد الموت .. أكان شوقى أول ميت حتى يثير كل هذه الشجون ؟

لا لم يكن شوقى أول ميت ، ولكن موت الشاعر فجيعة تبعث على التفكير فى حقائق الموت والحياة ، وخاصة شوقى ، فانا لا نعرف انسانا فى مصر طابت له الحياة كما طابت لشوقى ، ولا نعرف شاعرا

تغنى بأطايب الحياة كما تغنى شوقى ، فكان من الحق أن نسأل :
وشوقى أيضا يموت ؟

وبعد فمن شوقى ؟ وما شعره ؟

كان شوقى عاديا فى حديثه ، وفى مظهره ، ولكنه كان فى شعره أعجوبة الأعاجيب وكان دليلا على أن العرب كانوا معذورين حين ظنوا الشعر من وحى الشيطان فما أذكر أن حديث شوقى راعنى مرة، أو دلنى على أن للرجل عقلا يمتاز على سائر العقول . وكان مظهره بسيطا جدا لأنه كان يبغض اللباس الأنيق ، وانهم ليذكرون أنه كان يضيق صدرا بالملابس الرسمية ، وانه طلب من الخديو السابق أن يعفيه من لبس الردنجوت فى عابدين ، وان الخديو اعفاه وان شكله كان يضحك حين يتكلف ملابس الاستقبال عند تقديم بعض السفراء .

ولكن هل العبقرية لباس مهندم ولسان معسول ؟

هيهات .. لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن يكون أشعر الناس فى زمانه ، لأن العبقرية سر مكنون ، وقد أفصح هو عن ذلك أبرع افصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شأنى
أنا أسمو الى نباهة شانه

كان بالسبق والميادين أولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه

ما الرحيق الذى تذوقون من كر
مى وان عشت طائفا بدنانه

وهبونى الحمام لذة سجع
أين فضل الحمام فى تحنانه

وتر فى اللهاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

ومن ذلــك الوتر الرنان الذى وهبه شـوقى كانت الدرع الحصينة التى يدفع بها سهام الحاقدين ، فقد قامت فى وجه الرجل أعاصير جائحة من النقد المسموم ، فثبت لها ثبات الجبال الرواسخ ، وظل هو فى جميع الأحـوال لا يخبو زنده ، ولا ينكسر جناحه ، ولا يقع طائره ، مع أن حاسديه لم يتورعوا ـ وهم ينهشون لحمه ـ من رميه بما يهد عزائم الرجال . وكان يتخذ من أحقاد خصومه مادة لشعره قد تكون من أجمل ما تغذى به خياله الوثاب ، والقراء يذكرون أن ناسا عابوا عليه سكوته عند نعى حافظ وذهبوا يتقولون عليه الأقاويل ، فدمغهم بقوله فى رثاء حافظ :

قـد كنت أوثر أن تقـول رثائى
يا منصف الموتى من الأحيـاء
لكن سبقت وكل طول سـلامة
قدر ، وكـل منيـة بقضـاء
ووددت لو أنى فـدا ك من الـردى
والـكاذبون المرجفـون فـدائى
النـاطقون عن الضـغينة والهـوى
والموغرو الموتى عـلى الأحيـاء
من كـل هـدام ويبنى مجـده
بكرائم الانقـاض والأشـلاء
ما حطمـوك وانمـا بك حطمـوا
من ذا يحطم رفـرف الجـوزاء
انظـر فأنت كأمس شـأنك باذخ
فى الشرق واسمك أرفع الاسـماء

وهو يعنى نفسه بالبيتين الأخيرين ، وان توهم القارىء أنه يعنى حافظ ابراهيم .

كان شوقي مفطورا على الشعر ، وكانت الحياة في عينيه شعرية الملامح ، وكان يستبيح من متع العيش كل ما حوت فراديس الشعراء وكانت حياته في بيته وبين أهله مطبوعة بطابع شعرى أخاذ ، وكان هيامه بقطع المسافات الطوال على قدميه أيام قوته دليـــلا على أن الرجل يقظ المشاعر ، وأنه مفتون بدرس مظاهر الوجود ، وكان الشعر يسود كل ما في حياته من نظام واضطراب • وقد تصادقنا حينا وألفنـا التلاقي في كل يوم حقبة من الزمان ، فكنت ألاحظ أن للرجل نواحي هو فيها أضبط من الساعة ــ كما نعبر في لغة الحديث ــ ونواحي يهمل في ضبطها وتحديدها أغرب الاهمال ، وهو في نظامه واضطرابه شاعر يعرف كيف يتذوق مفاتن العقل والجنون •

وكان شوقي مفتونا بأبنائه الى حد العشق ، وخاصة بابنته أمينة وابنه حسين ، وله في أبنائه شعر رائع يدل على أن الرجل كان شاعر العقـــل والذوق والروح ، وكان يتعلق بأصهاره تعلقا شـــديدا يذكر بعيش الفطرة في خيام الأعراب ، وكانت منافع الدنيا تتمثل له فاتنة جذابة ، لأن الرجل في شعره وفي صميم قلبه وروحه ونظامه السياسي والاجتماعي كان رجل دنيا ، وكان لا يفهم كيف يكون الزهد وكيف يكون الاعراض عن أطايب العيش ، والذين لاموا شوقي على التشبث بأهداب الجاه العريض لم ينظروا الى الدنيا بعينيه القلقتين ولم يعرفوا كيف تكون السيطرة وكيف يكون الاستبداد بمتع العيش على شواطىء النيل • والحياة في مصر ــ وفي الدنيا كلها ــ لا تتم أسبابها بغير الجاه والمال ، وكان الرجل يفهم ذلك فهم الشاعر ، ونيتصور القارىء كيف يكون فهم الشاعر ، وخاصة عند أمثال شوقي ممن تلقوا الدنيا بحس مرهف وذوق مصقول •

كانت لشوقي دنيا قبل الحرب فأخرجته منها أفاعي الحـــوادث كما عبثت الحية فأخرجت آدم من الجنة ، وقـــد ظلت ذكريات ذلك

الفردوس المفقود تعتاده فى اليقظة والمنــام ، وذلك هــو سر تحفظه وحيطته فى كل ما يمس دقائق السياسة العالية : فان قال ناس انه لم يهب الجماهير صفو شــــعره فليتذكروا أن ذلك لم يكن ليقع لو أن الرجل فطر ذوقه فطرة شعبية ، وكيف كان يزهى ويفتن كلما تذكر أنه ولد فى رحاب المجد والجاه .

كان شوقى مفتونا بشعره ، كل الفتون ، وكان لا يصدق أن فى الدنيا شاعرا غيره .. وكان يعادى ويصادق على هذا الاساس . وقد اتفق أن توثقت بيننا أواصر الصـــــداقة بعد عودته من المنفى ، وظلت صداقتنا على خير حال نحو ثلاثة أعوام ، فلما كان صيف سنة ١٩٢٥ طلب منى أن أكتب مقدمة للشوقيات فقبلت . ثم عدت فتذكرت أن الذوق يفرض أن تكتب المقدمة بشىء من المجاملة . وأن هــذا قــد يضرنى اذا اضطررت انقد شعره فى مستقبل الايام ، فكتبت اليه خطابا أعتذر عن كتابة مقدمة للشوقيات وكان فى الخطاب تعليل لذلك الاعتذار يتلخص فى مصارحته بأنه عرضــة للخطأ والصـواب وأننى أحب أن احتفظ بحريتى فى نقده اذا اقتضى الحال . وكنت انتظر ان يتقبل الرجل عذرى ، ولكنه أسر الغضب واضــمر الجفاء وطــوى ما كان بيننا من وداد منذ ذلك الحين (١) .

كان شوقى من كبار أهل العلم باسرار اللغة العربية ، وقد دانت له تعابيرها وأخيلتها وألفاظها بحيث كانت قصائدة تحمل من صـــنوف الثروة اللغوية مالا تظفر به قصائد غيره من المعاصرين الا فى النــادر القليل ، ومن رأى بعض رجال الأدب أن شوقى كان أعلم من حافظ باللغة ، وحجته فى ذلك أن حافظ لم يملك غـــير الديباجة المتينة أما شوقى فكان يقع على كلمات نادرة يطرز بها شعره من غير أن يشعـــر القارىء انها اجتلبت عن طريق التكلف أو الافتعال ، وكان شـــوقى

---

(١) ومع ذلك فقد بالغ الدكتــور فى الثناء عليه بما لا مزيد فوقه ، وتلك لعمرى اساس اخلاق العلماء .

بالفعل من المولعين بالمراجعات فى كتب الأدب والتـاريخ وكان يفهم جيدا أنه من أئمة الأدب ، وأن من واجبه أن يتعرف الى روائع الأدب القديم والحديث ، وكان له مثل هذا الموقف من الآداب الأجنبية ، وان كانت صلته بأدب أوربا وأمريكا وقفت عند حدود المشاهد السينمائية منذ ضعف بصره عن كثرة القراءة ، ومثال شوقى كانت تكفيه اللمحة الدالة ، فكانت المناظر السينمائية تغنيه عن قراءة مختلف الأقاصيص .

كان شوقى من حيث الديباجة فى الذروة العالية ، وكانت معانيه وموضوعاته من روائع الأدب الجديد ، وقد ظلم ناس أنفسهم وظلموا النقـد النزيه حين قرروا أن شـوقى لم يكن فى معانيه من المبدعين ، وحسب القراء أن يذكروا أن شوقى كان من أسبق الناس الى تدوين كبريات الحوادث فى مصر والشرق ، وسيظل ديوانه من أهم المراجع لتاريخ هذا الجيل .

وقد أبدع شوقى القصص الشعرى المسرحى لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية ، ولم يكن أول من حاول هذه المحاولة ، ولكنه أول من نجح نجـاحا يذكر ويؤثر ، وسينسى التـاريخ المحاولات الأوليـة مع الاسف ، ويذكر ان شـوقى هو أول من شغل المسـارح برواياته الشعرية ، وأول من طاف بشعره الممثلون فى مختلف الأقطار العربية.

وبعد فهذه كلمة قصيرة فى توديع شوقى ، وان نفسى لتطيب كلما ذكرت انى كنت أول ناقد أنصف شوقى فى حياته كما يشـهد بذلك كتاب « الموازنة بين الشعراء » ويرحم الله من قال :

وطيب نفسى أننى لم أقل له   كذبت ولم أبخل بما ملكت يدى

٢١ اكتوبر سنة ١٩٣٢

اسبوع شوقى

يحسن أن يعرف القارىء أولا قبل كل شىء أننا نكتب ما نكتب فى مثل هذا المقام للعبرة والتاريخ ، وأن يعلم أن الصحيفة الأدبيــة فى البلاغ مستقلة عن سياسة الجريدة تمام الاستقلال ، وجريدة البلاغ تمتاز بأن فيها محررين لا يكتبون سطرا واحدا فى النشرات السياسية لأن للجريدة رسالة أدبية بجانب مناحيها السياسية ،والسياسة اذا دخلت فى باب الأدب أفسدته وحملت القراء على أن ينظروا اليه فى حــذر واحتياط .

وهذا التمهيد كاف لتوجيه نظر القارىء الى قيمة هذه النزاهــة الأدبية التى نتمنى أن تشيع فى جرائد الأحزاب لأن للعقول والارواح مطالب أدبية وفنية قد تعرض للضياع والتبديد اذا لم نفصل بين الأدب والسياسة بحاجز حصــين .

خطر الأدب

أصبحنا بحمد الله نشعر أن للأدب خطرا عظيما ، وصرنا نرى الناس يختلفون فى الحياة الأدبية بحرارة لا تقل عن اختلافهم فى الحياة السياسية ، والجمهور اليوم مشغول بحظوظ الادباء شغلا لا يقل عن

(١) جريدة البلاغ ــ بتاريخ ٩ ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

شغله بمراكز الزعماء ، واذا عرفنا أن الأدب صورة الحياة وأنه مقياس لتقدم الامم ونهوض الشعوب اطمأننا الى أن فى مصر حياة ، وان هذا القلق الروحى والعقلى بشير بحياة مجيدة فى السياسة والاجتماع، وهذه الظاهرة الطيبة دليل على أننا خطونا خطوات سريعة نحو المجد واننا سنصير بعد قليل شغلا لكثير من المفكرين فى الشرق والغرب اذا ثبتنا أقدامنا ومضينا نبدع فى الآداب والفنون .

عكاظ

اتفق مؤرخو الآداب العربية على أن سوق عكاظ كانت من أسباب التقريب بين لهجات الجاهليين ، ونحن اليوم نفعل ما يذكر بأيام عكاظ فحفلة الأوبرا فى هذا الاسبوع كانت ملتقى لكثير من العقول العربية وكان اجتماع العراقيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين والحجازيين (الذين قام خطيبهم فى الليلة الثالثة) كان اجتماع كل أولئك مظهرا من ربط الأمم العربية أقوى بكثير مما كان يفعل عكاظ فى ربط القبائل الجاهلية .

ومما يجب اثباته للتاريخ أن أدباء الأمم العربية ومفكريها كانوا أسبق الى هذه الفكرة الطيبة من أدباء المصريين ومفكريهم ، وقد كنت أتحدث منذ شهر مع رجل دقيق الفكر من أقطاب الوفد المصرى فى هذه المسألة فقال :

ان هؤلاء الجيران الفضلاء ما زالوا يلحون فى توحيد الأمم العربية حتى صيروا ذلك عقيدة أدبية ستؤتى ثمرها بعد حين والواقع اننا نستأنس حين نجد أخبار مصر مفصلة فى صحف الحجاز والشام والعراق ، وان كنا نأسف على ما يقع من التهاون المخجل فى تجديد صلاتنا الأدبية ببلاد المغرب مثل طرابلس والجزائر وتونس ومراكش وهى بلاد ما تزال حريصة على وداد مصر بالرغم من تفريط المصريين فى احياء ذلك الوداد .

لحظات مع الضيوف الاعزاء

رأيت ان استقبل هؤلاء الضيوف فذهبت للتحية بنفسى فى فندق الكونتننتال وكانت لحظات طيبة وان كنت لم أتمكن الا من محادثة رجلين اثنين هما فؤاد باشا الخطيب والشيخ مصطفى الغلايينى ، أما فؤاد باشا فرجل واضح الفكر طيب القلب وهو من الشعراء المجيدين الذين تفوقوا فى وصف الحياة البدوية وله طائفة صالحة من الشعر الحكيم ، وله كذلك رواية شعرية عن فتح الأندلس مثلت فى كثير من الاقطار العربية وهو واسع الاطلاع عذب الحديث .

وأما الشيخ الغلايينى فرجل من شعراء النحاة يجمع بين القديم والجديد ، وله مؤلفات كثيرة فى النحو والصرف والبلاغة وقد رأيت أن أسأله عن رأيه فى كتاب النحو الواضح فأجاب بأنه كتاب جيد ، ولكنه يقسم أبواب النحو على سنين مختلفة ، مع أن الأفضل أن يكون الجزء الأول جامعا لأبواب النحو كلها فى ايجاز ويكون الجزء الثانى جامعا لها فى شىء من التفصيل ، ثم يجمعها الجزء الثالث فى اسهاب ، وانه هو نفسه يسير فى مؤلفاته المدرسية على هذه الطريقة فقلت : هذه كانت طريقة الأزهر القديم وهى طريقة كانت مضمونة النفع فى تعليم الطلاب .

خليفة شوقى

سألنى فؤاد باشا الخطيب عمن يخلف شوقى فى مصر فأجبناه بأن ذلك يحتاج الى سنين لأن حياة شوقى كانت من أسباب خمول الشعراء المعاصرين فان شوقى فعل ما فعل أبو تمام الذى أخمل ثلثمائة شاعر فى حياته ، فلننتظر حتى يستبق الشعراء فى ميادين المجد من جديد ثم ننظر لمن يكون السبق ، وهذا بالطبع لن يمر فى شهر أو شهرين ، على أن الخلافة فى الشعر أصبحت سنة لا تلائم سنن العصر الحديث ، فليظل كل شاعر خليفة نفسه ان شاء ، الى أن يوجد بينهم

من يملك ما كان يملك شوقى من المال والفراغ والعبقرية .. فان هذه الثلاثة مجتمعة هى التى تمكن الشاعر من الأمارة أما الشعراء الصعاليك والصعلوك كلمة مدح وهى تقـــابل ما نسميه اليوم باللص الشريف هؤلاء الصعاليك الذين يجمعون بين الفقر والشرف ليس لهم أن يتساموا الى امارة الشعر لأن غنى القلوب أضعف سلطانا من فقر الجيوب . وكيف تنتظر أن يصير الشاعر أميرا فى أمته وهو ليس بأمير فى بيته ؟

ان أكثر شعرائنا وأدبائنا يكدحون ليعيشوا ، فهم بالطبع أعجز من أن ينهضوا بتكاليف المجد المجلوب .

ولامارة الشعر تكاليف أهمها ترضية النقاد وكبح أقلام المتحاملين منهم ببعض الهدايا والولائم على نحو ما كان يفعل شوقى رحمه الله وهذه أثقال تقصم ظهور كثير من شعرائنا الفقراء الذين يفنون أطيب أوقاتهم للسعى فى طلب الرزق ، فليتغنوا ان شاءوا بما تغنى به حافظ ابراهيم فى ليالى سطيح :

ليس الخمـــول بعـــار على امــرىء ذى جـــلال
فليـــلة القـــدر تخفى وتلك خـــير الليـــالى

فكاهات الحفلة

لم تمض حفلة الأوبرا بدون أن نظفـــر منها بكثير من ألوان الفكاهات .. فلنذكر من ذلك شيئا قليلا :

١ ـــ طلب منى عند دخول المسرح أن أترك عصـــاى فى مكتب الأمانات فتركتها فيى أسفا لأنها عصا شعرية قدمت الى هدية من أحد عشاق اللوار .

وكنت أحب أن أرفعها فى ختام كل قصيدة اذ كانت بذكرياتها أجمل ما يحيا به الشعراء ، ثم اتفق أن اصطدمت بالأستاذ سعد اللبان

على المسرح اصطداما عنيفا فالتمست عصاى فلم أجدها . فتذكرت فى الحال أن حجز العصا فى مكتب الأمانات لم يكن الا دسيسة وزارية .

٢ ــ خطب الأستاذ وهيب بك دوس فأطال حتى أمل بعض الحاضرين وكان بجانبى أديب لا يعرفه فسأل عن اسمه فقلت : هو الأستاذ وهيب دوس المحامى فقال الاديب : يعذر فى اطالته لانه حماية! يريد أنه شقيق الوزير توفيق باشا دوس .

٣ ــ كان الأستاذ السكندرى يعرب اسم شوقى فينونه رفعا ونصبا وجرا فيقول مثلا : ولكن شوقيا ، فأظهرت ضجرى من اعراب الأعلام فقال الأستاذ برادة أراد أن يعربه فنكره .

٤ ــ كانت هناك لحظة استراحة تصافح فيها الاصدقاء من الحاضرين فسمعت الأستاذ أحمد والى الجندى يقول للأستاذ محمد الهيباوى : العاقبة عندك يا أستاذ ان شاء الله تموت وتحتفل الحكومة بذكراك .

فقال الهيباوى : أقبل هذا مع السرور على شرط أن لا يطيل الخطباء الى حد الاملال .

٥ ــ لوحظ أن معالى حلمى باشا عيسى جذب أحد الخطباء من ثوبه برفق ليختصر فقال أحد الحاضرين « شده من خطبته » ولا تشده من ذيله .

٦ ــ كان مقررا أن تنتهى حفلة الأوبرا فى الساعة الثامنة ولكنها طالت جدا وكان الحاضرون يفكرون فى طريق الخلاص ، فقال أحدهم « ينبغى أن نوزع على الخطباء موعد العشاء فى الكونتنتال » ..

٧ ــ كانت خطبة الدكتور منصور فهمى مختصرة جدا فحمد له الناس ذلك الذوق فلما أطال بعده الخطباء وأملوا اقترح بعضهم أن

يهتف الحاضرون « ليحيي الدكتور منصور ليفهم الخطباء أن البلاغة هي الايجاز •

٨ ـ سمعت أحد الحاضرين يقول : لو أن وزير المعارف كان ينتظر هذا التطويل لأجل هذه الحفلة الى سهرات رمضان !

وفي هذا كفاية فذلك موضوع لو أطلناه طال •

قهوة بسكر

من عادات أهل الريف أن لا يقدموا غير القهوة في المآتم وقد يمتنع المعزون عن تناول القهوة بتاتا ، اذا كان الميت شابا ولكنهم يقدمون القهوة الحلوة اذا كان الميت شيخا هرما ترك بعده أولادا نجباء •

وقد قرأت في الصحف أن الأستاذ عبد العزيز البشرى دعا وفود الأقطار العربية الى حفلة عشاء في داره يغني فيها الموسيقار صالح عبد الحي فتذكرت أنه أراد أن يقدم لهم « قهوة بسكر (زيادة) » •

ومعنى هذا أنه غض النظر عن فكرة التعزية فهل نستطيع أن نقترح أن يقيم الأستاذ محمد عبد الوهاب بدوره حفلة لأولئك الضيوف •

أنا أقدم هذه الملاحظة أيضا للتاريخ • وليس فيها ما يعتذر منه، فانها تذكر بمن قال :

إذا مت فادفني الى جنب كرمة
يروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني
أخاف اذا مت أني لا أذوقها

وتذكر أيضا بما أوصى به عمر الخيام أصدقاءه أن يصبوا على قبره دنان الصهباء !

أين الجنس اللطيف

روعيت التقاليد فى هذه الحفلة لشوقى فلم يحضرها أحد من الجنس اللطيف لأن معالى رئيس الحفلة لا يرى ذلك ، وسمح فقط لقريبات الشاعر أن يحضرن فى مقصورة مسدولة الستائر .

وفى ظنى أن شوقى كان يتمنى أن يكون الاحتفال بذكراه جامعا لأسراب الجنس اللطيف حتى لا يحرم روحه من نغمات « ليلى » « وكليوباترة » « وأميرة الأندلس » .

محمد عبد الوهاب

من غرائب المصادفات ان اسم محمد عبد الوهاب لم يرد على لسان احد من الخطباء والشعراء الذين اجتمعوا لتأبين شوقى ، مع ان صلة شوقى بذلك الموسيقار كانت نعمة على الأدب والفن ، فبفضل شوقى غنمنا محمد عبد الوهاب وبفضل عبد الوهاب غنمنا بقية الكأس من حياة شوقى .

التربية والتعليم

غفل منظمو الحفلة وشعراؤنا عن جانب مهم من شعر شوقى وهو الجانب الخاص بالتربية والتعليم ، وقد علمت ان الاستاذ سعد اللبان اغفل هذا الباب عامدا ليمكننى من كتابة الفصل الذى قدمته لمجلة (١) التربية الحديثة وهو فضل يذكر للاستاذ اللبان .

آداب صحفية

لاحظت أن الأستاذ أنطون الجميل نشر خطبته فى ذيل الأهرام ونشر الخطب الأخرى فى الصدر وذلك باب من دقة الذوق ولاحظت كذلك أنه نشر القصائد التى سبقته الى نشرها جريدة البلاغ فعرفت

---

(١) لم نجد هذا المقال فى مجلة التربية الحديثة ، ولكنا وجدناه فى البلاغ وهو منشور فى هذا الكتاب تحت عنوان « التربية والتعليم فى شعر شوقى » .

أنه يرى الأدب أغلى وأنفس من أن يبذله التكرار فليتقبل منا خالص الثناء .

اغلاط

جاء نى خطبة الأستاذ أحمد زكى باشا أن شوقى امتاز بميزة عظيمة هى الشرح الذى وصفه خاتمة المحدثين الشيخ سليم البشرى لقصيدة نهج البردة وهذا خطأ والصواب أن الشرح للشيخ عبد العزيز البشرى وكتب اسم الشيخ سليم رعاية لمركزه وكان يومئذ شيخ الأزهر الشريف .

وجاء فى خطبته أيضا أن البردة عورضت بمئات ومئات من القصائد ومعنى « المئات » والمئات انها عورضت على الأقل بنحو خمسمائة قصيدة ، وذلك غلو غير مقبول ولعل سيادة زكى باشا يتفضل فيذكر لنا خمسين قصيدة لا خمسمائة مما عورض به البوصيرى، لأننى مشغول فى هذه الأيام بدراسة المدائح النبوية ، اذ كانت تشغل فصلا مهما من كتابى عن أثر التصوف فى الادب والاخلاق وأنا أنتظر جواب الباشا المفضال .

الحقد السياسى

جاء فى خطبة الأمير مصطفى الشهابى لوم عنيف على نظم شوقى فى وصف البسفور والمغانى التركية وضرب مثلا بما نظم فكتور هيجو ، والخطأ واضح فى النظرية والاستشهاد فمن حق الشاعر أن يصف ما يطرب له ولو كان فى بلاد الأعداء فكيف يعاب على شوقى أنه أشاد بالبوسفور والمغانى التركية ؟

أيجوز التغنى بملاعب لندرة وباريس وبرلين ولا يجوز التغنى بحدائق الاستانة ؟

هذا عجيب !

أخوك فى الدين

أرسل معالى وزير المعارف الى كبير شعراء تركيا ينعى شوقى فأجابه الشاعر بخطاب نفيس جاء فى ختـــامه :

« وتقبل تحية أخيك فى الدين » .

اذن لا يزال فى تركيا ناس يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

شوقى أمام التاريخ

شخصيته وحكمته المطبوعة (*)

اتفق لى أن كتبت فصولا مطولة عن شعر شوقى فى سنة ١٩٢٥ وهى فصول منزهة عن الغرض يجدها القارىء فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين. ويعز على أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية ، وكان شوقى عودهم التطلع الى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل ! وكانوا كلما احتاجوا الى « بره ومعروفه » طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب ، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه ، فكان يخرس ألسنتهم ، ويقصف أقلامهم ، بالهدايا والهبات . وقد ظن أولئك المساكين أنى أكتب عن شعر شوقى لنفس الغرض الذى يسوقهم ويحفزهم الى الكتابة عن شعره ، فكانوا يتقدمون الى ناصحين ، وكان نصحهم يتلخص على اختلاف ألوانه فى هذه الكلمة الطريفة : « ان شوقى لا يحترم من ينصفه ! »

والاحترام الذى يفهمونه هو السخاء والكرم والجود . وهذا النوع من الاحترام يبدو لعينى بغيضا ممقوتا لا يتطلع اليه الا سفلة الناس . وليت شعرى كيف يحتاج الرجل الى هبات الأغنياء ورغيف

(*) ابوللو - ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

واحد يكفيه يوما وليلة ، وليس بطن الانسان الا وعاء حقيرا لا يستحق أن تذل في سبيل ملئه النفوس ! ولكن هذا هو الذي وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجع . وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبي أبشع تشويه ، وأن يقلبوا الحقائق الأدبية قلبا كريها ، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقـــول كلمة الحق الا مأخوذا بغرض دفين .

وقد عرفت بالتجربة أن شوقي كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه ، وتجلت لي حقيقة ذلك في سنة ١٩٢٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له في داره حفلة استقبال . كنت يومئذ مدرســا بالجامعة المصرية وكنت صديقه وكان الدكتور طه حسين من خصـــومه الألداء ، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور في منزله ولم يدعني ؛ لان الدكتور طه كان موظفا في الدرجة الثانيه وكنت موظفا في الدرجــة السادسه ؛ وفرق ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التي يفهمها جيدا أمير الشعراء الذي عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات ! ثم وقع يومئذ ما هو أبشع من ذلك : فقد كان دعا المسيو سارولينا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الأستاذ لكلمة ندت في محــــاضراته بالجامعه المصرية ؛ فكتب اليه شوقي ينبئه بأنه « سحب الدعوة » وانه يرجوه أن يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والجود « كرمة ابن هانيء » على أيامها وأيامه تحية وسلام !

وكانت هذه أيضا فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقي : فان تلك الهفوة لم تنقص تقديري لشوقي ؛ شوقي الشاعر . أما شوقي الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة . وعدت لا أقابله حين ألقاه مصادفة الا بنفس الزاهد العيوف . وقد اتفق أن تلاقينا عفوا في بهو الكونتننتال في ربيع سنة ١٩٢٩ وكنت مع الدكتور منصور فهمي ، فسألني شـــوقي

عن انصرافى عنه ؛ فأجبته بكلمات فيها جفاء . فالتفت الى الدكتـــور منصور وقال : ان شوقى بك والد الجميع . وأنشد :

نسيـــل على جـــوانبه كأنا نسيـــل اذا نسيـــل على أبينا
نقلبه لنخبـــــر حالتيـــــه فنخبر منهما كـــرما وليـــنا

ثم توالت الأيام ، وكانت تزيد فى يقيننا بأن شــــوقى الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقى الذى يعرفه الناس كانسان اجتماعى يخطىء ويصيب بين الحق والواجب ، وكان أن رأيته لآخــر مرة فى مسرح حديقة الأزبكية يوم اجتمعنا لمعـاونة الأديب محمود أبو الوفا . وأسرعت اليه أحييه . وأقبل أبو الوفا يسلم عليه . وكدت أصرخ فى وجهه : قبل يد الشاعر أيها الجاحد فقد شرف قدرك بشعره! وكانت عاطفة طبيعية : فقد كان شوقى فى ذلك اليوم وهو محطـــم مهدود يبدو لعينى فى وقار الصديقين . ولما علمت انه سيقيم حفـــلة شاى فى داره لأعضاء (جمعية آبولو) خطر ببالى أن أسعى لحضور تلك الحفلة ، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء. ولكنى رفضت أن أذهب بدون دعوة ، ثم كان ما مر بالبال صحيحا ، وكانت آخر مرة يســـتقبل فيها شوقى رجال الأدب فى داره ، فياحسرتا على ما ضيعت من تلك اللحظات الطيبات !

لم أسىء يوما الى شوقى الشاعر ، والحمد لله . وان كنت بعت حظى من شوقى الصديق ، وقد عانيت فى سبيل اعجابى بشعره نكبات عديدة ، فان ناسا كانوا يودون لو هدموه ، ومن اولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا الى هدمه شتى الشعاب . وكان الرجل عظيم الشاعرية حقا وكان أصلب من أن تنـــال منه معاول الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية . وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطـــواتها الشيطان . والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقـــود .

وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند اليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع الى أدعياء الوطنية والاخلاق!

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله . فلنترك لشوقى أخلاقه ووطنيته . ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائعة .

الحكمة فى شعر شوقى

أول ظاهرة واضحة فى شعر شوقى هى التماس الشاعر لغرائب الحكمة فى جميع القصائد والمقطوعات ، وقد آثرت أن أقف هذا المقال التقديرى على تلك الظاهرة البارزة فى شعره وهى ليست ملحوظة فى شعر الكهولة وحده ، وانما ترجع الى ميل فى نفس الشاعر منذ صباه . ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيما ، ولكن الأجمل أن ترد الحكمة عفوا بلا تكلف ولا افتعال . وقد وقع لشوقى أن عق أسلوب القصص أحيانا كثيرة فى سبيل الحكمة ، وغالب سياق القصائد رغبة فى تدوين الكلام الحكيم . من ذلك قصيدته الهمزية التى أنشأها منذ نحو ثلاثين عاما لتلقى فى المؤتمر الشرقى الدولى الذى انعقد فى مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ ، وهى قصيدة مطولة وصف فيها مصر وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم ، وجرى القصص فيها مسلسلا لم يعقه الا التنقل الى الحكمة التى كانت تطرد أحيانا الى نحو خمسة أبيات مع أنه كان يكفى أن تقع فى شطر بيت لتكون لفتة طريفة لاينقطع بها سياق الحديث . مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد فرعون ، فقد وصل به هذه الأبيات :

ان ملكت النفوس فابغ رضاها ... فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر ... فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودو ... ن وان لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائر مثلما جا ... روا وللدهر مثلهم أهواء

ثم عـاد الى القصـص فنظم ثلاثة عشر بيتـا عن رمسـيس وسيزوسنريس الذى وصفه بالتواضع وكره الكبرياء : ودعاه هـذا الى القاء الحكمة فقال :

يولد السـيد المتـوج غضا	طهرته فى مهـدها النعسـاء
لم يغيره يوم ميـلاده بؤ	س ولا ناله وليـدا شـقاء
فاذا ما الملقـون تـولو	ه تولى طبـاعه الخيـلاء
وسرى فى فؤاده زخرف الفو	ل يراه مستعذبا وهـو داء
فاذ أبيض الهـديل غـراب	واذا أبلج الصـباح مسـاء

وقد تطرد الحكمة عند شوقى لغرض مقصود فتأتى رائعة : مثال هذا قصيدته فى مشروع ملنر ، وهى قصـيدة كان يجب بترها من الديوان لولا حرمة التاريخ ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن. وكان ناس دعوا له واستدرجوا شوقى الى الدعوة له ، فكتبت ألومه فى جريدة «المحروسة» ، فلما تلاقينا اعتذر بأنه قال القصيدة مأخوذا بالحاح بعض الناس . والقصيدة دعوة الى الرضا بالضعف . ولكنهـا من أظرف ما ينوم به الضعفاء ، ولم أجد فى حياتى كلمة باطل صيغت فى مثل هذا الاسلوب الطريف :

قد صارت الحـال الى جـدها	وانتبه الغافل من لعبـه
الليث والعـالم من شرقـه	فى هيبـة الليث الى غـربه
قضى بآن نبنى عـلى نابـه	ملك بنينـا وعلى خلبـه
ونبلغ المجـد على عينـه	وندخل العصر الى جنبـه
ونصل النازل فى سـلمه	ونقطع الداخل فى حـربه
ونصرف النيـل الى رأيـه	يقسـمه بالعدل فى شـربه
يبيح أو يحمى على قـدرة	حق القرى والناس فى عـذبه
أمر عليكم أو لكم فى غـد	ما ساء أو ما سر من غبـه
لا تسـتقلوه فمـا دهركـم	بحاتم الجـود ولا كعبـه

نسمع بالحق ولم نطلع   على قنا الحق ولا قضبه
ينال باللين الفتى بعض ما   يعجز بالشدة من غصبه
فان أنستم فليكن أنسكم   فى الصبر للدهر وفى عتبه
وفى احتشام الأسد دون القذى   اذا هى اضطرت الى شربه
قد أسقط الطفرة فى ملكه   من ليس بالعاجز عن قلبه
يا رب قيد لا تحبونه   زمانكم لم يتقيد به
ومطلب فى الظن مستبعد   كالصبح للناظر فى قربه
واليأس لا يجمل من مؤمن   ما دام هذا الغيب فى حجبه

أليس يرى القارىء أن هذا باطل صور فى أبرع أسلوب ؟ ومع هذا فالشاعر حكيم فى طبعه حتى حين يتأنق فى تصوير الأباطيل ، فاننا مهما رميناه بالدعوة الى الضعف واللين لا نستطيع أن ننكر أنه أحكم الناس حين قال :

يارب قيد لا تحبونه   زمانكم لم يتقيد به

فالزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق الاحياء كما بدأ يفعل فى معاهدة فرساى .

وكان يطيب لشوقى أحيانا أن يبدأ قصيدة بالحكمة ثم يطيل كأنما كانت الحكمة غرضه المقصود ، وأكثر ما كان يقع ذلك فى قصائد الرثاء . ومن أوضح الشواهد فى هذا ما ابتدأ به قصيدته فى كارنارفون :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه   كل امرىء رهن بطى كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره   عند اللقاء كمن يموت بنابه
ان نام عنك فكل طب نافع   أو لم ينم فالطب من أذنابه
داء النفوس وكل داء قبله   هم نسين مجيئه بذهابه
النفس حرب الموت الا أنها   أتت الحياة وشغلها من بابه

تسع الحياة على طويل بلائها وتضيق عنه على قصير عذابه
هو منزل الساري وراحة رائح كثر النهار عليه فى اتعابه
وشقاء هذى الروح من آلامها ودواء هذا الجسم من أوصابه !

تلك ثمانية أبيات فى الحكمة يجد بعدها القارىء أحد عشر بيتا حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم ، وهذه المقدمة الطويلة تبدو لنا مستثقلة بعض الشيء لأننا نلمح فيها آثار الافتعال ، ولكنا نقف خاشعين حين نصل الى قوله فى وصف ذلك العالم المجهول الذى يسمى عالم البقاء :

يا صاحب الأخرى بلغت محلة هى من أخى الدنيا مناخ ركابه
نزل أفاق بجانبيه من الهوى من لا يفيق وجد من تلعابه
نام العدو لديه عن أحقاده وسلا الصديق به هوى أحبابه
الراحة الكبرى ملاك أديمه والسلوة الطولى قوام ترابه

والقارىء أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ماقيل فى وصف مابعد الموت من قرار وسكون .

ولشوقى قصائد دعت اليها ظروف وقتية ، ضمنها كذلك حكما وقتية ، فقصيدته فى العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك ، واسمع كيف يقول :

أيها الجمع لقد صر ت من المجلس قابا
فكن الحر اختيارا وكن الحر انتخابا
ان للقوم لعينا ليس تألوك ارتقابا
فتوقع أن يقولوا : من عن العمال نابا ؟
ليس بالأمر جديرا كل من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قد م جاها وانتسابا
أو رأى أمية فاختلب الجهل اختلابا

والقوم الذين يعنيهم شوقى هم الانجليز ، والعمال مدعوون ان يراقبوا الانجليز حين ينتخبون النواب ، والمطلوب أن ينتخبوا الدكتور محجوب ثابت ولكن هذه المنظومة لم تخل مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت اليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول :

ان لى نصحا اليكم ان أذنتم وعتابا
فى زمان غبى صح فيه أو تغابى
اين انتم من جدود خلدوا هذا الترابا
قلدوه الأثر المعجز والفن العجابا
وكسوه أبد الدهر من الفخر ثيابا
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد اغتصابا !
ان للمتقن عند الله والناس ثوابا
أتقنوا يحببكم الله ويرفعكم جنابا
أرضيتم أن ترى مصر من الفن خرابا ؟
بعد ما كانت سماء للصناعات وغابا ؟

وبساطة هذا الشعر من سمات جماله وخصوصا اذا لاحظنا أنه يخاطب العمال ، وخطابه يفرض اليسر واللين فى العرض والأداء .

وليس من الغلو فى شىء ان نصرح بأننا معجبون أفتن الاعجاب بقوله فى هذه القصيدة يوصى بالادخار اتقاء لحوادث الأيام :

انما العاقل من يجعل للدهر حسابا
فاذكروا يوم مشيب فيه تبكون الشبابا
ان للسن لهما حين تعلو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشيب والضعف نصابا
واذكروا فى الصحة الداء اذا ما السقم نابا

وقد تبدو هذه الأبيات عند من لا يتأمل فيما تشير اليه من

أعقاب الشيخوخة ذات الويل والعذاب ، ولنذكر دائما أنه يخاطب العمال الذين تغلب عليهم الغفلة عن مصائر من يهرمون وهم معدمون •

ولا ينبغى أن تفوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة الغريبة في حكمة شوقى : فان الرجل فيما يظهر من شعره ومن أخلاقه الحيوية كان مأخوذا بالحرص على طيبات العيش ، وكان مشغوفا بمعاودة التفكير فى الأخلاق المعايشة ، والاخلاق المعايشة هذه كلمة نراها أنسب ما يصور به حرص شوقى على أسباب الحياة • وانظر قوله فى النحل :

مخلوقة ضعيفة	من خلق مصوره
يا أما قل ملكها	وما أجل خطره !
قف سائل النحل به	بأى عقل دبره
يجبك بالأخلاق وهى	كالعقول جوهره
تغنى قوى الأخلاق ما	تغنى القوى المفكره
ويرفع الله بها	من شاء حتى الحشره !

ولبتأمل القارىء فى قوله « من خلق مصوره » ووصفه الأخلاق بأنها جوهرة كالعقول ، يريد أنها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير علام الغيوب ، وهذا معنى لا يدرك الا بدقة التأمل ، فان الخلق الصالح خالق العيش والحياة من الأسرار الخفية . فكم ناس يوفقون فى حياتهم المعاشية ، وليست هناك أسباب ظاهرة لما رزقوا من توفيق، غير أن الخبير بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق نفسية وخلقية يتيسر بها العيش والرزق وان كان أصحابها فى ظاهر الأمر من العابثين الماجنين • ولينظر القارىء أيضا قوله :

أليس في مملكة النحل لقوم تبصره؟
ملك بناه أهله بهنه ومجده
او التمست فيه بطا ل اليدين لم تره
تقتل أو تنفى الكسا لى فيه غير منذره!

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل ، وفيها عبرة لمن يرون اختلال الجماعات الانسانية ثم لايعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع الى مهادنة اهل البطالة والفراغ .

انتنقل بعد هذا الى الحكمة الفطرية في شعر شوقى ، ونريد بها الحكمة التى تقع فى ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال . وشواهد ذلك كثيرة : ومنها قوله يخاطب مهنئا بالعيد .

أمثلك يمنع الأوطان خيرا وأنت خلقت من خير طباعا ؟
شجاعا كنت في يوم عصيب توفيها المحبة والدفاعا
جنحت الى السلام فكان حاسا وقدما زين الحلم الشجاعا
ومن صحب الحياة بغير عقل تورط فى حوادثها اندفاعا

فان البيت الأخير وقع موقعا طبيعيا لم يشنه تصنع الحكمة ولا اختلاق أسباب القول الحكيم .

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية ، ولنقرأ هذه الأبيات .

رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم!
لما رنا حدثتنى النفس قائلة ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى جرح الأحبة عندى غير ذى ألم
رزقت أسمح مافى الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر فى الشيم

يا لائمى فى هواه والهوى قدر — لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك اذنا غير واعيـــة — ورب منتصت والقلب فى صمم!

والأبيات الأربعة الأخيرة مضمخة بعبير الحكمة ، وأرقها عنـدى وأوجزها قوله :

«والهوى قدر » . وقد حدثت الدكتور طه حسـين عنها مرة فابتسم وقال : « وعد مكتوب على ومقدر على الجبين ! »

ولنقرأ قوله فى وصف الدنيا .

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية — وان بدا لك منها حسن مبتسـم
فضى بتقواك فاها كلما ضحكت — كما يفض أذى الرقشـاء بالثرم
مخطوبة منـذ كان الناس خاطبة — من أول الدهر لم ترمل ولم تئم!
يفنى الزمان ويبقى من اساءتها — جرح بآدم يبكى منه فى الأدم
لا تحفلى بجناها أو جنـايتها — الموت بالزهر مثل الموت بالفحم!

وقوله فى فخار الأصل بالفرع :

قد أخطأ النجم ما نالت أبوتـه — من سؤدد باذخ فى مظهـر سنم
نموا اليـه فزادوا فى العلا شرفا — ورب أصل لفرع فى الفخار نمى

وقوله فى شمائل الرسول :

محبة لرسـول الله أشربهـا — قعائد الدير والرهبـان فى القمم
ان الشمائل ان رقت يكاد بهـا — يغرى الجماد ويغرى كل ذى نسم

وقوله فى صاحب البردة :

مديحه فيك حب خالص وهوى — وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشـهد أنى لا أعارضـه — من ذا يعارض صوب العارض العرم
وانما أنا بعض الغابطين ، ومن — يغبط وليـك لا يذمم ولا يلـم

وقوله فى يتم النبى :

ذكرت باليتم فى القــرآن تكرمة وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليتم !

وقوله فى المفاضلة بين محمد وعيسى :

أخــوك عيسى دعــا ميتــا فقام له
وأنت أحييت أجيــالا من الرمـم

والموت جهــل فان أوتيت معجــزة
فابعث من الجهل أو فابعث من الرجـم

وقوله فى حرب من لم يغن فى تقويمهم السلم :

لما أتى لك عفــوا كل ذى حســب
تكفــل السيف بالجهــال والعمـــم

والشر ان تلقــه بالخير ضقت بــه
ذرعا وان تلقه بالشر ينحســـم !

وقوله فى فضل الحرب :

دعوتهم لجهــاد فيـــه ســـؤددهم
والحــرب أس نظام الـكون والأمم

لولاه لم نر للـــدولات فى زمــن
ما طــال من عمــد أوقر من دعــم

تلك الشــواهد تتــرى كــل آونة
فى الأعصر الغــر لا فى الاعصر الدهــم

بالامس مالت عــروش واعتلت سرر
لولا القــذائف لم تثلم ولم تصــم

والحكمة هي قوله : «والحرب أس نظام الكون والأمم» ،ومابعد هذا الشطر جرى مجرى الشرح والتقرير ، وقوله في فضل العدل على القــوة :

واترك رعمسيس : ان الملك مظهــره
في نهضة العــدل لا في نهضـــة الهرم

ويطول القول لو مضينا نســـتقصى ما اتفق لشوقى من روائع الحكمة الفطرية وانها لتقع له سائغة مستطابة كالورد النمير . وانظر قوله يخاطب من شيدوا قبر نابليون ،

حصــنوا ما شــئتم موتاكمو هل وراء الموت من حصن حصين

وقوله في ذكرى دنشواى .

شــهداء حكمك في البلاد تفــرقوا
هيهات للشــمل الشتيت نظـــام !

وقوله في صلة مصر بالسودان :

فمصر الرياض ، وســودانها عيــن الرياض وخلجــاتها
وما هــو ماء ولكنــــه وريد الحيـــاة وشريانهـــا

وقد جرى الشاعر في هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية ، فليتصفحها القارىء ليرى صحة ما نقول .

وبعد عرض هذه النماذج في صور الحكمة ومواقعها في شعر شوقى يحسن بنا أن تقرر أن ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاربه أكثر مما استقاها من مطالعاته : فقد عاش زمنا عيشة محرجة مضجرة لا يعرفها الا من ابتلى بمثلها أو بما يقاربها وماظن القارىء بمن يعاشر الملوك ويذوق مافي كؤوس السياسة من علقم وصاب ؟ لهذا تراه صادقا غير متكلف حين يقول :

أخا الدنيا ، ارى دنيــاك أفعى تبــدل كل آونة اهـــابا !
وان الرقط أيقظ هاجعـــات وأترع في ظلال السـم نابا
ومن عجب تشيب عاشـــقيها وتفنيهم وما برحت كعـــابا
فمن يغتـــر بالدنيـــا فانى لبست بهـــا فأبليت الثيـــابا
لهـــا ضحك القيان الى غبى ولى ضحك اللبيب اذا تغـــابى!
جنيت بروضها وردا وشوكا وذقت بكأسها شهدا وصـــابا

التربية والتعليم فى شعر شوقى (*)

تمهيد :

لم يكن شوقى معلما فى مدرسة أولية ، أو مدرسا فى مدرسة ثانوية ، أو أستاذا فى مدرسة عالية وما أحسبه شغل نفسه بالتعليم شغلا جديا . وفى هذا مايكفى لأن يعرف القارىء أن آراء ذلك الشاعر فى التربية والتعليم لم تكن من الآراء — المصبوغة بصفة البحث المنظم ، بل يمكن القول بأنها خلت من صبغة القصد ، أى أن الشاعر لم يرد بها أن يكون مربيا أو معلما ، وانما اتفق له ان يتحدث فى شئون تعليمية دعته اليها عاطفته كأب له أبناء يتعلمون ، ومواطن يرى فى غدوه ورواحه صبية وشبابا يذهبون الى المدارس ، صديق يرى بعض ما يقاسيه أصدقاؤه من رجال التعليم .

يضاف الى هذا أن الرجل كان يتطلع الى مستقبل الأمة فى حياتها التهذيبية فكان يسوقه ذلك الى الحديث عن الأزهر والجامعة المصرية . وكان له فى أكثر المواقف قصائد ومقطوعات ينحو فيها منحى المربى الحكيم ، وان لم يقصد الى تحديد شىء فى المذاهب والآراء

(*) جريدة البلاغ — بتاريخ ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ .

التعليمية : فكان شعره فى هذا الباب من عفو الفطرة وقد تجود الفطرة أحيانا بما تعجز عنه عقول الباحثين •

خطاب المطرية الى سعد باشا

هى قصيدة نظمها شوقى منذ ربع قرن ، وقدمها الى وزير المعارف وكان يومئذ سعد باشا زغلول وفى هذه القصيدة تتكلم المطرية عن رغبتها القوية فى انشاء مدرسة تذكر بمدرستها القديمة التى تعلم فيها بعض فلاسفة اليونان • وهذه القصيدة مجهولة لا يعرفها الا القليل من أنصار شوقى ، لأنها من شعره القديم الذى خلا أكثره من آيات النضج والقوة ، ولكنها فى نظرى غرة من الوجهة التعليمية فلننظر كيف تترفق المطرية فى خطاب الوزير سعد زغلول :

يا ناشر العلم بهذى البلاد وفقت • نشر العلم مثل الجهاد
بانى صروح المجد أنت الذى تبنى بيوت العلم فى كل ناد
بالعلم ساد الناس فى عصرهم واخترقوا السبع الطباق الشداد
أيطلب المجد ويبغى العلا قوم لسوق العلم فيهم كساد
نقاد اعمالك مغل لها اذا علا الدر غلا الانتقاد
ما أصعب الفعل لمن رامه وأسهل القول على من أراد
سمعا لشكواى فان لم تجد منك قبولا فالشكاوى تعاد
عدلا على ما كان من فضلكم فالفضل ان وزع بالعدل زاد
أسمع أحيانا وحينما أرى مدرسة فى كل حى تشاد
قدمت قبلى مدنا أو قرى كنت أنا السيف وكن النجاد
انا التى كنت سريرا لمن ساد (كادوارد) زمانا وشاد
قد وحد الخالق فى هيكل من قبل سقراط ومن قبل عاد
وهذب الهند دياناتهم بكل خاف من رموزى وباد
ومن تلاميذى موسى الذى أوحى من بعد اليه فهاد
وأرضع الحكمة عيسى الهدى أيام تربى مهده والوساد

مدرستي كانت حياض النهى قرارة العرفان دار الرشـاد
مشايخ اليـونان يأتونهـا يلقـون فى العلم اليها القياد
كنـا نسـميهم بصبيانه وصبيتي بالشيب أهل السـداد
ذلك أمسى مابـه ريبـة ويومى (القيـة) ذات العمـاد
أصبحت كالفردوس فى ظلها من مصر المخنـكا لظلى امتداد
لولا حلى زيتـونى النضر ما أقسم بالزيتـون رب العبـاد

وليتأمل القارىء سحر الترفق فى الأبيات الآتية وقد مثل فيها خوف الآباء على أطفالهم من عادية قطـار السـكة الحديدية :

بنى يا سعد كـزغب القطا لا نقص الله لهـم من عداد
ان فاتك النسـل فأكرم بهم ورب نسل بالندى يستـفاد
أخشى عليهم من أذى رائح يجمعهم فى الفجر والعصر غاد
صـفيره يسلبنى راحتى ويمنـع الجفن لـذيذ الرقاد
يعقوب من ذئب بكى مشفقا فكيف أنياب الحديد الحداد
فانظر رعاك الله فى حاجهم فنظـرة منك تنيـل المـراد
قد بسطوا الكف على أنهم فى كرم الراح كصـوب العهاد
ان طلب (القسط) فما منهمـو الا جـواد عن أبيـه الجـواد

الجامعة المصرية

عرض شوقى للجامعة المصرية فى شعره عدة مرات تحدث عنها فى رثائه للمرحوم قاسم أمين فقال :

لله جامعة نهضت بأمرهـا هى فى المشـارق مصدر الأنوار
أمنية العقـلاء قد ظفروا بهـا بعد اختلاف حـوادث وطوارى
لو يعلمون عظيم ما ترجى لـه خرج الشحيح لها من الدينـار
العلم يبنى الملك حـق بنائه وبه تنـال جلائل الاخطـار

ولقد يشاد عليه من شم العلا ما لا يشـــاد على القنا الخطار

وهى أبيات جيدة لم يعبها الا اغفـــال الشاعر لمهمة الجـــامعات وان كان آجمل ذلك فى قوله :

لو يعلمـــون عظيم ما ترجى له خرج الشحيح لهـــا من الدينار

ولشوقى قصيدة سينية ألقيت يوم وضع الحجر الأساسى للجامعة فى بولاق الدكرور فى ربيع سنة ١٩١٤ جرى أكثرها فى مدح الخديو السابق ومدح صاحبة السمو المغفور لها الأمير فاطمة اســـماعيل التى يرجع اليها الفضل فى تكوين الجامعة المصرية ولم يخص شـــوقى الجامعة ولا فكرة الدراسات العالية الا بهذه الأبيات :

يا بانى المجد وابن المولعين به انشر ضياء انهدى فى طى أرماس
وألق فى أرض منف أس جامعة من نورها تهتدى الدنيا بنبراس
وانفض عن الشرق يأسا كاد يقتله فلا حياة لأقوام مع اليـــــاس
ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المـــريض بلا طب ولا آس

ولشوقى قصيدة أخيرة فى الجامعة ألقيت فى ٢٧ فبراير ســـنة ١٩٣٢ وفى هذه القصيدة مس شوقى بعض الجامعات بتلميح لطيف ولننظر كيف يقول :

ما هذه الغرف الزواهر كالضحى الشامخات كأنهـــا الاعـــلام
من كل مرفوع العمود منـــــور كالصبح منصدع به الاظلام
تتحطم الامية الكبرى على عرصـــاته وتمـــزق الأوهـــام
هذا البناء الفـــاطمى منـــاره وقواعد لحضـــــارة ودعـــام
مهد تهيـــأ للوليد وايــــــكه سيرن فيهـــا بلبل وحمــــام
شرفاته نور السبيل وركنـــه للعبقـــرية منـــزل ومقــــام
وملاعب تجرى الحظوظ مع الصبا فى ظلهـــن وتوهب الاقســـــام
يمشى بها الفتيـــــان هـــذا ماله نفس تسوده وذاك عصـــام

والقصيدة طويلة تنقل فيها الشاعر من غرض الى غرض الى أن قال :

قامت ربوع العلم فى الوادى فهل للعبقرية والنبوغ قيام
فهما الحياة وكل دور ثقافة أو دور تعليم هى الاجسام
ما العلم ما لم يصنعاه حقيقة للطالبين ولا البيان كلام

وفى الأبيات الأولى نجد شوقى قد وصف مهمة الجامعات أدق وصف حين قال :

تتحطم الأمية الكبرى على عرصاته وتمزق الأوهام

والأمية الكبرى تعبير جديد وصف به شوقى حياة أنصاف المتعلمين أو أنصاف الجهال ، وفى القطعة الثانية يبين أن دور الثقافة والتعليم ليست الا أجساما أما الروح ففى العبقرية والنبوغ وبدونهما لا يكون للعلم حقيقة ولا للبيان جمال :

ولا نحب أن نفوت على القارىء الاستمتاع بتلك الصورة الشعرية التى وصف بها شوقى يوم الفراغ من بناء الجامعة المصرية اذ شبهه باليوم الذى استراح فيه بناة الأهرام حين تم البناء :

يا مهرجان العلم حولك فرحة وعليك من آمال مصر زحام
ما أشبهتك مواسم الوادى ولا أعياده فى الدهر وهى عظام
الا نهارا فى بشاشة صبحه قعد البناة وقامت الاهرام
وأطال « خوفو » من مواكب عزه فاهتزت الربوات والآكام

الازهر الشريف

عرض شوقى للازهر فى شعره غير مرة واشهر ما قاله فيه رائيته التى نظمها سنة ١٩٢٤ وينبغى أن نذكر أن شوقى كان يضمر أصدق

آيات الولاء للثقافة الأزهرية لانه مدين أثقل الدين لمن اتصل بهم من نوابغ الأزهريين . وقد ذكر الدكتور محمد هيكل فى رسالته المطولة التى رثى بها شوقى فى جريدة السياسة أنه سأل الشاعر ان يدله على أثر عربى يشغله عن الآداب الأوربية فدله شوقى على كتاب (الوسيلة) للشيخ حسين المرصفى فلما اطلع الدكتور هيـــكل على الكتاب عجب ودهش من أن يرى شوقى فى قراءة مثل ذلك الكتاب ما يصرف الذهن عن روائع الآداب الأوربية ولو تذكر الدكتور هيكل آن شوقى كان ازهرى الثقافة لما عجب ولما دهش من أن يشير بمطالعة مثل هذا الكتاب لأن هناك كتبا أدبية لغوية وفقهية تعد من أثمن الذخـــائر عنـــد من يدركون كيف يتصاول جبابرة العقول ، ولكن تلك الكتب مغلقة أشد الاغلاق فى وجوه من حرموا من الثقافة الأزهرية ، تلك الثقافة القوية التى قامت أصولها على شحذ الذهن وتثقيف العقل من الألف الى الياء أى من أول يوم يدخـــل فيه الطالب الأزهـــر الى أن يجلس مجلس الأســـتاذ .

تكلم شوقى عن الأزهر فأثنى على ائمته ثم التفت فنهى القارىء عن متابعة من ينكرون كل قديم فقال بعد تمهيد وجيز :

واخشع مليا واقض حق أئمة	طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جـــلالة	واعز سلطانا وأفخـــم مظهـــرا
زمن المخـــاوف كان فيه جنابهم	حرم الامان وكان ظلهم الذرا
من كل بحر فى الشريعـــة زاخر	ويريكه الخلق العظيم غضنفـــرا
لا تحذ حذو عصـــابة مفتـــونة	يجدون كل قديم شىء منـــكرا
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا	من مات من آبائهـــم أو عمـــرا
من كل ماض فى القديم وهدمه	واذا تقـــدم للبناية قصـــرا
وأتى الحضـــارة بالصناعة رثة	والعلم نزرا والبيان مثـــرثرا

ثم انتقل الشاعر فخاطب الأزهر خطابا رقيقا كأنه أنفاس الزهر عند طلوع الصباح .. وسجل فضله في تثقيفه اذ قال :

عين من الفرقان فاض نميرها	وحيا من الفصحى جرى وتحدرا
ما ضرني أن ليس أفقك مطلعي	وعلى كواكبه تعلمت السرى

وفي هذه القصيدة عرض الشاعر لمسألة من أدق مسائل التربية والتعليم ذلك بأن الأزهر هو المعهد المصرى الوحيد الذى يفتح أبوابه للعميان وللقارىء أن يتأمل طويلا فان الأعمى أحق الناس بالعطف وقد يكون أهلا لنبوغ عظيم يستره الجهل ويطمسه الاغفال .

وهذا الجانب من التربية الأزهرية جدير بالاعجاب فكم من عميان اطلعهم الازهر وهم اهدى من المبصرين .

وتأملوا رفق شوقي اذ يقول في خطاب جلالة الملك فؤاد :

نظرا واحسانا الى عميانه	وكن المسيح مداويا ومجبرا
والله ما ندرى : لعل كفيفهم	يوما يكون ابا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد	غبنا وجل المشترى والمشترى
ان فاتهم من نور وجهك فائت	لم يعدموا لوجوه برك منظرا
لمسوا يداك كمن يشاهد مزنة	ويد الضرير وراءها عين ترى

انتحار الطلبة

ولم يقف شعر شوقي في التربية والتعليم عند الكلام على دور العلم ومعاهد التثقيف بل اهتم بشؤون الطلبة وتحدث عن أزماتهم العقلية والوجدانية ولنصرف النظر عما وضعه لهم من الأغاني المدرسية والاناشيد القومية فان ذلك يحتاج الى بحث خاص ولنكتف بالاشارة الى رائيته البديعة في انتحار الطلبة ولعل القراء يكفوننا مؤونة التنبيه على مواطن الحسن في تلك القصيدة الرائعة التي يندر مثلها في الأدب

الحديث فان المقام يضيق عن ذلك وحسبنا أن نعرض عليهم منها هذه الشـذرات •

ناشىء فى الـورد من أيامـه حسبه الله أبا الـورد عثـر
سدد السهم الى صـدر الصبا ورماه فى حواشيه الغـرر
بيـد لا تعرف الشـر ولا صنحت الا لتـلهو بالاكـر
بسطت للسـم والحبـل وما بسطت للكأس يوما والـوتر
غفـر الله له ، ما ضـره لو قضى من لذة العيش الوطر!
لم يمتـع من صـبا أيامه ولياليه أصـيل وسـحر
يتمنى الشيخ منـه سـاعة بحجاب السمع أو نور البصـر
ليس فى الجنة ما يشـبهه خفة فى الظـل أو طيب قصـر
فصـبا الخلد كثـير دائـم وصبا الدنيـا عـزيز مختصر

وبعد أبيات طيبة مشتهاة عرض الشاعر لأسباب اعجاز الطـالب فقـال :

لامه النـاس وما أظلمهـم وقليل من تغـاضى وعـذر
ولقد أبلاك عـذرا حسـنا مرتدى الاكفان ملقى فى الحفر
قـال ناس صرعة من قـدر وقديمـا ظلم الناس القـدر
ويقول الطب بل من جنـة ورأيت العقل فى الناس ندر
ويقولون جفـاء راعـه من أب أغلظ قلبـا من حجـر
وامتحـان صـعبته وطـأة شدها فى العلم أستاذ نكر
لا أرى الا نظـاما فاسـدا فكك العلم وأودى بالأسـر
من ضـحاياه وما أكثـرها ذلك الكاره فى غض العمر
ما رأى فى العيش شيئا سره وأخف العيش ما سـاء وسر
نزل العيش فلم ينـزل سـوى شـعبة الهم وبيداء الفـكر
ونهـار ليس فيـه غبطـة وليـال ليس فيهن سـمر
ودروس لم يـذلل قطفهـا عالم ان نطق الدرس سـحر

والقصيدة طويلة وهى على طولها شهية فليعد اليهـا من شاء فى الجزء الأول من الشوقيات ••

واجب المعلم :

ولشوقى قصيدة مشهورة فى واجب المعلم يحفظها التلاميذ لأن أساتذة اللغـة العـربية يسرهم جدا أن يعمـل تلاميذهم بقـول شـوقى

قم للمعـلم وفه التبجيـلا   كاد المعـلم أن يكون رسولا

وليس يهمنا أن نعيد ما حفظه الطلبة من حق المعلم ــ وانما يهمنا أن نذكر رجال التربية بقول شوقى فى واجب المعلمين ••

أمعلمى الوادى وساسة نشـئه   والطابعين شـبابه المأمـولا
والحـاملين اذا دعـوا ليعلموا   عبء الأمانة فادحـا مسـئولا
كانت لنا قدم اليـه خفيفة   ورمت بدنلوب فكان القيـلا
حتى رأينا مصر تخطو أصـبعا   فى العلم ان مشت الممـالك ميلا
تلك الكفور وحشوها أميـة   من عهـد خوفو لم تر القنديلا
تجد الذين بنى (المسلة) جـدهم   لا يحسـنون لابرة تشـكيلا
ربوا على الانصاف فتيان الحمى   تجدوهم كهف الحقوق كهـولا
واذا المعـلم لم يـكن عدلا مشى   روح العدالة فى الشباب ضئيلا
واذا المعلم ساء لحظ بصـيرة   جاءت على يده البصائر حولا
واذا أتى الارشاد من سبب الهوى   ومن الغرور فسمه التضـليلا

من البيت الى المدرسة الى الحياة

هذا العنوان أصلح من العنوان الذى اختاره شوقى لقصـيدته

انبائية التى سماها « مصاير الأيام » وهى قصيدة نفيسة جدا افتتحها بهذه الابيات :

ألا حبذا صـــحبة المكتب	وأحبب بأيامـــه أحبب
ويا حبـذا صـبية يمـرحو	ن عنان الحياة عليهم صـبى
كأنهـو بسـمات الحيـــا	ة وانفـاس ريحـانها الطيب
يراح ويغدى بهم كالقطيـــ	ع على مشرق الشمس والمغـرب
فـــراخ بأيك فمن ناهض	يروض الجنـاح ومن أزغب
مقـاعدهم من جنـــاح الزما	ن وما علمـــوا خطر المركب
عصافير عنـد تهجى الدروس	مهـارا عرابيـد فى المـلعب
لهم جرس مطـرب فى السرا	ح وليس اذا جـد بالطـرب

وكنا نود تحليل هذه القصيدة ، ولكن ضاق الوقت والمجـال فى هذا الحديث •

سرقات شوقى (*)

قضى صديقنا الأستاذ طاهر الطناحى ثلاث سنين وهو مشغول بجمع سرقات شوقى ، فليسمح لى حضرته بتوجيه نظره الى سرقة جديدة من سرقات شوقى ، وهى جديدة من حيث الاستكشاف ولكنها من حيث وقوعها قديمة العهد ، واليه البيان :

كان الناس يعجبون من براعة شوقى فى بيان حكمة الجهاد ، جهاد الرسول ، اذ قال يصاول من وصفوا الرسول بحب الدماء :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم

وهى أبيات على جانب عظيم من جودة المعنى وقوة الرصف ،

(*) من كتاب الأسمار والأحاديث صفحة ٢٦٢ .

وكان يظن أن شوقى هو مبدع هذا المعنى ، وأنه أول من أفصح عن حكمة الجهاد ، ولكن سرقته انفضحت يوم أقيم موسم الشعر فى الأسبوع المنصرم ، فقد تبين أنه انتهب هذا المعنى من قول الشاعر محمد الأسمر الذى قال :

ودعا الى الحسنى فلما أعرضوا
واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فان بدا
مستلثما لاقى الطغاة فروعا
والحق ليس بمعتد لكنه
ان دافعته يد الضلال تدفعا
ومن البرية معشر لا ينتهى
عن غيه حتى يخاف ويفزعا

والأسمر شاعر مجيد ، ولشعره أفنان يقطف الناس من ثمارها ما يشتهون . وكان شوقى رحمه الله مغرما بأخذ معانى الشعراء ، فاغارته على معانى الأسمر تدخل فيما أثر عنه من الطغيان . ومهمة النقد الأدبى هى رد الحقوق الى أصحابها وكشف سرقات الشعراء بعضهم من بعض ، فلا يتهمنا أحد بالغض من شوقى والعدوان عليه وهو ميت ، فان الحق لا يبالى الأحياء ولا الأموات .

قد يقول معترض : ولكن أبيات شوقى جزء من نهج البردة ، وهى قصيدة نظمها شوقى فى سنة ١٣٢٧ هـ ونحن اليوم فى سنة ١٣٥٥ هـ أى أنه نظمها منذ نحو ثمانية وعشرين عاما ، فكيف يصح اتهامه بالسرقة من الأسمر ؟

ونجيب بأن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأسمر رجل عجوز جدا ، بالرغم من تصابيه ، وقصيدته التى ألقاها

فى موسم الشعر نظمها منـــذ أكثر من ثلث قرن وألقـــاها فى معهد دميـــاط . ونشرها فى مجلة « الأمانة » واطلع عليها شـــوقى فانتهب منها ما شاء .

ولكن لابد مع هذا من انصاف شوقى الذى لا يملك الدفاع عن نفسه بعد أن أسكته الموت ، وانصافه سهل : فقد نص القدماء على أن السرقة لا تعاب دائما ، وانما تعاب حين يسوء الأخذ ، أى حين يكون المعنى المسروق ورد فى صورة أقل جمالا من الأصل ، وتقبل السرقة حين يلطف الأخذ ، أى حين يصور المعنى المسروق بصورة أبرع من الأصل ، وهذا ما وقع لشوقى : فان أبياته أجمل من أبيات الأسمر ، وهى كذلك أروع وأرشق ، وحسب الأسمر من الفوز أنه كان السابق ولم يكن المسبوق !

أكتب هذا وأنا أعرف أن أنصار شوقى ستضيق صدورهم بما أقول ، ولكن لا بأس فقد احتملنا كثيرا من المكاره فى سبيل الحق ، وعند الله لا عند الناس حسن الجزاء (١) .

٢٦ يوليه سنة ١٩٣٦

---

(١) لم يفطن الأستاذ ســـلامة موسى الى جوهر الدعابة فى هذه الكلمة فنقلها الى « المجلة الجديدة » شاهدا على سرقات شوقى !

لمحات من حياة شوقى (١)

سيداتى سادتى :

تفضلت محطة الاذاعة فدعتنى للاشتراك فى احياء ذكرى أمير الشعراء •

وقد نظرت فرأيت الكلام على شوقى كثر جـــدا ، وأنا نفسى كتبت فى نقد شعره كثيرا ، وأخشى أن أقع فى الحديث المعاد •

فلم يبق الا أن أقدم اليكم بعض الصور من حياة ذلك الشاعر العظيم ••

كانت شهرة شوقى قد بلغت مبلغا عظيما قبل الحرب العالمية (١)، ولكن الجمهور كان هواه مع منافســه الخطـير حافظ ابراهيم ، لأن حافظا كان شاعر الوطنية ، وكان من السابقين الى محاربة الاحتلال ، وكان شوقى كذلك شاعرا وطنيا ، ولكن مركزه الرسمى فى معية سمو الخديو عباس كان يحول بينه وبين الشجاعة التى امتاز بها حافظ فى محاربة الاحتلال •

ثم وقع حادث لم يكن فى الحسبان ، وهو عزل سمو الخـديو

(*) محاضرة القيت فى محطة الاذاعة المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ •

(٢) هذه المحاضرة على صفحات كتاب الأسمار والأحاديث ١٥٦ •

عباس عن عرش مصر بسبب انضمامه الى تركيا فى الحرب العالمية الماضية .

وفى تلك اللحظة الرهيبة تقدم حافظ ابراهيم فهنأ السلطان حسين بالعرش مع جماعة من الشعراء ، ودعاه الى الثقة بالانجليز فقال :

ووال الانجليز فهم رجال   من الآداب قد نهلوا وعلوا

وحينئذ تلفت الجمهور ينظر الى ما يصنع شوقى ، وكان تخلف عن تهنئة السلطان حسين . وما هى الا أيام حتى نشر شوقى لاميته المشهورة التى عطفت الجمهور عليه :

الملك فيكم آل اسماعيلا   لا زال ملككم يظل النيلا

وكانت هذه القصيدة شؤما على الشاعر : فقد وقعت فيها أبيات كانت مثارا للتفسير والتأويل ، وهى هذه الأبيات :

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم
فالله خير موئلا وكفيلا
جرت الأمور مع القضاء لغاية
وأقرها من يملك التحويلا
أخذت عنانا منه غير عنانها
سبحانه متصرفا ومديلا
هل كان ذاك العهد الا موقفا
للسلطتين وللبلاد وبيلا
يعتز كل ذليل أقوام به
وعزيزكم يلقى القياد ذليلا
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت
الا نتائج بعدها وذيولا
وانفض ملعبه وشاهده على
أن الرواية لم تتم فصولا

وقد سارت هـذه القصـيدة فى ذلك الحين مسير الأمثـال ، ولا سيما هذا البيت :

رؤيا على يا حسـين تحققت ما أصدق الأحـلام والتأويلا

وكان الناس يعدون ذلك من التورية .

وقد انزعج الانجليز من كثرة القيل والقال ، فأمروا بنفى شوقى من البلاد ، وكان ذلك النفى فاتحة لعهد جديد من شاعرية شوقى ، وابتدأ بقطعته النثرية فى وصف قناة السـويس ، وهى قطعة نادرة النظائر والأشباه .

وكان شوقى يخاف أن ينساه أهل مصر فهو الذى قال ان مصر بلد .

كل شىء فيه ينسى بعد حين .

فأخذ يرسل قصائده بلا انقطاع الى مجلة عكاظ ، وكان لهذه المجلة تأثير شديد فى توجيه الأدب الحديث ، ولكن الجمهور نسيها بسرعة لأن صاحبها كان أفسد ما بينه وبين أكثر الأدباء من صلات .

ثم اتفق لشوقى أن ينظم النونية المشهورة ، وهى قصيدة رق فيها حنينه الى مصر والنيل :

يا نائح الطـلح أشـباه عوادينا
نأسى لواديك أم نشجى لوادينا
ما ذا تقص علينا غـير أن يدا
قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا
أخا الغريب وظلا غير نادينـا
كل رمته النوى ريش الفراق لنـا
سـهما وسل علينا البين سكينا

اذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع

من الجنــاحين عى لا يلبينــا

فان يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا

ان المصائب يجمعن المصــابينا

لم تأل ماءك تحنــانا ولا ظمأ

ولا ادكارا ولا شــجوا أفانينا

تجر من فنن ذيــلا الى فنن

وتسحب الذيل ترتاد المؤاســينا

أســاة جسمك شتى حين تطلبهم

فمن لروحك بالنطس المداوينـا

وفى هذه القصيدة مجد مصر والنيل أعظم تمجيد اذ يقول :

لم يجر للدهر اعذار ولا عرس

الا بأيامنا أو فى ليالينــــا

ولا حوى السعد أطغى فى أعنته

منا جيادا ولا أرخى ميادنيــا

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا

ولم يهن بيد التشتيت غالينــا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل

قبل القياصر دناها فراعينــا

ولم يضع حجرا بانٍ على حجر

فى الأرض الا على آثار بانينــا

كأن أهرام مصر حائط نهضت

به يد الدهر لا بنيان بانينــا

وختمها بالشوق الى أمه فى حلوان فقال :

كنز بحلوان عنـــد الله نطلبه
خير الودائع من خير المؤدينـا
لو غاب كـــل عزيز عنه غيبتنا
لم يأته الشوق الا من نواحينا
اذا حملنا لمصر أو له شـــجنا
لم ندر أى هـــوى الأمين شاجينا

وفى أواخر سنة ١٩١٩ فيما أتذكر رجع الشـــاعر من منفاه ، وتلهفت لرؤيته ، فرأيته أول مـــرة فى منزل المرحوم عبـــد اللطيف الصوفانى بك بالحلمية الجديدة .

رأيته رجلا خاليا من الأبهة والوجاهة فى ملبسه وهندامه ، رجلا قليل الكلام كثير الصـــمت ، لا يدل مظهره على شىء ، وان طبقت شهرته الآفاق .

وقد عرفونى يومئذ اليه ، فأنشدته قصائد كثيرة من شـــعره البـــليغ ، وكان يأنس الى من يزوون أشـــعاره ويعترفـــون بعظمته الشعرية .

ثم وقع بعد ذلك أن نظم قصيدة فى الدعوة الى قبول مشروع ملنر سنة ١٩٢٠ وقد قرأت تلك القصيدة وأنا فى غيابة الاعتقال ، فثار غضبى عليه ، وصممت على ايذائه حين أجد السبيل الى تنسم هواء الحرية .

ولما خرجت من الاعتقال فى خريف سنة ١٩٢٠ كانت أول ما كتبت مقالة فى نقد شوقى بمناسبة قصيدته فى مشروع ملنر ونشرتها فى جريدة المحروسة ، فغضب الشاعر ، وأضاف اسمى الى خصومه الألداء .

ولكن المقادير أرادت غير ما أردت وأراد ..

واليكم أسوق الحديث :

كان شوقى بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده الجياد الا فى جريدة الأهرام ، وكانت جريدة الأهرام تسميه «أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع » .

وقد احتالت جريدة السياسة للتفرد بنشر تلك القصائد الجياد فأعلنت انها تقدم خمسين جنيها الى الجمعية الخيرية الاسلامية فى كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقى .

ورأى شوقى أمام هذه الحيلة البارعة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة بأشعاره ، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته . لأنها وثيقة نفيسة تشهد بعظمته الشعرية .

انتقلت قصائد شوقى من الأهرام الى السياسة ..

فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل ، ولم تعد تسميه « أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع » حين تجىء مناسبة لذكر اسمه ، وانما صارت تسميه صاحب العزة أحمد شوقى بك .

وقد تنبهت الى هذه الظاهرة مع صديق قديم هو الدكتور سعيد عبده ، وكان يومئذ طالبا بمدرسة الطب ، فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها فى جريدة الصباح ..

وقد قرأ شوقى ما كتبت وما كتب صديقى سعيد فطرب ورآنا من النوابغ !

وأرسل ابنه حسين الى صاحب الصباح يدعونا جميعا للغداء بكرمة ابن هانىء فى المطرية ..

ولم يشأ أن يجشمنا مشقة الانتقال فأعطانا موعدا بأحد أندية

القاهرة ، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا الى المطرية مكرمين معززين . ومعنا الصديق أحمد علام الذى صار فيما بعد مجنون ليلى فى رواية شوقى ..

قد أنسى كل شيء ، ولكنى لن أنسى كيف رأيت شوقى فى ذلك اليوم .

كان الرجل جاوز الخمسين ، ومع ذلك بقيت له ابتسامة عذبة حلوة تفتن وتشوق ، وبقيت فى وجهه ملامح من الصباحة تظهر فى تونين تشرقان فى خديه ، وانطلق فحدثنا عن خصوماته القديمة مع الزعيم سعد زغلول ، وأنشد أبياتا من قصيدته التى نظمها فى السخرية من عرابى يوم عاد من منفاه ، وعاتبنى على المقال الذى نشرته فى الهجوم عليه بجريدة المحروسة ، وأوضح الأسباب التى دعت لنظم قصيدته فى مشروع ملنر قائلا انها استجابة لالحاح المكباتى والنحاس .

وكان ذلك اليوم بداية صداقة حقيقية بينى وبين شوقى ..

وزادت الألفة فكنا نلتقى كل يوم بمكتبه فى شارع جلال .

ثم شرع فى طبع ديوانه سنة ١٩٢٥ فتلطف واقترح أن أكتب مقدمة لذلك الديوان ، وقد قبلت بسرور وارتياح .

ورجعت الى نفسى فرأيت أن كتابة المقدمات توجب التغاضى عن الهفوات ، فأرسلت الى شوقى خطابا أعتذر فيه عن كتابة مقدمة ديوانه ، وعللت الاعتذار بأنى وقفت قلمى على النقد الأدبى ، وقد أهجم عليه فى يوم من الأيام ، وذلك لا يأتلف مع الثناء عليه فى مقدمة الشوقيات .

وفى مساء اليوم الذى كتبت فيه ذلك الخطاب لقيت الأستاذ الدكتور طه حسين بمنزله ، وكان يومئذ يسكن فى مصر الجديدة ،

فأخبرته بما وقع بيني وبين شوقى ، وكان الدكتور طه فى ذلك العهد من خصوم شوقى ، فتأسف وقال : ليتك حدثتنى بذلك قبل أن تكتب اعتذارك ، فان كتابة مقدمة لديوان شوقى شرف عظيم ، ولو أنه طلب منى ذلك وأنا من خصومه لسارعت الى القبول لأن شوقى فى رأيى أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبى •

وكان اعتذارى عن كتابة مقدمة للشوقيات بداية قطعية بينى وبين شوقى ، مع أننى أنصفته فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » انصافا لم يوفق اليه أحد من النقاد الذين أعجبوا بشعره أشد الاعجاب •

وتعليل غضبه سهل : فقد كان شوقى لا يصدق أن شعره كلام كسائر الكلام فيه المقبول والمردود ••

ولم تصرفنى هذه القطيعة عن الايمان بعظمة شوقى •

وزاد فى عطفى عليه أننى رأيته رأى العين يحفر قبره بيديه •

رأيته يسرف اسرافا شديدا فى نظم الشعر ، والشعر يأخذ وقوده من الأعصاب والحواس ، رأيته ينظم طوائف من الروايات المسرحية فى زمن قليل ، فعرفت أن الرجل يقدم صدره لسهام الموت •

وآخر مرة رأيت فيها شوقى كانت بمسرح حديقة الأزبكية فى ربيع سنة ١٩٣٢ ، رأيته نحيلا هزيلا تتموج عيناه ، وتضطرب يداه •

وقد هممت يومئذ بتقبيل يمناه ، ثم تذكرت ما بينى وبينه فانقبض صدرى وانصرفت •

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

وعصف الدهر بشاعر النيل حافظ ابراهيم فبكاه شـــوقى بكاء من ينتظر الموت •

وكذلك كان صيف سنة ١٩٣٢ عهد شؤم ، فقد انطفأت فيه حياة شاعرين عظيمين رفعا مصر مكانا عليا •

سيداتى سادتى

عاش شوقى للشعر ومات بالشعر • ففى الساعة التى كان يجود فيها بروحه كانت الآنسة ملك تطرب الجمهور بتغريدة شوقى :

يا حلوة الوعد ما أنساك ميعادى

وفى صباح اليوم الذى جهز فيه نعشه كان المنشد ينشد قصيدته فى مصنع مشروع القرش ، فهتف هاتف : يحيا شوقى !

وصفق الجمهور ، وأغرب فى الهتاف •

ولكن هاتفا آخر رفع صوته وقال : يرحم الله شوقى !

وتلفت الجمهور وهو مذعور فعرف أن المقادير انتزعت من بين يديه كنزه الثمين •

سيداتى سادتى

تلكم كلمة وجيزة عن أمير الشعراء ، وهى ذكريات حزينة ، ومن ذا الذى لا يحزن ولا ييتئس حين يتصور ما تصنع الدنيا بالشعراء ؟

وهو رحمه الله قد صور حاله مع دنياه ، دنيا الجمال والحب ، بالأنشودة الخالدة التى يغنيها تلميذه وصفيه محمد عبد الوهاب :

بلبل حيران بين الغصون

فى سبيل الجمال والحب مصرعك ، أيهـــا البلبل الذى قتلته أشواك الأزاهير !

وفى ذمة الله شاعر مصر والعروبة والاسلام والشرق ؛
فى ذمة الله من يقول :

وطنى لو شـغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليـــه فى الخلد نفسى
وهفـــا بالفـؤاد من سلسبيل
ظمـأ للسـواد من عين شمس

قصائد الشعراء فى تأبين سعد
بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

فى مثل هذه الأيام من سنة ١٩٢٧ فجعت مصر بوفاة الزعيم سعد زغلول ، والتفتت الأمة العربية الى هذه الفجيعة الدامية ، فنظمت القصائد الجياد فى الحزن لوفاة ذلك الزعيم العظيم ، نظمها شعراء فضلاء ..

قصيدة شوقي (١)

نشرت في صدر الأهرام مع تمهيد نظنه من قلم المرحوم صادق عنبر .

جو القصيدة

لم أكن في مصر يوم مات سعد ، وانما كنت في باريس فلا أعرف أين كان شوقي يوم مات سعد ، فهل كان بمصر ؟

في القصيدة ما يشهد بذلك ، كأن يقول :

قلت والنفس بسعد ماثل   فيه آمال بلاد ومناها

وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان يصطاف في البلاد السورية . كأن يقول :

سائلوا « زحلة » عن أعراسها   هل مشى الناعي عليها فمحاها
عطل المصطاف من سماره   وجلا عن ضفة الوادي دماها
فتح الأبواب ليلا ديرها   والى الناقوس قامت بيعتاها
صدع البرق الدجى تنشره   أرض سوريا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسري موهنا   كعوادي الثكل في حر سراها
عرض الشك لها فاضطربت   تطأ الآذان همسا والشفاها
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم   كل نفس في وريديها رداها

(١) مجلة الرسالة ــ العدد ٤٢٥ ــ بتاريخ ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤١ .

فهذه الأبيات صريحة فى ان الشاعر كان فى سوريا حين مات سعد ، فكيف جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيعين ؟

انما صنع ذلك ليتسق له هذا الجو الجميل :

يا عدو القيد لم يلمح له   شبحا فى خطة الا آباها
لا يضق ذرعك بالقيد الذى   حز فى سوق الأوالى وبراها
يارفاتا مثل ريحان الضحى   كللت عدن به هام رباها
وبقايا هيكل من كرم   وحياة أترع الأرض حياها
ودع العدل بها أعلامه   وبكت أنظمة الشورى صواها
حضنت نفسك والتفت به   راية كنت من الذل فداها
ضمت الصدر الذى قد ضمها   وتلقى السهم عنها فوقاها
عجبى فيها ومن قائدها   كيف يحمى الأعزل الشيخ حماها

وهنا يظهر روح القصيدة • فالشاعر يتحدث عن القيد وعدد القيد ، ويذكر الراية التى احتضنت نعش سعد ، بعبارة لطيفة تعد من آدق العبارات ، اذ جعل الراية تحس نار الفجيعة ، وتشعر بفقد القائد الذى كان يحمى حماها وان جردته الأقدار من السلاح •

عيون القصيدة

وفى هذه القصيدة أبيات روائع منها قول الشاعر فى فجيعة مصر بدفن سعد :

ما درت مصر بدفن صبحت   أم على البعث أفاقت من كراها
صرخت تحسبها بنت الشرى   طلبت من مخلب الموت أباها

وقوله فى جزع مصر لفقد الخطيب الذى أسكرها بسحر بيانه حينا من الزمان :

طافت الكأس بساقى أمة   من رحيق الوطنيات سقاها
عطلت آذانها من وتر   ساحر رن مليا فشجاها

أرغن هام به وجدانهـــــا وأذان عشـــقته أذناهـــا
كل يوم خطبة روحيــــــة كالمزامير وأنغـــام لغاهـــا
دلهت مصر ولــو أن بهـا فلوات دلهت وحش فـلاها

وقوله فى مصاير الاحياء :

زورق فى الدمع يطفو أبـدا عرف الضفة الا ما تلاهـا
تهلع الثكلى على آثـــاره فاذا خف بها يوما شــفاها

وقوله في فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية :

ولد الثورة ســعد حــرة بحياتى ماجد حــر نماهـا
ما تمنى غيرها نســلا ومن يلد الزهراء يزهد فى سواها
رقد الثـــائر الا ثــورة فى سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها صــبيا فـكوت راحتيـه وفتيــا فرعاهـــا
أعلمتم بعــد موسى من يـد قذفت فى وجه فرعون عصاها
وطئـــت نادبة صــــارخة شاه وجه الرق ياقوم وشاها

وقوله في اخلاق سعد

أين من عينى نفسى حـــرة كنت بالأمس بعينى أراهـــا
روعة النادى اذا جدت فان مزحت لم يذهب المزح بهاها
يظفر العذر بأقصى سخطهـا وينال الود غايات رضـــاها
ولهــا صبر على حســـادها يشبه الصفح وحلم عن عداها
نست أنسى صفحة ضـاحكة تأخذ النفس وتجرى فى هواها
وحـديثا كروايات الهـــوى جــد للصب حنين فرواها
وقنـــاة صـــعدة لو وهبت للسماك الأعزل اختال وتاها

تلك عيون هذه الشوقية وما زاد فهو معان يكررها شوقى فى أكثر مراثيه وان كانت تجل عن الابتذال .

أحمد شوقى أمير الشعراء (١)

حضرت الاحتفال بوضع حجر الأساس للجامعة المصرية فى نشوة الربيع فى سنة ١٩١٤ وكنت بجانب الخديوى عباس وبيده «المسطرين» ليضع الحجر الأساسى ، وهى أول وآخر مرة رأيت فيها الخديوى عباس وأذكر أنه كان ضخم الرأس وأصبح الوجه ومتين البيان .

فى تلك الحفلة ألقيت قصيدة من شعر شوقى ، ألقاها زكى عكاشة وكان رخيم الصوت وكان شوقى حاضرا ولكننى لم أجد من يرشدنى الى مكانه لأسلم عليه .

ثم شبت نار الحرب العالمية الأولى والخديوى عباس فى تركيا فمنعه الانجليز من الرجوع الى مصر ، وأعلنوا أنه مخلوع ، وأقاموا مكانه السلطان حسين كامل رحمه الله . أقيم الاحتفال فى ميدان عابدين ولم أستطع شهود ذلك الاحتفال ولكننى أتذكر أن جرائد ذلك الوقت قالت انه وجه الى المحتفلين به خطبة وجيزة .

(١) جريدة البلاغ ــ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧ .

(٢) يقول زكى مبارك : هى مقالة أهديتها الى الأستاذ محمد عبد القادر حمزة لغرض لا يخفى على قراء البلاغ .

جاءت فيها الحكمة المصرية « على قد حصيرتك مد رجليك » وكان يوحى بالاعتدال • وفى اليوم التالى نشرت جريدة الأهرام ثــلاث قصائد فى تهنئة السلطان حسين قصيدة أحمد شوقى وقصيدة حافظ ابراهيم وقصيدة أحمد نسيم •

فى ذلك الوقت كنت طالبا بالأزهر الشريف وكنت من تلاميـذ الشيخ محمد حسنين العدوى والد الأستاذ حسنين محمد مخلوف •

كان الشيخ يقيم بمنزل فسيح فى حارة « أم الغــلام » وكنت أقيم بغرفة فى منزل قريب من ذلك المنزل وكنت حين أرى باب الشيخ مفتوحا أدخل فأسلم عليه ، لأن الشيخ لمحنى مرة وأنا سـائر بدون التفات فنادانى وقال : أعرب هذا البيت يا شيخ زكى :

تمرون الديار ولم تعوجــوا كلامكمو على اذن حــرام

فابتسمت وقلت : المشكلة هى ان الفعل « مر » تعدى بنفســه وكان من الذوق أن يتعدى بالباء ، وسألاحظ هذا المعنى فأعرج على هذه الدار حين أمر عند الطريق •

مررت على الدار ومعى جريدة الأهرام لأقرأ تلك القصائد على الأستاذ مخلوف وهو آية من آيات الذكاء ، وهو الذى صار مفتى الديار المصرية لهذا العصر خلفا للرجل العظيم الشيخ عبد المجيد سليم•

قال الأستاذ : ما رأيك يا شيخ زكى فى هذه القصائد ؟

فقلت : قصيدة نسيم قصيدة صغيرة وقصيدة حافظ فيها سقطة وطنية ، فقد أوصى السلطان حسين فقال :

ووال الانجليز فهم رجــال من الآداب قــد نهلوا وعلوا

أما قصيدة شوقى فهى القصيدة •

فقال الشيخ حسنين مخلوف : ان الانجليز سينفون شوقى لهذه القصيدة ، ففيها حض على الثورة وفيها تعريض بالسلطان حسين .

وقد تحقق رأى الأستاذ فنفى الانجليز شوقى بعد أسبوعين .

لقد عرف شوقى كيف يختار منفاه ، وهو أسـبانيا الجنوبية ، وهى الأندلس أقام فيها المسلمون ثمانية قرون وقد استوحى الاطلال فقال ما قال .

وحين أعلنت الهدنة في سنة ١٩١٨ رجـــع شوقى الى الوطن ليقول :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشـــبابا

وفى سنة ١٩١٩ كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار وكان يشرف عليها المغفور له عبد اللطيف الصوفانى الوكيل الثانى للحزب الوطنى ، أما الوكيل الأول فهو على فهمى كامل الذى مات وهو يؤبن محمد فريد .

وكنت أزور الصوفانى فى كل مساء لادرس معـه ما يجب أن أكتب فى الصباح ، فقد كان أصيل الرأى وكان آية فى صدق الوطنية، وكان منزله مأهولا بالزائرين .

قال لى الشيخ عبد ربه مفتاح وكان رفيقى فى الثورة ، هـل تعرف هذا الرجل الجالس هناك ؟

فقلت : لعله مسكين من المساكين .

فقال : هذا هو أحمد شوقى أمير الشعراء مضيت للتسليم على الشاعر وقلت : فى جيبى ثلاثة جنيهات وأنا اعطيها لك لتشترى بدلة تعفيك من هـــذه البدلة المبهـدلة ، وان كنت حضرت لاسـتجداء

الصوفانى بك فانا أغنى من هذا الصوفانى ، وانا شـــاعر مثلك ، والشعراء كالفقراء يعطف بعضهم على بعض •

ضحك شوقى ضحكة قوية وقال : هذه أول مرة أضحك فيها بقلبى ، وأحب أن أتشرف بمعرفة الأستاذ : فقلت أنا الشـــيخ زكى مبارك ملك الشعراء ، وأنت أمير فى مملكتى ومن واجبى أن أعطف عليك •

قال شوقى أنشدنى بيتا من شعرك يا أستاذ فأنشدت :

أنت ورد فهب محبك شوكا   أترى الورد عاش من غير شوك

فقال هذا شعر ، ثم أنشدته هذا البيت :

لقد صـــددنا كمـــا صـــددتم   فهـــل ندمتم كمـــا ندمنا

فقال هذا شعر بديع ثم أنشدته هذا البيت :

أين قلبى وأين آثـــار قلبى   من خفوق يعتـــاده ووجيب

فقال : هذا معنى كنت أحوم عليه ، ولم أصل اليه وأنا أحب أن تدوم الصلة بينى وبينك يا أستاذ •

كان شوقى يســـكت الناقدين المتحاملين بالأموال ، وقد كان من أكابر الأغنياء وكان يجزل العطاء على من يثنون عليه وقد استغرب حين رآنى أرفض عطاياه وقال : لقـــد أحيانى الله فعشت حتى رأيت ناقدا يقول كلمة الحق لوجه الحق •

فقلت وأنا أيضا عشت حتى رأيت وجه أمير الشعراء فلله الحمد وعليه الثناء •

كانت جريدة الأهرام تنشر قصائد شوقى فى صدرها وتقـــول قال أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع أحمد شوقى ، وغارت جريدة

السياسة فأعلنت أنها تقدم الى الجمعية الخيرية الاسلامية خمسين جنيها ثمنا لكل قصيدة ينشرها فيها أمير الشعراء أحمد شوقى .

وبهذا انتقل شوقى من جريدة الأهرام الى جريدة السياسة .

وجاءت فرصة لقصيدة من قصائد شوقى فقالت جريدة الأهرام : القى أحد الناس قصيدة نظمها الشاعر أحمد بك شوقى .

كنت أطبع كتاب ، البدائع ، فى مطبعة الصباح فرأيت أن أكتب فى المجلة اعتراضا على ما صنعت جريدة الأهرام وشاركنى فى الاعتراض الدكتور سعيد عبده وكان طالبا مزمنا فى مدرسة الطب .

قرأ شوقى مقالتى ومقالة الدكتور سعيد عبده فقال للأستاذ القشاشى بالتليفون انه يحب أن يرانا عند اللبان بشارع الالفى عند الظهرية .

حضرنا قبل الميعاد فأحضر اللبان صحنين من اللبن الزبادى وبجانب كل صحن طبق من السكر المدشوش قال الدكتور سعيد : أنا لا أعرف هذا ، فقلت : يظهر انه يجب ان تخلط الزبادى بهذا السكر المدشوش وخلطت السكر بالزبادى وأكلت حتى شبعت .

وبعد لحظات جاء شاعرنا شوقى فطلب صحنا من الزبادى بجانبه سكر مدشوش ، فوضع السكر على اللبن وأكل ، فندم سعيد على ان لم يسمع كلامى ، ثم حضر مصطفى القشاشى وأحمد علام فمضينا فى سيارة شوقى الى كرمة ابن هانى وكانت بالمطرية وفى الطريق دار الحديث من شجن الى شجون وأتذكر أنه كان عاتبا على سعد زغلول وانه كان معجبا بعبد اللطيف المكباتى ، وأتذكر أيضا انه كان معجبا بالدكتور طه حسين . وقد غضب عليه فيما بعد .

كانت كرمة ابن هانىء بمعنى الكلمة وابن هانىء هو أبو نواس

وكان شوقى من المعجبين بأشعار أبى نواس ، وقد عارضه بقصيدة من قصائده الجياد .

انطلق شوقى يتحدث ، ولم يكن من عادته أن يطيل الحديث ؛ تحدث فى شؤون كثيرة ضاعت من ذاكرتى مع الاسف وكان من لحظة الى لحظه يقوم لمناجاة « سيس » وهو اللقب الذى خلعه على ابنه حسين .

ثم حضرت المائدة وهى أعاجيب من الألوان وقد دهشت حين رأيت شوقى يأكل الحمام بالشوكة والسكين ولا يبقى منه شيئا ، وقد استأذنته فى أن آكل الحمام بيدى فسمح ، لأنى لم أكن أعرف أن الحمام يؤكل بالشوكة والسكين .

وفى العصرية مضى بنا شوقى بسيارته الى القاهرة ، واستوقف السائق لحظة ليقول :

هذه أملاكى بين المطرية والقاهرة ، فقلت انها أملاكى أنا وان اعترضت فسأرفع عليك قضية .

فقال شوقى : انها هبة منى اليك ، فقلت : أنت تهب مالا تملك يا أمير الشعراء ؟

كان شوقى يقول : أنا أحبك يا دكتور مبارك ، أحبك الى حد العشق وأشتهى ان آراك كل يوم ، فما عرفت فى حياتى رجلا أصدق منك ، فهل تبخل بأن أراك كل يوم ؟

فقلت أنت أستاذى يا شوقى باشا ، وكانت عنده رتبة أعظم من رتبة الباشوية .

وقال شوقى : أنا أنتظرك فى الساعة الحادية عشرة فى الصباح

بمكتب الدائرة ٨ شارع جلال وفى الساعة الحادية عشرة بالضـــبط يحضر شوقى وقد أعد له خادمه فنجانا من الشاى يثور عليه البخـار وأقراصا من « الكرواسان » يهديها الى زائريه بغير حساب ثم يقرأ الخطابات الواردة عليه بسرعة ويمضى معى الى حيث يشاء .

نمضى من هنا ونمضى من هناك ، ونجتـــاز جميع الدروب الى ان نصل الى جسر قصر النيل .

هنالك يقف شوقى فيبكى بكاء الأطفال ويغمغم « من أى عهد فى القرى تتدفق » .

وهى أعظم قصيدة قالها شاعر فى وصف النيل ثم تتخاذل قواه فيرجو ان أحمله الى المكتب وهو فى ذهول ما بعده ذهول وكان شوقى نحيفا الى حد الهزال ، صحبت شوقى مدة تزيد على سنتين عرفت الشاعر معرفة حقيقية ، وكان تحفة فى سلامة الذوق ومتانة الأخلاق ، طلب منى رحمه الله أن أكتب مقدمة الشوقيات فاعتذرت بأن المقدمات يراعى فيها التلطف ، وأنا أكره ان اتقيد برأى قد انكره فيما بعد حين أجد قصيدة ضعيفة توجب الهجوم عليه فقال شوقى بالفرنسية جملة معناها « وأنا لا أفرض أى شىء » وفى المســاء لقيت الدكتور طـه حسين وكان جارى بمصر الجديدة وقصصت عليه ما دار بينى وبين شوقى فتجهم وجهه وقال : يظهر ان رأيى فيك لن يتغير يا دكتور زكى ، وهو انك رجل عبيط ، أنا خاصمت شوقى وخاصمنى وهـــو يغدق الأموال على كتاب مأجورين يشتمونى فى الجرائد والمجلات ، ولو انه اقترح ان أكتب مقدمة الديوان لرأيت هذا من التشريف لأن شـــوقى فى رأيى هو أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبى .

فقلت : أنا أرى أنه أشعر من المتنبى فقال الدكتور طه : ما دام هذا

رأيك فما الذى منع من أن تكتب المقدمة فقلت : لا أحتفظ بحقى فى نقده حين يخطىء •

فقال الدكتور طه : ان شوقى لا يخطىء فقلت اسمع يا سيدى الدكتور هذا البيت وهو من قصيدة قالها شوقى بعد العودة من منفاه:

وكل مسافر سيؤوب يوما اذا رزق السلامة والايابا

فقال الدكتور طه : هذا بيت جميل فقلت : ان سيدى الدكتور من ذرية الرسول عليه الصلاة والسلام وفيه قال الله فى كتابه العزيز، « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ، فالمفروض يا سيدى الدكتور ان المسافر سيؤوب اذا رزق السلامة والايابا ، فليس فى البيت معنى جديد • فضحك الدكتور طه ودعا زوجته وقال لها بالفرنسية خلاصة الحديث فابتسمت وقالت جزاؤه فنجان من الشاى وأنا أدعوه للمشاركة فى طعام العشاء فقلت : أنا اتغديت والطعام بالليل يؤذى أمعائى •

فى سنة ١٩٢٧ اقيمت حفلة تكريمية لشوقى حضرها وفود من شعراء الأقطار العربية ، كان موسما من ألطف المواسم ، والاشتراك فيه جنيه مصرى ، فدفعت الجنيه عن طيب خاطر اكراما لأمير الشعراء• كانت الحفلة فى دار الأوبرا الملكية وفيها ألقى حافظ ابراهيم قصيدة جاء فيها :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفودالشرق قد بايعت معى

فوثب شوقى وقبل حافظا على خديه ، وكان غريبا أن يعترف حافظ بشاعرية شوقى فقد كان حافظ أذكى من شوقى بمراحل طوال ، وأشعر منه بلا جدال ، وسيقول التاريخ بما أقول بعد زمن أو أزمان •

كانت الحفلة الختامية بكرمة ابن هانىء الجديدة وهى على شاطىء النيل فى أشباه الحفلات الرسمية ، وتخيرت مكانى فاخترت مكانا ليس

فيه خمر ، وكان المكان هو الحجرة التى يجلس فيها المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش أعظم من كتب فى ذم الخمر ، ولكننى أسمع همسا فى آذن الشيخ جاويش من الشيخ محمد عبد المطلب وهو يقول : هذا زكى مبارك تلميذ طه حسين ، فوقفت وقلت للشيخ جاويش أنا اخترت هذا المكان من أجلك ، لأشرب معك الماء القراح ، لكن الشيخ عبد المطلب يغتابنى عندك ، لاننى دفعت شره عن الدكتور طه حسين بمقالات نشرتها فى جريدة المقطم والأهرام ، وهى مقالات أملاها قلبى على قلمى ، وسأمضى لأسكر مع السكارى ، فليس لبنى آدم فى هذا العصر آخلاق .

قال الشيخ جاويش وهو يسترضينى : ان الشيخ طه كان محررا فى جريدة الهداية الاسلامية وهى مجلتى ، وأعظم مقالة نشرها عندى هى « النهى عن التزاوج من الأجنبيات » فكيف يتزوج من اجنبية ؟ فقلت : ان الزمن تغير يا فضيلة الأستاذ .

فقال الشيخ جاويش وهو غضبان ان الاتراك لا يتزوجون بناتنا لأننا فلاحون ، والمغاربة لا يتزوجون بناتنا لأننا مصريون ، وكان يجب ان تلاحظ اننى أبغض المسيو طه حسين .

فقلت : أنا أيضا أبغض هذا المسيو ، فبينى وبينه خلاف ، وستسمع أنباءه بعد حين .

فضغط الشيخ جاويش على يدى وقال : سيجعل الله كرسى الأستاذية بكلية الآداب اليك وستكون أنت عميد كلية الآداب وليس على الله بعزيز ان يجعلك مدير الجامعة المصرية .

فقلت : هذه بشارات لطيفة ، ولكن الشيخ عبد المطلب جرحنى ، وسأسكر مع السكارى لاستريح من هذا التجريح ، فأنشد الشيخ جاويش :

اذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

فقلت : لن أشرب الخمر اكراما لك ولكنني أحب أن أخرج من هذا المكان .

نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ .

خرجت الى حجرة ثانية فوجدت حمد باشا الباسل وعلى باشا الشمسي جالسين وأمامهما زجاجات فيها ماء أصفر ، فتوهمت انه الويسكى ، وقد دعانى الشمسي باشا الى الجلوس ولكنى اعتذرت . وكان الباسل باشا والشمسي باشا صديقين حميمين ، فقد رأيتهما بعد رجوعي من باريس فى سنة ١٩٣١ ينادمان فى مشرب بافاريا ، وكان مكانه بشارع فؤاد فى المكان الذى تقوم فيه اليوم عمارة ضخمة تحتها قهوة الشمس ، وهى قهوة سخيفة لأنها لا تقدم للزبائن غير القهوة المرة ، أو لأنها كانت ملتقاى مع الدكتور منصور فهمى باشا حين يطيب له أن يأخذ رأيى فى بعض الأمور ، كنت أستحيى من شرب الخمر فى حضرة الدكتور منصور ،كان هو يشرب الخمر وأنا الماء وقد عزم مرة ومرتين أن أشرب معه فرفضت بحجة انه لا يجوز للتلميذ أن ينادم الأستاذ . ولست تلميذ الدكتور منصور ، وانما أنا ولده الروحى، ولا أعرف كيف كانت تصير حياتى لو لم أعرف هذا الأستاذ النبيل .

وأنا مدين للدكتور منصور فهمى بديون ثقال ، فهو الأستاذ الذى ربانى كان حفظه الله يملى الأسئلة التى ستواجهنى فى امتحانات الليسانس ويطلب منى ان أعدها اعدادا قويا فأتعب فى تحضير الاجابات تعبا لا يخطر فى البال وذلك أسلوب فى التعليم نقلته عن الدكتور منصور فهمى .

أترك هذا وأذكر أنى رأيت فى الحفلة جماعة من تلاميذى بالجامعة المصرية وأمام كل تلميذ زجاجة من الويسكى فتقززت مما رأيت ، وامتنعت عن الشراب وكان يجب أن يغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب فحضر شوقى ليسمع ، حضر وهو نشوان ، وكان فى

الحفلة المغنى صالح عبد الحى وقد شرب حتى سكر فكان يصيح : غنى يا محمد غنى ، غنى يا ولد يا حلو يا جميل .. ؟

جناية زوجية

كان سعد زغلول هو رئيس الشرف للحفلة التى أقيمت لشوقى

ثم تظهر جريدة البلاغ وفيها مقالة افتتاحية بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد وبها زعم أن الأمة التى تحتفل بشوقى لا تعرف معنى الكرامة ، فدعاه سعد اليه وقال : كان يجب يا أستاذ ان تلاحظ ان الحفلة تحت رياستى فقال العقاد أنت لا تفهم الشعر يا باشا ، فقال سعد : أنا لا أعرف الشعر ، وانما أعرف الذوق وأحب أن تكون هذه آخر مرة تزور فيها بيت سعد زغلول .

ودعا سعد باشا الأستاذ عبد القادر حمزة لزيارته ليقول : فى صدر جريدة البلاغ تنشر مقالة فى شتم أمير الشعراء أحمد شوقى ؟ فقال الأستاذ عبد القادر حمزة :

الشعر للشعراء وأنا أبيح لكل كاتب أن يكتب ما شاء .

سعد باشا فى تحرير البلاغ

كان سعد زغلول يعرف أن الرجل عبد القادر حمزة فقير ، الا من الشرف فكان يشاركنا فى تحرير جريدة البلاغ ، كل ما نشره البلاغ تحت حرف (س ١٠) فهو من انشاء سعد زغلول ، وهى مقالات محفوظة بمجموعات البلاغ ، وذلك مما يجهل أبناء هذا الجيل ، وما أكثر ما يجهل أبناء هذا الجيل ..

الكاتب الجبار

زعم الأستاذ العقاد بعد موت سعد باشا ان سعدا كان يسميه الكاتب « الجبار » وكنت أستغرب من هذا وأقول : كان يجب أن يذاع

هذا الوصف وسعد حي ، أما التقول على سعد بعد الموت فهو ضرب من الخيال ورأيي في العقاد ليس بالرأى الطيب ، فقد كنا زميلين في تحرير جريدة البلاغ وزميلين في تحرير مجلة الرسالة ، وما قرأت مقالة أرضتني فهل كان سعد من الجهل بحيث يخلع عليه لقب الكاتب الجبار

ثم تظهر الحقيقة المؤذية ، والقول الحق ايذاء في ايذاء .

ظهرت الحقيقة حين أصدرت مجلة الثقافة عددا خاصا عن سعد زغلول ، وكان الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعد ، وكان يدون مذكرات يومية عن حياة سعد ، فدعته مجلة الثقافة لتقديم كلمات في تلك المذكرات قال الأستاذ كامل سليم في مذكراته ان سعدا كان يسمى الأستاذ عبد القادر حمزة (الكاتب الجبار) وانه سأل سعد باشا عن سبب تسمينه بهذا اللقب فقال : عبد القادر كاتب مفحم وكتابته لا تقوم على الزخرف وانما تقوم على المنطق .

عبد القادر وشوقي

كنت أرسل الى البلاغ مقالات من باريس ، فأرسلت ثلاث مقالات في نقد الجزء الثاني من الشوقيات وكان الدكتور زكي حسن قدمه الى لأطلع عليه فلم يعجبني باب النسيب ، فكتبت تلك المقالات .

ولكن خطابا يصل بالبريد الجوى بخط الأستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول :

ان شوقي مريض ونقد شعره من كاتب في مثل منزلتك الأدبية يؤذيه ، وحين يعافيه الله من المرض سأنشر هذه المقالات بنصها الاصيل وحين مات شوقي رثاه عبد القادر بمقالة افتتاحية في البلاغ قال فيها : ان شوقي فتح لمصر ممالك لا تستطيع فتحها بالجيوش والأساطيل ، كان عبد القادر يحترم شوقي وكان ينشر قصائده في البلاغ بحروف كبيرة ومشكولة ، ولم يصنع هذا الصنيع مع غيره من الشعراء .

سألت شوقى مرة عن رأيه فى عبد القادر فقال : هذا كاتبنا الأول .

بين شوقى وحافظ

كان التنافس شديدا بين شوقى وحافظ ، وكان شوقى يغار من حافظ بعسورة بغيضة ، ولم يسمح بأن يقول فيه كلمة جميلة .

كان حافظ رئيسى يوم كنت موظفا بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، وكان يختصنى بالعطف ويسمعنى ما ينظم من الشعر ، وفى كل قصيدة يقول هذه آخر قصيدة يا مبارك فلتكن أعظم قصيدة وعليك أن تصحح ما فيها من الاغلاط ، حاولت أن أصحح فلم أستطع ، فقد كانت طاقة حافظ الشعرية طاقة قوية وكنت بالنسبة اليه طفلا لم يشب عن الطوق .

وكان عندى من الشيطنة ما يبيح التندر بحافظ فأقول : اخبرنى أحد أصدقائى انه رأى شوقى يدخن السجائر فى الطريق ، فينزعج حافظ ويقول : ان هذا المجنون ينظم شعرا ، وتلك داهية الدواهى فتعالى معى .. « ويدخل فيأخذ اذنا من مدير الدار وهو المغفور له الدكتور صادق أبو هيف الذى نقد مشروع ملنر بأبحاث جيدة أوجبت أن يتلقى من سعد زغلول خطاب ثناء » نسير الى النيوبار فيطلب حافظ « شيشه » ، ويكركر فيها بأسلوب فظيع ، ثم يقول : أنا أعرف انك من أصدقاء شوقى ، ولا أعرف كيف تصادق هذا المخبول ، ان الناس منذ خمسين سنة يقولون حافظ وشوقى كما يقولون بيض وسميط ، فكيف يريد شوقى أن ينفصل منى ؟ فأقول : أنا لا أعرف النمائم ، ولن أبلغ شوقى بهذا الكلام .

الموت يميت الاحقاد

كان شوقى يصطاف بالاسكندرية وكان يختار الجلوس بالقهوة

التجارية نيستوحى الامواج فقرأ فى جريدة البـــلاغ ان حافظا مات فغام وجهه وانشأ أعظم قصيدة قالها في الرثاء :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى	يا منصف الموتى من الأحيـــاء
لكن سبقت وكل طول سلامة	قدر وكـــل منية بقضـــاء
وودت لو انى فداك من الردى	والكاذبون المرجفون فـدائى
الناطقون عن الضغينة والهوى	الموغرو الموتى على الأحيـاء
من كل هدام ويبنى مجـــده	بكرائم الانقاض والاشـــلاء
ما حطموك وانما بك حطموا	من ذا يحطم رفرف الـجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ	فى الشرق واسمك أرفع الأسماء
يا مانح السودان شرخ شبابك	ووليه فى السلم .والهيجـــاء
لما نزلت على خمائله ثـــوى	نبـع البيان وراء نبـع الماء
قلدته السيف الحسام وزدته	قلما كصدر الصعدة السمراء

وهـــذه قصيدة نظمها شوقى وهى فى الجـــزء الثالث من الشوقيات فليرجع اليها من يريد الاستقصاء ، فأنا لا أريد ابكاء قراء البلاغ بدموع أحمد شوقى على غريمه حافظ ابراهيم .

شيخنا شوقى

كنت ألفت مع الدكتور زكى أبو شادى جمعية شعرية سميناها جمعية أبوللو ، واخترنا أن يكون الرئيس أحمد شوقى أمير الشعراء وكانت دار الجمعية بمنزل الدكتور أبو شادى بالمطرية ، وكان شوقى يحضر لحظات ثم ينصرف ، وكان الدكتور أبو شـــادى يرجوه أن يسمع القصائد التى يجوز نشرها فى المجلة فيقول : الدكتور زكى مبارك فيه الكفاية ، فأقبل يده كما كنت أقبل يد أبى .

وكان شوقى فى آخر أيامه يقضى فى كل مساء لحظة أو لحظتين

بجريدة الجهاد ، لأن الأستاذ توفيق دياب سمي جريدته بلفظة من ألفاظ شوقي ، ان الحياة عقيدة وجهاد • خرج شوقي من دار الجريدة وهو مكروب فتعشى في مطعم الكورسال ومضى الى بيته ليموت ، في اللحظة التي مات فيها شوقي كانت الآنسة ملك تغني : يا حلوة الوعد مانساك ميعادى ، وهي قصيدة أهداها شوقي الى ملك بخطه الجميل ، وفي صباح الجمعة كان يجب أن أحضر حفلة الافتتاح بمشروع القرش في العباسية لأرى وجه الدكتور علي باشا ابراهيم ، ولألقى قصيدة شوقي بصوتي ولكن ملحق جريدة الجهاد يصل الينا على غير ميعاد وفيه ان شوقي مات مضيت بسرعة الى البيت فوجدت الدكتور أبو شادي في انتظاري وعليه ثياب سود •

قلت : عظم الله أجرك يا دكتور زكي ، فقال : وعظم الله أجرك يا دكتور زكي ، مضينا ننتظر وصول النعش بميدان الاسماعيلية في الساعة الرابعة من ذلك اليوم المشئوم ، اراد الحانوتية أن يحملوا النعش فرفضنا ان يحملوه وتقدمت أنا والدكتور أبو شادي فحملنا النعش وكان أخف من ريش النعام ، لم يكن المشيعون يزيدون عن أربعة عشر شخصا •• ثم جاءت سيارة تنقل جثمان الشاعر الى مثواه الأخير فأخذنا سيارة ومضينا معه الى القبر وألقيت عليه آخر نظرة •

كيف كان يعيش شوقي

كان رحمه الله مدمنا على التدخين وكان يضع السيجارة في مبسم من الكهرمان ، وما رأيته بدون سيجارة وكان يشرب الشاي من وقت الى وقت وكان مغرما بأكل البيض كان يأكله نيئا عند نظم الشعر ، وبه أوصاني ولكن الله ابتلاني بالمصران الاعور فمنعني هذا الغذاء التي لأن صفار البيض يرقد في المصران ، ولم يكن شوقي يستحم بالماء كما يستحم الناس والحيوان وانما يستحم بالكولونيا ، وكانت خادمته هي زوجته وتقدر مواعيده الغالية ، ولم يكن شوقي

يفطر فى البيت وانما يمضى مع الشروق فيفطر فى مطعم صولت بشارع بولاق واسمه اليوم شارع فؤاد وكان فى مكان يجاور القهوة المسماة بالأمريكين ومما يغيب عن بعض العرب أن الأمريكين ليس معناها الأمريكيون وانما معناها الشرب على الطريقة الأمريكية وهى أن يشرب الشاربون وهم واقفون ، ولهذا ميزة عظيمة وهى اعفاء الشاربين من دفع البقشيش وهو فى بعض الاحايين ثقيل ، وكنت أشرب بهذه الطريقة فى مشارب باريس ، حين رأيت امرأة مجنونة تمسك بخناقى وتقول : الى البار الامريكى ياجان ، الى البار ياجان ، وقد تخلصت منها بصعوبة وهربت وأنا بحمد الله من عقلاء المجانين .

وكان شوقى يحب أبناءه حبا شديدا ، وكانت أول مواليده اسمها أمينة وكان يضع صورتها فى مكتبه وقد رأى طفلة فى سنها وجمالها وهو فى الباخرة فقال :

هذه نور السفينة هذه أخت أمينة

وكان رحمه الله يعطى أمينة كل ما فى جيبه ويقول :

وكم قد خلت من أبيك الجيوب وليست جيوبك بالخالية

وهى قصيدة لم تسجل فى الشوقيات وبعد أمينة جاء على فقال :

صار شوقى أبا على فى الزمان الترللى

وهى من القصائد التى أغفلها صاحب الشوقيات وكان مفتونا بشرب الويسكى ولم يكن يشربه الا بعد منتصف الليل فى البيت :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى الى مشتاق

ولم يكن يعرف ما رمضان أو شعبان فجميع الأشهر شوال .

انطون الجميل

هو الأديب الفاضل بحق وصدق انطون الجميـــل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام وهو من آكابر المؤمنين بعبقرية شوقى وقد أكرمه فى الحياة وبعد الممات •

ألقى محاضرة فى الاسكندرية بالفرنسية عن شوقى زعم فيهـا ان الشعر العربى انقرض بعد شوقى فمضيت الى بيتى ونظمت قصيدة بين الحب والحرب وهى قصيدة أعظم من جميع قصائد شوقى ، موحيا وهو فى دار الخلود •

زكى مبـارك

فهرس